

جامعة الكوفة – كلية الآداب
قسم اللغة العربية

سورة الإســــــراء
دراسة بلاغية دلالية

رسالة قدمها إلى
مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة
فاضل ضايف سلطان

وهي جزء من منتطلبات بيل درجة الماجستير في اللغة العربية وادابها

بأشراف:
الاستاذ المساعد الدكتور :خليل عبد السادة ابراهيم الهلال

١٤٢٨ هـ   ٢٠٠٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَـأْتُونَ بِمِثْلِـهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً

الإسراء : ٨٨

الإهداء

١-إلى روح والديّ

في عالم الملكوت ... اللذيْن بذلا جهداً في تربيتي

وإعانتي في دراستي

أهدي هذا الجهد المتواضع مع دعائي لهما بالرحمة

والغفران ...

٢-إلى أخوتي الأعزاء ... وفاءً واحتراماً

٣-إلى ابنتيّ العزيزتينِ ... زينب وفاطمة

استشرافاً لمستقبلٍ زاهرٍ ...

فاضل

شكر وعرفان

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَمَنْ يَشكرُ فإنّمَا يَشكرُ لِنفسهِ ..)   (لقمان : الآية ١٢)

في البدء لابد لي من أن أحمد الله سبحانه حمداً كما يستحقه وأشكره شكراً غير منقطع على جميع صنعه وآلائه وأنعمه المتعددة ، ومنها هذه النعمة الكبيرة ، حيث جعلني محباً لكتابه العزيز ومتواصلاً معه ، ثم هدايته وترغيبه في أن يكون موضوع هذه الدراسة مستقى من ذلك الكتاب العظيم ، ثم تذليله العقبات والصعوبات التي واجهتني في كتابة هذا البحث .

ثم ، ومن بعد ذلك ، أتقدم بالشكر الوافي إلى أستاذي المشرف الدكتور خليل عبد السادة إبراهيم الذي لم يبخل علي بملاحظاته وتقويماته للبحث على الرغم من كثرة شغله وتبعاته فجزاه الله عني خير جزاء المحسنين .

وأسجل شكري أيضاً إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية جميعا ، عرفانا لما قدموه لنا في السنة التحضيرية التي أسهمت في النضج الفكري والعلمي لإعداد هذه الرسالة .

وكذلك أشكر زملائي في مرحلة الماجستير ، لما أبدوه من طيب المعاملة والسلوك والتعاون الأخوي والعلمي ، واسأل الله أن يوفقهم جميعا في حياتهم ويسعدهم في آخرتهم .

ولا أنسى صديقي العزيز الأخ الدكتور خليل خلف بشير في جامعة البصرة وأخصه بالشكر الجزيل لما أبداه من تعاون سخي في إرشادي إلى بعض المصادر وتهيئتها ، وإبداء المشورة النافعة .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى إخواني في المركز الثقافي والمكتبة العامة في ناحية الفهود وأخص منهم بالذكر السيد سلام حسن ، لما أبدوه من مساعدات مشكورة .

وكذلك أتقدم بالشكر للأخ عدنان النجم في مكتب النور للطباعة الذي بذل جهداً كبيراً في طباعة هذه الرسالة ، وإلى كل الأصدقاء والمحبين الذين لم أحرم سؤالهم ودعاءهم ، وفق الله الجميع إلى كل خير وأزال عنهم الكرب ورزقنا وإياهم الفرج القريب إن شاء الله تعالى .

الباحث

المحتويات

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٠) وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩) كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ

لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً (٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (٥١) يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (٥٥) قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤) إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنْ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا

يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧) أَقِمْ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً (١٠٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ

يَسْتَفِزّهُمْ مِنْ الأرْض فَأَغْرَقنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ﴿١٠٣﴾ وَقُلنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأرْضَ فَإذا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئنَا بِكُمْ لفِيفاً ﴿١٠٤﴾ وَبِالحَقّ أنزَلنَاهُ وَبِالحَقّ نَزَلَ وَمَا أرْسَلنَاكَ إلاّ مُبَشّراً وَنَذِيراً ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآناً فَرَقنَاهُ لِتَقرَأهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ وَنَزّلنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أوْ لا تُؤْمِنُوا إنّ الذِينَ أوتُوا العِلمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عَليْهِمْ يَخِرّونَ لِلأذْقَان سُجّداً ﴿١٠٧﴾ وَيَقولونَ سُبْحَانَ رَبّنَا إنْ كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لمَفعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرّونَ لِلأذْقَان يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴿١٠٩﴾ قُلْ ادْعُوا اللّهَ أوْ ادْعُوا الرّحْمَنَ أيّاً مَا تَدْعُوا فَلهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً ﴿١١٠﴾ وَقُلْ الحَمْدُ لِلّهِ الذِي لمْ يَتّخِذْ وَلداً وَلمْ يَكُنْ لهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَلمْ يَكُنْ لهُ وَلِيٌّ مِنْ الذّلّ وَكَبّرْهُ تَكْبِيراً ﴿١١١﴾

أ

أشهد أن إعداد هذه الرسالة قد جرى بإشرافي بمراحلها كافة وأرشحها للمناقشة .

الإمضاء :

الاسم : أ . م . د خليل عبد السادة إبراهيم

التاريخ : ٢٩/١١/٢٠٠٧ م

بناء على ترشيح المشرف العلمي وتقرير الخبير العلمي أرشح الرسالة للمناقشة .



الإمضاء :

الاسم : أ . م . د . خليل عبد السادة ابراهيم الهلال .

ب

استنادا إلى قرار مجلس الكلية بجلسته الخامسة المعقودة بتاريخ ٢٠٠٧/١١/٢٨م بشأن تشكيل لجنة لمناقشة الرسالة الموسومة (سورة الإسراء دراسة بلاغية دلالية) للطالب (فاضل ضايف سلطان) نقر نحن رئيس لجنة المناقشة وأعضاءها أننا اطلعنا على الرسالة وناقشنا الطالب بمحتوياتها وفيما له علاقة بها بتاريخ ٢٠٠٨/١/٣١م ووجدناها جديرة بالقبول لنيل درجة الماجستير باللغة العربية وآدابها بتقدير (جيد جدا).

الإمضاء :
الاسم: أ. م. د . حمزة فاضل يوسف
جامعة القادسية / كلية التربية
عضوا
التاريخ : ٢١/ ٥/ ٢٠٠٨م

الإمضاء :
الاسم: أ. د . علي كاظم أسد
جامعة الكوفة / كلية الآداب
رئيس اللجنة
التاريخ : ٢١/ ٥/ ٢٠٠٨م

الإمضاء :
الاسم: أ. م. د . علي كاطع خلف
جامعة الكوفة / كلية الآداب
عضوا
التاريخ : / /٢٠٠٨م

الإمضاء :
الاسم: أ. م. د . خليل عبد السادة إبراهيم
جامعة الكوفة / كلية الآداب
عضوا (المشرف)
التاريخ : ١/ ٦/ ٢٠٠٨م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

أمّا بعدُ ...

فإنّ الدراسات القرآنية على كثرتها وتنوعها ودقتها وتطورها لم تستوفِ جميع العناصر والقيم الجمالية في الأسلوب القرآني ، وإنّ ما قدمه الدارسون لهذا النص الكريم من مفسرين ومفكرين وأدباء ومتخصصين في اللغة والبلاغة والنقد والدلالة – على عظيم ما قدموه – لم يكشف عن تمام مواطن الإعجاز البلاغي ، ولم يُشر بإصبع واضحة إلى مكامن أسرار نظمه الذي كان وما يزال يهزّ مشاعر السامعين من عربٍ وأعاجم ممّن آمنوا بهذا الكتاب أو لم يؤمنوا ، فكثيراً ما كانوا ينصتون مندهشين مأخوذينَ من نظمهِ ، فقد ((حكي أنّ نصرانياً مرّ برجل يقرأ القرآنَ فبكى ، فقيل له ما أبكَاك ؟ قال : النظمُ))[١].

ولذلك فإنهّ مازال هناك مطمعُ كريم يراودُ عشاقَ هذا الكتاب للنوال من هذه المأدبة الكريمة والمتجددة التي لا تخلق على كثرة الأخذ والرد .

وقد كان يسرني أنْ يكون موضوع دراستي الجامعية مستوحى من كتاب الله العزيز ، ولذلك قدمتُ إلى اللجنة المختصة في قسم اللغة العربية في هذه الكلية المباركة مجموعة من العناوين تمثل مشروع بحثٍ ليكون موضوعاً لدراستي ، ولكنها لم تنل حظ الموافقة والقبول ، وبناءً على اقتراح بعض الأساتذة الكرام تمَ التوجيهُ إلى دراسة سورة كاملة من سور القرآن الكريم ، دراسة أدبية على وفق قوانين العلوم اللغوية ، وهو منحى جديدُ في الدراسات القرآنية الأكاديمية ، وبعد قبول هذه الفكرة واستحسانها وقع الاختيار أولاً على سورة (هود) ، لما تتمتع بهِ السورة من خصائص فنية وأدبية متميزة ، وكونها ذات طول مناسب للدراسة ، ولكن بعد مدةٍ وجيزةً تبيّن أنّ هذه السورة قد كانت موضوع دراسة لأطروحة للدكتوراه تقدم بها الطالب عبد الكريم ناصر محمود الخزرجي إلى كلية الآداب في جامعة البصرة ، ثم تبين لي أنْ هناك مجموعةُ من السور القرآنية قد دُرست في الآونة الأخيرة في جامعة البصرة على وفق هذا المنحى ، وهي: سورة الزخرف ، دراسة لغوية ، رسالة للطالب خليل عبد المعطي ، والنظم القرآني في سورة (ق) ، دراسة تحليلية ، رسالة للطالب عثمان خالد فضل ، والمعاني الوظيفية في

١– بحار الأنوار : ١٩ / ٧٠

سورة الإنعام ، دراسة تحليلية ، رسالة للطالبة شيماء محمد البرية ، وسورة يوسف (عليه السلام) دراسة بلاغية ، رسالة للطالبة آمنه محمد عباس .

وبعد الاطلاع على هذه الدراسات وقع الاختيار على سورة (الإسراء) ، لما يتوافر فيها من مميزاتٍ تصلح أنْ تكون موضوعاً خصباً للدراسة ، حيث تتنوع الأساليب وتختلف الدلالات في هذا النص الكريم وهذا ما أكسبه طابعاً متميزاً ، لاشتمالهِ على كثير من الفنون الأدبية والإشارات الدلالية ، حيث يمكن أنْ يكون نموذجاً صالحاً لدراسة النص القرآني في كثير من أساليبه وفنونه ، شأنها في ذلك شأن كثير من سور القرآن ذات الطول المتوسط التي غالباً ما تجمع بين الأسلوبين المكي والمدني في القرآن الكريم .

وقد كان عنوان هذه الدراسة : (سورة الإسراء دراسة بلاغية دلالية) ، وذلك اعتقادا بأنّ النص لا يمكن أنْ تستوفى أغلب عناصر الجمال فيه إلاّ بدراسة شاملة على وفق معطيات العلوم الدلالية ، وإلاّ كان فهم النص مبتوراً ومبعثراً . وقد أفرد البحث عنواناً مستقلاً للدراسة البلاغية على الرغم من كونها مفردة من مفردات علم الدلالة ، لما للعلوم البلاغية من استقلالية تشخصتْ وتميزتْ بمصطلحاتها وكيفية الدلالة ومستواها في النص.

أهداف البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز القيم الجمالية في سورة (الإسراء) بوصفها نموذجا مصغرا للقيم والمستويات الدلالية في القرآن الكريم التي ينبغي لدارس النص القرآني : مفسراً ، أو مستنبطاً ، أو محللاً ، أو ناقداً ، أو متذوقاً ، أنْ يكون ملتفتاً إليها ومتمثلاً إياها ، لأنها تمثل العناصر الأساسية في فهم النص ، مضافاً إلى ما يمتلكه من مقومات وعناصر أخرى تناسب مجال صناعته ، حيث صنفَ البحث النص إلى ثلاثة مستويات تتمثل في : المعاني الثانية ، والمعاني الالتزامية ، والمعاني الدلالية ، ويتكفل علم المعاني وعلم البيان في إبراز المعاني الأولى والثانية ، بينما يتكفل علم الدلالة في إبراز المعاني الدلالية .

وقد اقتضت طبيعة البحث الأكاديمي الفني ، التفريق بين مقومات النص ، في حين ينبغي لمفسر النصّ أو متذوقه أنْ يجمع ذلك الشتات المتناثر على صعيد واحد وصولاً إلى الدلالة الحقيقية .

منهج البحث :

يتضمن البحث جانبين أساسيين وهما : الجانب النظري ، والجانب التطبيقي ، وإن كان الثاني هو المعني بهذه الدراسة بصورة مباشرة ، إلاّ أنه لا غنى عن الجانب النظري ، لأنه الأساس الذي يبنى عليه التطبيق والتحليل في كل بحث .

وقد اعتمدت في الجانب النظري على اختيار الفنون والأساليب البيانية التي لها قيمة جمالية ، ثم التعريف بالمصطلحات وبحث فكرته الأساسية دون الخوض في تعريفاته التي لا تخدم البحث ، وربما قاد ذلك إلى نظرة تأريخية مركزة ، مضافاً إلى مناقشة بعض الآراء النظرية أو الحكم عليها أحياناً ، وقد استقيت معلومات الجانب النظري من مصادرها الأساسية ومنها : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، ومفتاح العلوم ، وكتب الدلالة والبيان الحديثة ، ولا يضرّ بذلك ما اعتمده البحثُ من بعض الكتب المدرسية ، مثل جواهر البلاغة ، والبلاغة والتطبيق ، التي أخذت منها بعض التعريفات التي تبرز المصطلح بصورة واضحة ، أو بعض المعلومات الجانبية للموضوع.

أما الجانب التطبيقي فيقوم على استقراء الفنون والأساليب الواردة في السورة التي لها قيم استعمالية ، ثم محاولة استجلاء المعاني والدلالات التي تؤديها هذه الاستعمالات في النص ، وقد اعتمدت على مجموعة من كتب التفسير البياني ، ومنها: التفسير الكبير ، والكشاف ، وروح المعاني ، ومجمع البيان ، وتفسير الميزان ، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، وغيرها في تأييد المعطيات البيانية أو مناقشتها ، أو الفصل بينها على وفق تلك المعطيات .

وقد قسمتُ هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول ، يتضمن كل فصل مجموعة من الموضوعات المستقلة على شكل فقرات متسلسلة ، وبذلك تكون هذه الدراسة قد جاءت كاملة على النحو الآتي :

- التمهيد : ويتضمن فقرتين ، الأولى : (بين يدي السورة) ويتضمن المعلومات الأساسية للسورة : خصائصها ، وموضوعاتها ، وفضلها ، وغير ذلك ممّا له علاقة بظاهر السورة .والثانية : تضمنت موضوع التفسير بالرأي وعلاقته بالدراسات البيانية ، ومناقشة العلاقة الجدلية القائمة بصورة مختصرة ، وذلك لأنّ موضوع هذه الدراسة يمثل جانباً من جوانب التفسير البياني للنص القرآني .

- الفصل الأول : (المعاني الثانية في سورة الإسراء) ، ويتضمن مقدمة في تأصيل المعاني الثانية ، ثم يتناول الموضوعات الآتية :

١- الخبر والإنشاء في السورة ، حيث تمّت الإشارة إلى حالة التناوب الدلالي بين الخبر والإنشاء في السورة ، والمعاني الثانية التي تؤديها الأخبار ومستوياتها المختلفة ، وكذلك صور الإنشاء الواردة في السورة ، كالأمر ، والنهي ، والاستفهام .

٢- تناول هذا الفصل بالدراسة النظرية والتطبيقية مجموعة من الأساليب الواردة في السورة ،كالالتفات ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والإطلاق والتقييد ، والتنكير ، والحذف ، وبيان المعاني الثانية التي تؤديها هذه الأساليب في النص .

- الفصل الثاني : (المعاني المجازية والكنائية في سورة الإسراء) ، ويتضمن هذا الفصل : أولا : المعاني المجازية ، وفيه مقدمة تتحدث عن الحقيقة والمجاز في اللغة ، ثم الإشارة إلى المجاز في القرآن الكريم ، وإلى الصور المجازية في سورة الإسراء المتمثلة في المجاز العقلي ، والمجاز المرسل ، والاستعارة .

ثانياً : المعاني الكنائية ، وتطرقت فيها إلى أهم المعاني الكنائية الواردة في سورة الإسراء وقيمتها في التصوير الفني .

- الفصل الثالث : (المعاني الدلالية في سورة الإسراء) ، وتضمن مقدمة في مفهوم المعاني الدلالية ، ثم تناول أهم المعاني الدلالية الواردة في سورة الإسراء وهي :

١- الدلالة الصوتية . ٢- الدلالة الصرفية . ٣- الدلالة النحوية .

٤- الدلالة اللفظية . ٥- الدلالة المفهومية . ٦- دلالة الاشتراك اللفظي .

٧- دلالة الترادف . ٨- دلالة الغريب .

- الخاتمة : وقد تطرقتُ فيها إلى استخلاص أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وأخيراً أقول : إنّ ما جاءَ في هذا البحث هو ليس تفسيراً لسورة الإسراء ، وإنما هو بيان لبعض مواضع أسرار التعبير القرآني وكشف عن بعض صوره الرائعة التي تسهم في توضيح الدلالة وكشف المراد ، فما جاء فيه من صواب فهو من فضل ربي ، وما جاء فيه من خطل وزيغ ، فهو من نفسي أنا العبد الخاطئ .

الباحث

فاضل ضايف سلطان

ذي قار- الفهود

التمهيد

أولاً : بين يدي السورة :

سورة الإسراء من السور المكية [1] التي نزلت قبل الهجرة النبوية الشريفة ، ولكن هناك من المفسرين من لا يعتقد بمكية تمام السورة ، فقد ((قيل : هي مكية إلا خمس آياتٍ : ﴿ ولاتقتلوا النفس ... ﴾ الآية ، ﴿ ولاتقربوا الزنى ..... ﴾ الآية ، ﴿ أولئك الذين يدعون ..... ﴾ الآية ، ﴿ أقم الصلاة ..... ﴾ الآية ، ﴿ وآتِ ذا القربى حقه ..... ﴾ الآية ، وقيل : هي مكية إلا ثماني آيات:
﴿ وان كادوا ليفتنوك ﴾ إلى قوله : ﴿ وقل ربِّ أدخلني مدخل صدق....﴾ الآية)) [2]

وقال الزمخشري : مكية إلا الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ ، ومن آية ٧٣ إلى غاية ٨٠ فمدنية [3] . وقيل: أستثني منها أيضا : (ويسألونك عن الروح٠٠٠)،وقوله تعالى : (وقل جاء الحق وزهق الباطل...) ، و(قل لئن اجتمعت الإنس والجن...)،و(وما جعلنا الرؤيا...) ، و(إن الذين أوتوا العلم من قبله...) [4]

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ المفسرين متفقون على مكية هذه السورة إلاّ هذه الاستثناءات المذكورة عند بعضهم ، وهذا الأمر ليس بدعاً تتفرد به هذه السورة ، وإنما هو أمر مشترك في كثير من سور القرآن الكريم ، فقد تكون السورةُ مكية في نزولها ماعدا آيةً أو آيات مدنية أُضيفت إليها توقيفاً ، وقد تكون مدنيةً بتمامها إلاّ آيةً أو آياتٍ نزلت بمكة فأضيفت إليها بما يناسب الغرض الإلهي ، وقد تكون مكية أو مدنية خالصة [5]، ذلك لأن القرآن الكريم لم ينزل دفعة واحدةً وإنما نزل منجماً مفرقاً حسب الحوادث والمناسبات كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [6].

ونحن في هذه الدراسة البلاغية والدلالية في سورة الإسراء المباركة سوف لا نحتاج كثيراً لمعرفة المكي والمدني لأننا سنتعامل مع هذا النص الإلهي ولغته البيانية المعجزة بوصفه وثيقة صالحة لمخاطبة جميع البشر وفي كل الأزمان ، وخاصة من الذين يحسنون البيان العربي الذين تحداهم القرآن

١- ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٦ / ٤٤٣ ، ومجمع البيان في تفسير القرآن : ٦ / ٢٤٥ .
٢ ـ مجمع البيان:المصدر نفسه.
٣- الكشاف : ٢ / ٦٢١ .
٤ـ ينظر الإتقان في علوم القرآن:٦٠/١.
٥- ينظر : المصدر نفسه : ١ / ١١ / وما بعدها .
١- سورة الإسراء : ١٠٦ .

الكريم وتحدى غيرهم من الإنس والجن ، وحيث لم يقدروا على ذلك دعاهم إلى التدبر في معانيه ودلالاته التي لا نفاد لها حيث يقول سبحانه : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]

وهذا لا يعني أنّنا نستغني أبداً عن الاستعانة بمكيّة الآية أو مدنيتها في إثبات بعض الحقائق التاريخية أو الفنية أو الدلالية في السورة إن لزم الأمرُ ذلك ، فإنّ لهذا الفن عظيم الخطر وكبير الأثر في معرفة بعض الدلالات في النص القرآني ، ولكن الذي يهوّن الأمر في بحثنا هذا أنّنا أعلنّا سلفاً مكية هذه السورة بتمامها ما عدا ما قيل في هذه الآيات المستثناة التي أشرنا إليها .

نزولها :-

لقد ارتبط نزول سورة الإسراء بحدث كبير وخطير كان له صداه الواسع في المجتمع العربي آنذاك ، وهذا الحدث هو المعجزة الكبرى الثانية للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد القرآن الكريم ، وهو إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عروجه إلى السماء فيما عُرف بعد ذلك (بالإسراء والمعراج) ، ((وكان ذلك بمكة حيث صلّى المغرب في المسجد الحرام ثم أُسري به في ليلته ثم رجع فصلّى الصبح في المسجد الحرام)) [2] ، وقد ورد هذا الأمر صريحاً في قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [3] .

وعلى الرغم من ارتباط هذا النزول بحدثٍ هام كانَ مثار جدلٍ واختلاف بين المسلمين في كيفيته - ومازالوا مختلفين - فقد اختلفوا في السنة التي أُسري به (صلّى اللهُ عليه وآله) فيها ، فتعددت أقوالهم في هذا الأمر مابين السنة الثانية للبعثة إلى السنة الثانية عشرة منها [4] ، وهي أقوال لا تقوى بحجة ولا تعتضد بدليل ، وغالباً ما يكتفي المؤرخون والمفسرون في ذكرها دون التعليق عليها ، إلا أنّ بعضهم ادّعى اتفاق أهل العلم على أنّ المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشرة سنة ، قبل الهجرة بسنة [5]، وحدد الدكتور عبد الله محمود شحاتة نزول السورة في كتابه(تفسير سورة الإسراء) بالسنة الحادية عشرة للبعثة قبل الهجرة بسنة ، ويعدّها من أواخر ما نزل بمكة. [6]

والحقيقة التي تتفق عليها جميع هذه الأقوال ويمكن الاطمئنان إليها والبناء عليها ، هي نزول هذه السورة قبل الهجرة النبوية بمكة ، أما كونها في بداية العهد المكي أو في آخره ، فلا سند تاريخي يعوّل

٢- سورة محمد : ٢٤ .
٣- مجمع البيان : ٦ / ٢٤٧ .
١- سورة الإسراء : ١ .
٢- ينظر : روح المعاني : ٨/ ٨ ، والميزان في تفسير القرآن : ١٥ / ٣٢ .
٣- تفسير البغوي : ٩٥ ـ ٩٦ .
٤- تفسير سورة الإسراء : ١٤

عليه في ذلك ، ويبقى الترجيح نابعاً من الاستحسان والحدس الذي قد توفره الدراسة الفنية للسورة والتمعن في خصائصها كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

الإسراء في اللغة :-

الإسراءُ لغة من سريتُ سرًى ومسرًى ، وأسريتُ بمعنى إذا سرتُ ليلاً ، وقد جاء القرآن الكريم باللغتين جميعاً فقال تعالى :(سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) و (فأسر بأهلك بقطع من الليل) وقال سبحانه (والليل إذا يسر) .

وهو من الأفعال التي تتعدى وتلزم فيقال : أسراه وأسرى به مثل أخذ الخطام وأخذ به ، وإنما قال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) وإن كان السُّرى لا يكون إلا بالليل ، للتأكيد .

والسَّراء هو الكثير السُّرى بالليل ، والسِّراية والسُّرية سُرى الليل وهو مصدر، ويقل في المصادر أن تجيء على هذا البناء لأنه من أبنية الجمع [(١)] ، مثل مُدية ومُدى .

وقيل : إن أسرى ليست من لفظة سرى يسري ، وإنما هي من (السُّراة) وهي الأرض الواسعة وأصله من الواو ، وأسرى بحسب هذا المبنى في قوله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده) أي: ذهب به في سُراة من الأرض ، نحو أجبلَ وأتهمَ ، وسُراة كل شيء أعلاهُ ، ومنه سّراة النهار أي: ارتفاعه، وقوله تعالى : (قد جعل ربكِ تحتكِ سريا) أي: نهر يسري ، وقيل: بل ذلك من السَّروْ أي: الرفعة ، يقال رجل سرو،وهو في الآية إشارة إلى عيسى (عليه السلام)[(٢)].

وبحسب هذا المعنى للإسراء يكون إشارة إلى كيفيته بهذه الطريقة المعجزة ، ولا تكون لفظة (ليلاً) تأكيداً له ، بل تكون تحديداً لوقوعه وتمامه بهذا الوقت .

وعن إصلاح المنطق : ((سروتُ عني ثوبي أسروه سرواً إذا ألقيته ، وقد سروتُ عني درعي ، بالواو، لا غير))[(٣)]

وعن أبي زيد : السُّرى أول الليل ووسطه وآخره ، وقد استعملت العرب السرى في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً ، وسرى فيه السُم إذا تعدى أثره ، وسرى عليه الهم إذا أتاه ليلاً ، وسرى همه ذهب [(٤)] .

عددُ آياتها وترتيبها :-

١- ينظر: لسان العرب : ٦ / ٢٥٢ .
٢- ينظر : المفردات في غريب القرآن : ٢٣١ .
٣- إصلاح المنطق : ١٩٧ .
٤- ينظر: مجمع البحرين : ١ / ٢١٧ .

تتألف هذه السورة من ستة آلاف وأربعمائة وستين حرفاً ، وألف وخمسمائة وثلاثٍ وثلاثين كلمة ، ومائة وإحدى عشرة آية [١] ، في الكوفي ، ومائة وعشر آيات في البصري والمدني [٢] * .

ورقم ترتيبها في المصحف الشريف هو السابع عشر ، بعد سورة النحل ، ويأتي بعدها سورة الكهف ، فسورة مريم ، فسورة طه ، وهي كلّها سورٌ مكية متقاربة الطول وعدد الآيات نسبياً ، وتناظرها سورة يوسف في عدد الآيات ، حيث تبلغ مائة وإحدى عشرة آية أيضاً .

أمّا رتبتها في النزول فهي بعد سورة القصص [٣] ، التي تأتي في ترتيب المصحف بعد سورة الإسراء بِعشر سور .

تسميتها :-

هي سورة بني إسرائيل ، وهذا هو اسمها الأوّل والمشهور بين المفسرين الأوائل ، والى ذلك أيضا تشير الروايات التي تتحدث عن فضيلة السورة ــ كما سيأتي ــ حيث تطلق عليها (بني إسرائيل) فقط ، وهذه التسمية مرتبطة بأحد الموضوعات المهمة في هذه السورة ، وهو موضوع بني إسرائيل ، حيث تتناوله هذه السورة بطريقة جديدة ومثيرة حينما تتنبأ بمستقبلهم السياسي وإفسادهم وانتصارهم وهزيمتهم المحتومة على أيدي الموحدين .

أمّا التسمية الأخرى التي اشتهرت بين المتأخرين وتعتمدها المصاحف الحديثة فهي سورة (الإسراء) ، حيث الحدث الأوّل في هذه السورة ، وهو إسراء النبي الأكرم (صلىّ الله عليه وآله وسلم).

والتسمية الثالثة التي لم يتداولها المفسرون مأخوذة من الكلمة الأولى فيها ، وهي (سبحان) في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ...... ﴾ وقد اعتمدها أبن كثير في تفسيره [٤].

وهذه التسمية على غرار أسماء بعض السور التي تسمى بالكلمة الأولى فيها كسورة (الفاتحة) التي من أسمائها (الحمد) ، وسورة (الملك) التي تسمى (تبارك) أيضا.

خصائصها :-

٥- الكشف والبيان في تفسير القرآن : ٤ /٣ .
٦- التبيان : ٤٤٣/٦ ، وجوامع الجامع : ٣٥٧ .
* - اختف في عدد آي القرآن أهل المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة ، فعدد أهل الكوفة هو المنسوب إلى حمزة بن حبيب الزيات وأبي الحسن الكسائي وخلف بن هشام . قال حمزة : اخبرنا بهذا العدد أبن أبي ليلى عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب .
وأما عدد أهل البصرة فمداره على عاصم بن الحجاج الجحدري ، وقد روى المكيون عددهم عن عبد الله بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب ، وعدد المدني على ضربين أحدهما ينسب إلى ابن جعفر بن يزيد بن القعقاع احد القراء العشرة ، ولم ينسب الآخر . وعدد الآي لم يرد فيه نص متواتر ولا شيء من الآحاد يعتمد عليه . ينظر : تفسير الميزان : ١ / ٣٣٦ .
١- الكشاف : ٢/ ٦٢١ ، والتفسير الكبير : ٢٠/ ١٤٥ .
٢- تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٢ .

تتميز سورة الإسراء في إطارها العام بهذا الجو الموسيقي السيّال الذي لا يهدأ إلى نهاية السورة ، على الرغم من الطول النسبي في آياتها ، وبسط الفكرة ، وتنوع الموضوعات على خلاف ما نراه في السور المكيّة التي نزلت في بداية البعثة التي تتميز بقصر فواصلها ومراعاتها للسجع الذي يوفر لها تلك الموسيقية التي تتناسب مع الأجواء والمعاني المهولة فيها .

أما سورة الإسراء فتعتمد بتوفير هذه الموسيقية الداخلية للنص ، مضافاً إلى مراعاتها للفواصل - كإحدى الأدوات الهامة - على التناسب بين الجمل القصيرة في الآية الواحدة التي تتميز بالطول النسبي أحياناً .

وهي بهذا تكون من السور المتميزة في هذا المجال ، ويمكن الإحساس بذلك عند قراءة السورة بطريقة قرآنية ، كما نلحظ ذلك التميز في سور أخرى مثل سورتي (ص) و (ق) ، وسورة القمر ، وسورة إبراهيم (عليه السلام) ، وغيرها من السور ذات الطول المتوسط .

فضلاً عن أن سورة الإسراء قد جمعت بين موضوعات السور المكيّة من جانب ، وموضوعات السور المدنية من جانب آخر ، فهي مضافاً إلى اشتمالها على موضوع التوحيد والدعوة إليه ، وسوق الأدلة على ذلك الذي هو من خصائص السور المكية ، اشتملت على الدعوة إلى التمسك بالآداب ومكارم الأخلاق ، ونظام الأسرة والعلاقة بين أفراد المجتمع وبعض النظم التي تهم الفرد والمجتمع ، وهذا مما يرجح القول بأنّ هذه السورة ((من أواخر العهد المكي وهي ممهدة للعهد المدني حيث استقرت الدعوة في المدينة ونزل القرآن يرسم سياسة المسلمين الداخلية والخارجية)) [1].

موضوعاتها :-

تتميز سورة الإسراء بكثرة الموضوعات المطروحة فيها ، وتنوعها مابين العقيدة وقواعد السلوك الفردي والجماعي ، والعِبَر والسنن الإلهية والمعاجز وغير ذلك .

ويمكننا أن نجمل هذه الموضوعات والمحاور الأساسية التي يدور حولها مضمون السورة بما يأتي :

١- معجزة النبي الأكرم (صلى اللهُ عليه وآله وسلم) في رحلته الخاطفة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى التي تعرف بـ (الإسراء) ، ثم رقيّه من بيت المقدس إلى السموات العلى وهو ما يعرف عند العلماء بـ (المعراج) .

وقد نجد أن بعض المفسرين لا يفرق بين الكلمتين فيستعمل (المعراج) في الإسراء إلى بيت المقدس ، ويستعمل الإسراء في الصعود إلى السماء [2] ، وقد يعبّر بالإسراء عن كلا الحدثين .

١- تفسير سورة الإسراء : ١٤ .
٢- ينظر : تفسير البغوي :٩٦ ، والتفسير الكاشف : ٥/ ٨ .

أمـا الإسـراء فهـو ثابـت بـنص القـرآن الكـريم فـي الـسورة نفسها [١] ، وأمّـا المعـراج فقـد ورد فيـه روايـاتٌ كثيـرة ((ورواه كثيـر مـن الـصحابة مثـل ابـن عبـاس وابـن مـسعود وأنـس وجـابر بـن عبـد الله وحذيفة وعائشة وأم هانئ وغيرهم عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)) [٢].

ولا تكاد كتب التفسير ، وكتب التاريخ تخلو من هذه الروايات عندما تتعرض لهذه القضية المعجزة[٣] .

وقد أُختلف في توجيه هذه الروايات وفهمهـا اختلافـاً كبيـراً فيمـا يتـصل بكيفيـة الإسـراء والمعـراج ، هل كان ذلك في اليقظة أم في المنـام ؟ وهل كـان بـالروح أم بالجسد والروح معـاً ؟ فكـان ذلـك مثـار خـلاف وجدل مازال قائماً .

وتنقسم جملة هذه الروايات الكثيرة إلى أربعـة أوجـه كمـا يـصنفها صـاحب كتـاب مجمـع البيـان وقد أجاد في هذا التصنيف :

((إحداها : ما يقطع على صحته ، لتواتر الأخبار به وإحاطة العلم بصحته .

وثانيها : ما ورد في ذلك مما تجوّزه العقول ولا تأباه الأصول ، فنحن نجوّزه ثم نقطع على أنّ ذلك كـان في يقظته دون منامه .

وثالثهـا : أن يكـون ظـاهره مخالفـاً لـبعض الأصـول إلا أنـه يمكـن تأويلهـا علـى وجـه يوافـق المعقـول ، فالأولى أن نؤوله على ما يطابق الحق والدليل .

ورابعها : ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله إلا على التعسف البعيد ، فـالأولى أن لا نقبلـه . فأمّا الأول المقطـوع بـه فهـو أنـه أُسـري بـه علـى الجملـة . وأمـا الثـاني فمنـه مـا روي أنّـه طـاف فـي الـسموات ورأى الأنبياء والعرش وسدرة المنتهى والجنة والنار ونحو ذلك .

وأمّا الثالث فنحو ما روي أنه رأى قوماً في الجنة يتنعمون فيها وقومـاً فـي النـار يعذبون فيهـا فيحمـل على أنه رأى صفتهم وأسماءهم ، وأما الرابع فنحـو مـا روي أنـه (صـلىّ الله عليـه وآلـه وسـلم) كلّم الله سبحانه جهرة ورآه وقعد معه على سريره ونحو ذلك ممـا يوجـب ظـاهرة التـشبيه ، واللهُ سـبحانه يتقـدس عن ذلك)) [٤]

٣- الآية :١

٤- مجمع البيان :٦/ ٢٤٧ .

١- ينظر مثلاً : مجمع البيان : ٦/ ٢٤٨ وما بعدها ،و تفسير العياشي : ٣٠٠ وما بعدها ، وتفسير البغوي : ٩٢/٣ وما بعدها ، وتفسير القرآن العظيم ،ابن كثير : ٣/٣ وما بعدها ،و تفسير القمي : ١/ ٣٩٥ وما بعدها ، والكامل في التاريخ : ١/ ٥٨٠ وما بعدها ،و روح المعاني : ٧/٨ وما بعدها ، والميزان في تفسير القرآن :١٥ / ٨ وما بعدها .

٢ـ مجمع البيان :٦٠٩/٦ .

ومن هذه الروايات ما هو مقطوع بكذبه ووضعه لأغراض سياسية ، وعقائدية لأنه يصطدم بالحقائق التاريخية للواقعة كالذي روي عن عائشة ومعاوية [١] .

فهذا مما لا يمكن قبوله والتصديق به ؛ لأنها كانت إذ ذاك صغيرة ولم تكن زوجة النبي(صلى الله عليه وآله) ، وكان معاوية كافراً صريحاً يومئذ . [٢]

٢ـ التنبؤ بأحداث وتاريخ الأمة اليهودية ، وإفساداتهم في التاريخ ومصيرهم المخزي المحتوم ، ((وعن ابن عباس : أن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل ، وذكر تعالى فيها عصيانهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم واستفزازهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإرادتهم إخراجه من المدينة وسؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختمها جلّ شانه بآيات موسى (عليه السلام) التسع وخطابه مع فرعون ، وأخبر تعالى أنّ فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأُهلك، وورث بنو إسرائيل من بعده ، وفي ذلك تعريض لهم أنهم سينالهم ما نال فرعون حيث أرادوا بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ما أرادوا هم بموسى (عليه السلام) وأصحابه))[٣]

٣ـ التسبيح لله وبيان أن كل ما في السموات والأرض يسبحه تعالى وينزهه ، فهي سورة التسبيح حقاً ، ترد فيها مادة (سبّح) ست مرات في مواضع مختلفة ، وهي تفتتح بالتسبيح ، وتختم بالحمد على تنزيه الله تعالى عن الولد والشريك والولي ، ومابين البدء والختام تنزيه دائم عن كل عيب ونقص وفتور .

٤ـ جملة من الآداب العامة والوصايا التي يعدها القرآن الكريم من الحكمة التي تنور الإنسان وتبقيه في مصاف رتبته الإنسانية ، ولعل من أهمها بيان العلاقة الاجتماعية بين الأرحام وحقوقهم ولاسيما الوالدين على أبنائهم .

٥ـ بيان بعض السنن الإلهية المهمة التي تحكم العلاقة بين الله تعالى وبين الإنسان والأمم.

٦ـ الدعوة إلى التوحيد الخالص ونفي الشريك بكل صوره ، والبرهان على ذلك بالأدلة العقلية الميسرة.

٧ـ بيان موقف المشركين والكافرين من القرآن والرسول واليوم الآخر ، والرد عليهم .

٨ـ الإشارة إلى مستقبل هذه الأمة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والفتن التي تمر بها ، من خلال الرؤيا التي أراها الله للنبي(صلى اللهُ عليه وآله وسلم)، والشجرة الملعونة في القرآن .

٩ـ ذكر محاججة الشيطان ، العدو الأول للإنسان ، وبيان وسائل غوايته وتضليله.

١٠ـ بيان فقر الإنسان الذاتي إلى ربّه ، وغفلته عن ذلك وجحوده بالتكريم الإلهي له .

٣– ينظر : التفسير الكبير : ٢٠/ ١٤٧ .

١– ينظر : روح المعاني : ٨/ ٩

٢– المصدر نفسه : ٣/٨.

١١ـ بيان بعض وسائل الأعداء للإطاحة بالنبي (صلى الله عليه وآله) ومشروعه الإصلاحي عن طريق احتوائه والالتفاف حول رسالته ومضمونها السامي ، وإرشاده(صلى الله عليه وآله) إلى وسائل القوة في مواجهتهم وعدم الاكتراث بمطالبهم واقتراحاتهم .

١٢ـ ذكر جانب من محاججة فرعون لموسى (عليه السلام) ، واستفزازه لهم ، وانتصار بني إسرائيل في نهاية الأمر وإغراق فرعون وجنوده .

١٣ـ بيان أنّ القرآن الكريم نزل مفرقاً ، ولم ينزل دفعة واحدة ، وهو مصدر هداية وبيان لكل الناس ، وشفاء لإمراض الإنسان الاجتماعية والنفسية والجسدية ، وهم أحرار في الأيمان أو عدم الأيمان به .

١٤ـ تصوير بعض ما يرتبط بيوم الحساب وكيفيته من خلال صحيفة أعمال الإنسان الملازمة له ، وبيان عدالة الله سبحان التي تكفل للإنسان أن يكون حسيباً لنفسه .

١٥ـ التنبيه إلى أنّ مصير هذه الأمّة وحالها سيؤول إلى ما آلت إليه بنو إسرائيل ، وأنهم خاضعون للسنن الإلهية نفسها ، وأنهم إن أطاعوا أثيبوا وعزّوا ، وإن عصوا عوقبوا وذلّوا.

الوحدة الموضوعية في السورة :ـ

إننا نحس من خلال هذا النص الكريم ، وكلما تكررت القراءة وحسُن التدبر فيها ، أننا أمام تصويرات حيّة لِعَنَتِ هذا الإنسان العجول دائماً ، المتسرع المستبد برأيه ، والسائر وراء هواه وأحكامه المسبقة على الأشياء .

ومن خلال هذه الانتقالات والمشاهد السريعة التي تصورها سورة الإسراء ، وهذا الحديث الذي ينتقل بنا من فنٍ إلى فنٍ ، ومن موضوع لآخر ، ومن وصف للإسراء إلى تاريخ اليهود ، إلى ردّ دعوى المشركين ، إلى قصص آدم وإبليس وفرعون وموسى ، نستشف من كل ذلك أن هذا الشتات المتناثر يرتبط برباط قوي ومتين يؤكد قدرة الله تعالى في كتابه ، وبيانه الأخاذ .

فكما أن سورة الإسراء يرتبط موضوعها بسابقتها سورة (النحل) ويتصل به كما يقول السيوطي إذ إنّ الله سبحانه لما قال في آخر سورة النحل : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[1] ، ذكر في هذه السورة شريعة أهل السبت التي شرعها لهم في التوراة [2] . فكذلك موضوعات السورة نفسها ترتبط برباط قوي بعد التأمل وإبعاد النظر .

فذكرُ إنزال التوراة على موسى (عليه السلام) ، وإفساد بني إسرائيل ، وتخريبهم بيت المقدس بعد ذكر حادثة الإسراء مباشرة غير مبتور ولا بمنقطع كما قد يبدو للوهلة الأولى ، فإنّ في ذلك تشريفاً

١ـ سورة النحل : ١٢٤ .
١- روح المعاني : ٨ / ٣ .

وجبراً للمسجد الأقصى الذي أفسده بنو إسرائيل من جهة [1] ، وإشعارا بعنت هؤلاء القوم وصلفهم وقسوة قلوبهم ورفضهم للآخر وإن كان محقاً أو نبياً من الأنبياء أو رسولاً من الرسل ، وتخريبهم كل ما ليس لهم وإن كان مما شرفه الله واختاره رمزاً من رموز توحيده من جهة أخرى .

وهكذا تأتي بقية الموضوعات تترى على هذه الشاكلة ، غير منفصل بعضها عن بعض وبنفَسٍ مستمر ، وأسلوب مشحونٍ بالإثارة يبعث على الترقب والتأمل، والترغيب والترهيب والتعقل ، مؤلّفة برباط عضوي موضوعاً واحداً هو تنزيه الله تعالى وتوحيده ، وانحطاط الإنسان وتعنته وميله ونزوعه إلى الشرك واتباع الهوى ، وجرّه عن طريق إثارة العقل وهداية الرسل والأنبياء من براثن الطواغيت إلى ساحة الأمن الإلهي والحياة الأبديّة السعيدة.

فضلها :-

لقد امتازت سور القرآن الكريم مضافا إلى كونها كتاب هداية وإرشاد بأبعادها الروحية وتأثيرها في النفوس والأشياء الأخرى حال تلاوتها أو تكرارها ، فلكل سورة من سور القرآن الكريم ، أثر خارجي يظهر على البدن أو الروح ، كالشفاء من الأمراض البدنية أو النفسية أو دفع الأرواح الشريرة ، أو السمو الروحي ، أو الأثر المعنوي في العالم الآخر ، وهذا هو المقصود بفضيلة السورة ، أي: الأمور والآثار التي اختصت بها السورة دون سواها، وسورة الإسراء اختصت ببعض الآثار الخارجية التي تحصل للقارئ عند تلاوتها بالأوقات أو الكيفية التي وصفتها الروايات التي سنذكرها وهي ما يأتي :

١- الشيخ الصدوق : بإسناده عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : ((ما من عبد قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم عليه السلام ، ويكون من أصحابه)) [2].

٢- عن الإمام الصادق (عليه السلام) : ((من كتبها في خرقة خضراء وتحرز عليها وعلّقها عليه ، ورمى بالنشاب أصاب ولم يخطئ أبداً ، وإن كتبها لصغير تعذر عليه الكلام يكتبها بزعفران ويُسقى ماءها ، أنطق الله لسانه بإذنه وتكلّم))[3].

٣- روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أنه قال : ((من قرأ هذه السورة ورقّ قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة ، والقنطار ألف ومائتا أوقية ، والأوقية خير من الدنيا وما فيها ، ومن

٢- ينظر : المصدر نفسه .
٣- ثواب الأعمال :١٢٣ ، وتفسير العياشي :٢ / ٢٩٩.
١- البرهان في تفسير القرآن ، البحراني : ٦/٧ .

كتبها وجعلها في خرقةٍ حريرٍ خضراء وحرز عليها ورمى بالنبال أصاب ولم يخطئ ، وإن كتبها في إناء وشرب ماءها لم يتعذر عليه كلام وأنطق بالصواب وازداد فهماً)) [1].

٤- في الدر المنثور : أخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : آيةُ العز ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [٢] وهي الآية الأخيرة من هذه السورة المباركة [٣] .

٥- وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ((إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا ﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر .... ﴾ ، والله اعلم))[٤].

ثانيا / الدراسات البلاغية والدلالية والتفسير بالرأي :-

لاشك في أنّ من الأهداف والأسباب التي دفعت العربَ والمسلمين إلى الخوض في الدراسات البلاغية ، خدمة القرآن الكريم [٥] ، الذي كان معجزةً في الدقة والبيان والإتقان ، وحيث عجز علم النحو عن إدراك اللمحات والأسرار والنكت اللطيفة في الأسلوب القرآني ، اتجهوا إلى فنٍ جديد ومعيار آخر لا يميز هذه المرة بين ما هو خطأٍ وصواب ، وإنما يهدف إلى كشف مواطن الجمال والأسرار ، والنظم والتأليف المتسق ، والأسلوب الأرفع الذي تميز به القرآن الكريم عن سائر الأساليب العربية الأخرى .

ذلك هو علم البلاغة الذي كان في مسيرته الأولى علماً شريفاً ، مقدساً، يستمد ذلك من شرف النص وقدسيته الذي ينهل منه ، وهذا ما دفع أبا هلال العسكري إلى المبالغة في إعلاء شأنه ورفع رتبته حيث يقول : ((إنّ أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ــ جلّ ثناؤه ــ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يُعرف إعجاز كتاب اللهِ الناطق بالحق)) [٦]، وهو يعلل لهذه الشرفية وعلو الرتبة بقوله : ((وقبيحٌ لعمري بالفقيه المؤتَم به ، والقارئ المهتدى بهديه ، والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته ، وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالعربي الصليب ، والقرشي الصريح ، أن لا يعرف إعجاز كتاب اللهِ تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي ، أو أن

٢- المصدر نفسه .
٣- سورة الإسراء : ١١١ .
٤- ينظر : الدر المنثور ، ٤ / ٣٧٦ .
٥- المصدر نفسه : ٤ / ٣٧٧ .
٦- البحث البلاغي عند العرب : ٣٠ .
١- الصناعتين : ٩

يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي .)) [(١)] ، وفي ذلك إشارة إلى المستويات الدلالية المختلفة في العمق والظهور التي يحملها النص القرآني ، والتي بها تتفاوت الأفهام ، وتتفاضل العقول وتتمايز الرتب .

وهكذا ابتدأت هذه الدراسات غضة ممتعة طريفة في بدايتها الأولى ، وقد تضافرت جهود كثيرة على وضع أسسها وأصولها شارك فيها المفسرون ، والأصوليون ، واللغويون والنحاة والشعراء والكتاب والفلاسفة والمتكلمون [(٢)] في مخاض عسير توّج بولادة هذا النوع من الفن التحليلي للنص القرآني على يد الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت ٣٧١ هـ) في كتابيه الفذين في هذا المجال : دلائل الأعجاز ، وأسرار البلاغة ، ولكن بعد أن استقر البحث البلاغي في القرن السابع الهجري على ما أرساه أبو يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) في القسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم ، وتابعة في ذلك الخطيب القز ويني (ت ٧٣٩ هـ) في كتابه (الإيضاح) في التقسيمات والمصطلحات ، حيث قسم هذا العلم إلى ثلاثة علوم رئيسية هي المعاني ، والبيان ، والبديع ، أصابها الجمود والتقليد وتغليب النظر العقلي ، والنزوع إلى التقسيم والاصطلاح بالحدود .

وظل هذا المنهج قائماً في الكتب البلاغية المتأخرة التي لا تعدو أن تكون شرحاً أو تلخيصاً لما تقدمها ، وصولاً إلى الكتب المنهجية التعليمية في المدارس والجامعات التي هي محض اقتباسات وإعادات للحدود والتقسيمات والشواهد ، على الرغم من محاولات التجديد والدعوة إلى إعادة النظر في هذا المنهج القائم على التجديد والتقسيم المنطقي لهذا الفن الذي أساسه الذوق الرفيع ، ووضع منهج تحليلي يعتمد على ما بدأه عبد القاهر الجرجاني ، وهو منهج يتخذ من العلاقات بين الكلم سبيلاً ومن الذوق الرفيع دليلاً . [(٣)]

ولذلك نجد أنّ الدراسات الحديثة قد أخذت بالاتجاه شيئاً فشيئاً لدراسة النصوص دراسة تحليلية كاملة لا ترتكز على هذه المبادئ والأسس والمعايير التي وضعها علماء البلاغة وجمدوا عليها فحسب ، وإنّما يتعدى ذلك إلى كل ما يكون دليلاً ورمزاً على المعنى المراد فظهر ما يسمى بـ (علم الدلالة) الذي نما وتطور إلى أن أصبح علماً مستقلاً بذاته في الدراسات الأدبية .

وهذا العلم الجديد وإن كان غير مفصول أو متميز عن غيره من فروع اللغة إلا أنّ وظيفته من حيث الشمول والاتساع ميزته عن الفروع الأخرى ، كعلوم البلاغة الثلاث التي حُدّدَتْ وظائفها ووقفت عند حد معين من الدلالة ، أما هذا العلم الجديد فهو يهتم بكل رمز لغوي يؤدي معنى الحدث الكلامي ويُسخّر العلوم العربية بما فيها العلوم البلاغية من أجل تحقيق ذلك ، فيدرس الجوانب الصوتية للكلمة ،

٢- المصدر نفسه .
٣- ينظر : البحث البلاغي عند العرب : ٣٠ وما بعدها .
١- ينظر : المصدر نفسه : ٧٩ وما بعدها .

ويراعـي الوظيفـة النحويـة لكـل كلمـة داخـل الجملـة ، وبيـان المعـاني المعجميـة ، والمعـاني الـسياقية والإضافية وغير ذلك مما له علاقة في إظهار المعنى وتجليته قدر الإمكان . [(١)]

فتضاءل دور البلاغة كعلم منفرد في فهم النص القرآني وتراجع كثيراً في الدراسات القرآنية ، لأنه لا يعكس سوى دلالات مبعثرة وصور مشتتة لا تساعد في إعطاء تصور شامل ومتكامل للمعنى.

وقد بدأت بذور هذا الاتجاه في التفسير تظهر حديثاً كما في تفسير محمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، ومحمد مصطفى المراغي ، ثم تبلورت على يد الشيخ أمين الخولي وتلامذته ، ولعل أبرزهم في هذا المجال بنت الشاطئ في كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم) [(٢)] .

هذه المعايير الجديدة لهذا النوع من الدراسات الدلالية والبلاغية التي ارتكزت عليها مؤلفات التفسير الأدبي للقرآن الكريم المذكورة آنفاً ، والمعايير التي ارتكزت عليها كتب التفسير الأخرى ذات الاتجاهات المختلفة مثل تفسير الكشاف للزمخشري ، والتفسير الكبير للفخر الرازي ، وروح المعاني للآلوسي ، وسيد قطب في (ظِلال القرآن) ، وتفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي ، ومواهب الرحمن في تفسير القرآن للسيد عبد الأعلى السبزواري ، وغيرها كثير من كتب التفسير الأخرى ، هذه المعايير والأسس هل تصلح أن تكون أساسا قوياً في فهم النص القرآني وتفسيره أم هي مما يعرف بالتفسير بالرأي الممنوع شرعاً ؟ أم أنّ لها وظيفة أخرى مكملة لعملية التفسير ؟ .

وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات نقول : إن التفسير ((هو إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز))[(٣)] ، وقد دعا سبحانه إلى النظر والتدبر في هذا الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يتسنى لكل أحد معرفة كنه أسراره وتشريعاته بشهادة ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [(٤)] .

ولعدم المخاطرة والوقوع في المحاذير الشرعية اقتصر الناس في الصدر الأول من الإسلام في تفسير القرآن الكريم على مصادره الأساسية الموثوق بها والمتاحة آنذاك ، وهي التفسير بالقرآن ، كإرجاع المتشابه والمجمل إلى المحكم والمبين ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وغير ذلك ، وكذلك الرجوع إلى النبي(صلى الله عليه وأله وسلم) ، ومن بعده إلى بعض الصحابة ممن كان ضليعاً في تفسير القرآن العظيم ، وممن خصّه الله تعالى بحمل أعباء الرسالة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) . [(٥)]

هذه هي المصادر الثلاث القطعية لتفسير القرآن الكريم وفهم معانيه ، وهو ما يعرف بالتفسير المأثور .

٢- ينظر : علم الدلالة ، احمد مختار : ١٣ وما بعدها .
٢- للاستزادة والتفصيل ينظر : المنهج البنائي في التفسير : ٥ وما بعدها .
١- البيان في تفسير القرآن : ٤١٩ .
٢- سورة الواقعة : ٧٩ .
٣- ينظر مفصلاً : الإتقان : ٢/ ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، و محاضرات في علوم القرآن : ١٧٠ .

أما النوع الآخر فهو ما يعرف بالتفسير بالرأي المنهي عنه[1] . وينبغي علينا أن ندقق النظر في المراد من التفسير بالرأي أولاً ، لكي نشخص الموقف من هذه الدراسات القرآنية ، فهل المراد منه هو كل ما يقابل التفسير بالمأثور فيكون ما عداه منهياً عنه ، إذ لم يستند إلى نصوص قطعية الصدور ؟ أم هو التفسير الذي لا يعتمد العلمَ والاجتهادَ وبذل الوسع والمقدمات الصحيحة ، ويعتمد على الظنون والاستحسان والميل مع الهوى المنهي عنها بقوله تعالى :﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [3].

نقول : إنّ المفسر الجامع للشروط التي وضعها العلماء للتفسير [4] ، مع إعمال الرأي وبذل الجهد ضمن نطاق الأدلة لا يعد تفسيراً بالرأي ، وإنما هو تفسير بالاجتهاد [5].

فالمفسر الذي يتبع ظواهر القرآن التي يفهمها العربي الصحيح ، أو يتبع ما حكم به العقل الفطري الذي هو حجة من الداخل ، كما أنّ النبي حجة من الخارج ، أو يتبع ما ثبت عن المعصومين (عليهم السلام) والذين أوصى النبي (صلى الله عليه وآله) بوجوب التمسك بهم لا يعد من التفسير بالرأي [6] .

وعند ذاك نستطيع إدراك اختلاف العلماء حول هذا النوع من التفسير الذي حرّمه بعض العلماء انطلاقاً من فهمه لحديث ((من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)) [7] ، وجوّزه آخرون انطلاقاً من قرائن عقلية ونقلية ، منها : حجية ظواهر القرآن ، والأخذ بما يقتضيه الكلام من دلالات مطابقية والتزامية ، وهذا النوع من التفسير هو ما دعا به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لابن عباس في قوله : ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)) [8] .

فالتفسير بالرأي المحرّم ، إذن ، هو محاولة تفسير الكتاب الكريم مع جهل المفسر بقواعد اللغة وأصول الشرع وأصول التفسير الأخرى ، آو هو تفسير الكتاب مع الجزم بانّ مراد الله تعالى هو كذا من غير برهان قطعي [9] .

وهو ما يسميه بعض المحدثين بالتفسير اللاعلمي ، كالتفسير الذي يدخله الأيديولوجي الذي يتأثر بنزعة معينة ويختار من المأثور ما يتفق مع أفكاره فحسب ، أو التفسير الزائد على القرآن وليس منه ،

٤– ينظر : البرهان في تفسير القرآن : ١/ ١٤٦ وما بعدها ، والتفسير والمفسرون في العصر الحديث : ٨٥ .
٥– سورة الإسراء : ٣٦ .
٦– سورة يونس : ٥٩ .
١– ينظر : الإتقان : ٢/ ٢٣٢ .
٢– ينظر : محاضرات في علوم القرآن : ١٢٢ .
٣- ينظر : البيان في تفسير القرآن : ٤١٩ ـ ٤٢٠ .
٤– أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي : الإتقان : ٢/ ٢٢٩ .
٥– البرهان في تفسير القرآن : ٢/ ١٥٦ـــ ١٦١ ، والإتقان : ٢/ ٣٠٤ .
٦– ينظر : مباحث علوم القرآن : ٢٩١ .

أو التفسير الناقص عن القرآن ، كالذي يقصر دلالات الآيات على معان يقطع بأنها هي المرادة ، لا غيرها ، وهو بذلك يوصد باب الفكر ويحكم على المنبع بالانقطاع [1] .

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ ((التفسير بالرأي حتى مع استيفائه جميع الشروط التي تجعله محموداً ، لا مسوغ له إذا عارضه التفسير بالمأثور الذي ثبت لنا بالنص القطعي ، لأن الرأي اجتهاد ولا مجال للاجتهاد في مورد النص ، أما إذا لم يكن تعارض بين التفسير بالرأي والتفسير المأثور فكل منها يؤيد الآخر ويثبته)) [2] .

ومن خلال ذلك يمكننا تحديد وتلخيص الفائدة المرجوة من هذه الدراسات التي تعتمد على إثارة طاقات اللغة وأسرارها البيانية إلى مديات قصوى في النص القرآني بما يأتي :

١ـ معاضدة التفسير بالمأثور عن طريق إظهار التطابق بين الأثر وبين إمكانات اللغة .

٢ـ الكشف عن النكات والأسرار البيانية التي لا يُركز عليها التفسير بالمأثور ولا يُلفت إليها غالباً ، وهي من مباعث اهتزاز القارئ والمستمع للنص القرآني ومثار إعجابه .

٣ـ الإلفات إلى إعجاز القرآن العظيم عن طريق نظمه واستعماله الأمثل لمفردات وأساليب اللغة .

٤ـ محاولة سدّ الثغرات التي تركها التفسير بالمأثور من خلال طرح الوجوه المحتملة للمعنى المراد من دون الجزم به ، وذلك عن طريق دراسة النص دراسة بنيوية تحليلية تعتمد قواعد ونظريات اللغة الصحيحة وهو ما يؤكد وجود مساحة واسعة في النص القرآني للاجتهاد وإعمال الفكر وإجالة الرأي في وجوهه المحتملة .

٥ـ الاستفادة من الإفاضات الأخلاقية والإيمانية التي يتيحها النص القرآني لقارئه ومستمعه عن طريق الإشارات واللوازم التي هي ليست من التفسير بالرأي ، وإنما هي إثارةٌ كلية للنص . وقد غنيت هذه الدراسات والتفاسير بكثير من الالتفاتات التي كشفت عن أسرار ظاهره الأنيق ، وأغوار باطنه العميق الذي لا يمكن إدراكه ، فهو الكتاب المتجدد الذي استوعب الحياة كلهّا والأزمان كلهّا ، وهو يجري ما جرى الليل والنهار ، فحارت عقول كل جيل في إدراك كنه تفسيره ، فضلاً عن أسرار تأويله إلاّ من خصّه الله تعالى بلطفه ، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [3] .

٧ـ ينظر : محاضرات في علوم القرآن : ١٢٤ ـ ١٢٦ .

٨– مباحث في علوم القرآن : ٢٩٣ .

١– سورة آل عمران : ٧ .

الفصل الأول

المعاني الثانية في سورة الإسراء

مقدمة:

تأصيل المعاني الثانية :

لقد نزل القرآن الكريم بلغة عربية فصيحة دقيقة لا يشوبها نقص ، ولا يعتريها غموض مفتعل يصل إلى حد الإلغاز والتعمية ، لكنه بيان لكل الناس بشرط النظر والتدبر والتأمل ، والإحساس والتذوق . و القرآن الكريم يشير إلى هذا الملحظ الهام في التفاعل مع الخطاب القرآني ، حيث يقول تعالى :﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١) ، ويقول أيضا شرطا في تأثيره ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

ولذلك فلا عجب أنْ رأينا أنّ هذا النص الكريم كان في متناول الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعلمية ، وتنوع مشاربهم ، واتجاهاتهم الفكرية . ولكن الأخطر في الأسلوب القرآني لمن يتعامل معه دراسةً جادةً ، وتفسيراً يراد به الوصول إلى المُرادات الحقيقية لهذا النص ، هو تنوع مستوياته الدلالية وعمق بعضها وخفاء بعضها الأخر على أصحاب الرأي والنظر ، وصولا إلى مستوياته العميقة التي لا يعملها إلاّ الله والراسخون في العلم .

ولعل أهم ما يعزز هذا الاختلاف والتنوع في المستوى الدلالي للنص القرآني ، استمرار عملية التفسير والدراسات القرنية ، وعدم نضوب الآراء في جميع آيات القرآن الكريم ، واختلاف هؤلاء المفسرين والدارسين والمحققين في مدلولاتها المحتملة . وقد شهدتْ بذلك صريحا الروايات الكثيرة الدالة على تنوع دلالاته واختلاف مستوياتها ، ووجوهه المحتملة ، فقد ورد أنّ ((للقرآن بطناً ،

١- سورة محمد : ٢٤.
٢- سورة ق : ٣٧ .

وللبطن بطنٌ ، وله ظهر ، وللظهر ظهرٌ ،و أنّ الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء ، وهو كلام متصل متصرف على وجوه)) [1]، وورد أيضا أنّ ((ظاهره أنيق
، وباطنه عميق))[2] و ((أنه يجري كما يجري الشمس والقمر))[3] ، وما إلى ذلك من الروايات الدالة على هذا المعنى [4] .

وقد لاح لبعض المفسرين أنْ يحمل هذه البطون العميقة للنص على أنها لوازم معناه المستعمل فيه اللفظ ، أي : المعاني الثانية التي تترشح من وراء المعاني الأولية النحوية للألفاظ ، وإن كانت تلك اللوازم المتعددة خفية بحيث لاتصل إلى أذهاننا إلا بوحي وتوجيه من له الأهلية في ذلك [5] .

أو أنْ تحمل هذه البطون القرآنية على مراتب الآية حسب اختلاف الناس ، فهي كناية عن الاستعدادات المختلفة حسب اختلاف الأفراد [6] . أو تفسيرها بتعدد المعاني المحتملة على البدل لا مجتمعة بالفعل ، فمثلا ذكر صاحب (الميزان)[7] في وجوه تفسير آية (السّحر) : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا..... إلى آخر الآية ﴾ [8] أن مجموع محتملات مفرداتها ومركباتها بعد ضرب تك المحتلات في بعضها يرتقي إلى كمية عجيبة وهي ما يقرب من مليون ومائتين وستين ألفا من الاحتمالات ! هذا لعمرو الله من عجائب نظم القرآن ، تتردد الآية بين مذاهب واحتمالات تدهش العقول وتحير الألباب [9].

ومن ظريف الأمر ما يُنقل عن أحد العلماء أنه فسّر ، أول شهر رمضان المبارك ، قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ [10] بمعنى ، بمحضر من العلماء ، فاستطرفوه واستحسنوه ، وفسره في اليوم الثاني بمعنى آخر ، وهكذا إلى ثلاثين معنى في ثلاثين يوما مستوعبا الشهر كله [11] . أو أن تكون هذه البطون إشارة إلى أن للمعاني والدلالات الكلية القرآنية مصاديق خفية مستورة عن الأذهان حيث تؤَوّل هذه الكليات بأحد مصاديقها أو مصداقها الأقوى أو الأوحد ، ومثالها قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [12] بالخضر (عليه السلام) ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [13] ، وقوله تعالى :

٣- بحار الأنوار : ١٩ / ٤٨ .
١- نهج البلاغة : ١ / ٥٥ ، و أصول الكافي : ٦٣٢ .
٢- بحار الأنوار : ١٩ / ٥١ .
٣- ينظر المصدر نفسه : ١٩ / ٤٢ وما بعدها .
٤- ينظر : كفاية الأصول : ١ / ٢١٦ .
٥-ينظر : نهاية الأصول :٧٨ .
٦ – هو العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، صاحب كتاب (الميزان في تفسير القرآن) .
٧- سورة البقرة : ١٠٢ .
٨- ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١/ ٢٣٤ .
٩ – سورة الحجرات : ٧
١٠-- ينظر : الدلالات القرآنية : ٢٤ .
١١- سورة الكهف: ٦٥ .
١- سورة الحاقة : ٧

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [1] بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، وقوله تعالى :﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾[2] ، ببني أمية ، وقوله تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [3] بالإمام المهدي المنتظر (عليه السلام)، وغير ذلك كثير في القرآن الكريم ، ولكنه لا يستطيع النص بأي حال من الأحوال أن يحدد ذلك المصداق على سبيل الجزم إلاّ أن تسعفه الروايات القاطعة . وإلى تعدد المصاديق يشير الإمام الصادق (عليه السلام) عندما سأله أحد أصحابه عن قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [4] فقال (عليه السلام) : ((نزلت في رحم آل محمد (ص) ، وقد تكون في قرابتك ، فلا تكوننّ ممن يقول للشيء إنه في شيء واحد))[5] .

إذن يفهم من خلال ذلك كله أنّ للنص القرآني مستويين من التعبير : مستوىً ظاهر ، وهو يمثل المعاني الأولى التي تؤديها الألفاظ والتراكيب النحوية ، وهذا المستوى يشترك في فهمه الخاص والعام عند قراءة القرآن الكريم بعد معرفة المعاني الموضوعة لها الألفاظ ، ومعرفة المعاني التي تؤديها التراكيب النحوية ، ومستوى باطن ، وهو يمثل المعاني الثانية التي يصعب حصرها ، ويخفى بعضها الآخر كما عرفنا في مسألة البطون القرآنية . وهذه المعاني الثانية ، قسم كبير منها يؤدى بما توحيه بعض المفردات وطريقة استعمالها داخل النص ، أو من خلال معانيها الالتزامية ، أو ما تؤديه التراكيب بطرق مختلفة من معان خفية خارجة عن المعنى الظاهر الأول للنص .

ومن هنا كرس الشيخ عبد القاهر الجرجاني جهوده في توضيح هذا المعنى وتجليته في كتابه (دلائل الإعجاز) تنظيرا وتطبيقا ، فيقول : ((الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أنْ تخبر عن زيد مثلا بالخروج ،على الحقيقة ، فقلت : خرج زيد ... وضرب آخر أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل إلى الغرض))[6]. ((ولا يغفل عبد القاهر الجرجاني أهمية هذه المعاني ودلالتها الجمالية في النص الأدبي ، سواء أكانت هذه المعاني الثانية معاني لزومية ، أم من مستتبعات التراكيب ، أم أثرا لرموز صوتية وإيماءات نفسية ، فهي التي تعطي الأسلوب دلالته البلاغية وتمنحه قيمة جمالية ، وكثير من المهارة الأدبية إنما هو في إطلاق تلك

٢- سورة المائدة : ٥٥ .
٣- سورة الإسراء : ٦٠ .
٤- سورة هود : ٨٦ .
٤- سورة الرعد: ٢١ .
٥- أصول الكافي : ٤١٦ .
١- دلائل الإعجاز : ٢٦٢ .

المعاني الثانية لتؤثر تأثيرها في الخيال ، وفي هذا يتلاقى عبد القاهر مع كل النقاد الكبار في الشرق والغرب على السواء))[1] .

فهناك إذن معانٍ أولى هي ما يدل عليها ظاهر اللفظ ، وهي مدلولات التراكيب والألفاظ التي تسمى في علم النحو (أصل المعنى) ، وهي عامة في كل كلام شائعة في كل قول ، ومعانٍ ثانية وهي الأغراض التي يساق لها الكلام البليغ ؛ ولذا قيل : مقتضى الحال هو المعنى الثاني ، وهذه المعاني لا يدركها إلا من أوتي ذوقا وحسا ، وهي معانٍ لا تشيع إلا في النص الأدبي ، وهي في نظم القرآن تسمو إلى الإعجاز دون غيره من قول البشر [2] .

والمعاني الثانية – وهي ما يسمى بمعنى المعنى أيضا – حالة برزخية بين المعنى اللغوي والتأويل ، إذ إن الكشف عن المعنى يمكن أن يكون ضمن المستويات الثلاثة الآتية :

المستوى الأول : المعنى الأول : وهو اقرب شيء إلى الدلالة اللغوية التي تفهم من اللفظ .

المستوى الثاني : وهو أقرب إلى المعنى الثاني الذي هو صورة أخرى عن المعنى الأول .

المستوى الثالث : التأويل ، وهو شرح للمعنى الثاني [3] ، أو هو الوجوه البعيدة للمعنى ، أو ما عبرنا عنها بالبطون العميقة التي قد تخفى عن الأذهان ، والتي لا تخضع ـ غالباً ـ لميزان اللغة والتركيب والنظم ، فتضل فيها عقول المفسرين وتكثر عثراتهم بمزيد من التكلف والغلو والتطرف في الإشارات .

وهذا البحث يتحدث ضمن نطاق المستوى الثاني للنص ، أي : معنى المعنى الذي يؤدى على وفق ثلاثة مستويات دلالية :

الأول : دلالة التركيب : وهي المعاني التي تثيرها طريقة تركيب المفردات بحسب ما يقتضيه علم النحو ، وهو ما يعرف بالنظم ، ولذلك يسمى العلم الذي يختص بدلالة التركيب بـ (علم المعاني) ، وهي جديرة بأن تسمى بـ (المعاني الثانية) ، لأنها ظلال للمعنى الأول الظاهري للكلام ، وتكاد تكون مستقلة عنه أو هي مكلمة له ؛ بحيث لا يمكن أنْ يتمّ معنى الكلام الدقيق دونه ، وهو ما نعتمده هنا في هذا الفصل تمييزا لها عن المعاني المجازية الآتية .

الثاني : دلالة اللزوم ؛ وهي دلالة الألفاظ المستعملة أو المسندة في غير ما هي موضوعه له ، والغرض منها هو إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة بواسطة الدلالات العقلية ، وهي الانتقال من

٢– دلائل الإعجاز ، تمهيد المعلق والشارح محمد عبد المنعم خفاجي : ٢٠ .
٣– ينظر : المعاني الثانية : ٣٠ ، ٩٨ .
٤– ينظر : المصدر نفسه: ٤١ .

معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما ، ويتم ذلك الانتقال من الملزوم إلى اللازم كما في المجاز ، ومن اللازم إلى الملزوم كما في الكناية .

وعند التأمل نلاحظ أن هذه المعاني هي ليست معاني جديدة تختلف عن المعنى الأول ، وإنما هي تضخيم وتصوير حي للمعنى الأول وإظهاره بصورة جلية واضحة على وجه المبالغة والتجسيم ، فهي ليست معاني ثانية ، بالتدقيق ، ولذلك أفردناها بعنوانها الأصيل وهو (المعاني المجازية) ، كما أنها - مضافا إلى هذا الفارق – معان يثيرها استعمال اللفظ وضعا وإسنادا ، وليس التركيب كما في المعاني الثانية التي يسببها النظم .

الثالث : دلالة الأصوات والحروف والكلمات في أوضاع وسياقات مختلفة داخل النص ، وهو مما يتكفل بدراسته علم خاص ومستقل ظهر حديثا هو علم الدلالة . وهذه الدلالة التي يوفرها هذا العلم غير مفصولة عن الدلالات البلاغية المتقدمة ، بل تعد من فروعه ومسخرة له ، إلا أنَّ استقلال هذه العلوم بما يميزها ، واستقرار مصطلحاتها ، وحدودها ومباحثها ، أدى إلى هذا التقسيم تيسيرا لمنهج البحث العلمي في الدراسات الأدبية ، وإلا فإنّ مفسِّر النص لا يميز ولا يفصُل بين كل هذه المفردات ، بل يستخدم كل هذا الشتات المتفرق والمتناثر في الدراسة المنهجية عل صعيد واحد ويستثمره أينما وجده في النص .

وبهذه الأركان الثلاثة للنص – وأعني بها المعاني الثانية ، والمعاني الالتزامية ، والدلالات الأخرى المبعثرة مابين الحروف والأصوات والكلمات والسياقات والمفاهيم – سوف تكتمل دراسة النص في نطاق هذا المستوى ، وهو مستوى تفسير النص على ضوء المعاني الثانية ، حيث يستطيع المفسر أن يلملم كل هذا الشتات المتفرق ويحمله على النص برؤية واحدة وعلى صعيد واحد ، مستفيدا من جميع هذه الإمكانات التي توفرها هذه العلوم اللغوية .

وبهذا التقديم سوف نشرع في هذا الفصل بدراسة المعاني الثانية ، مستمدين العزم والتوفيق من وليهما .

والأمر المهم والمفيد الذي ينبغي أنْ ننوه إليه ، أنّ هذه المعاني المستفادة من التركيب ليست بمستوى واحد أيضا في كونها معنى جديدا ، أو مكملا ، أو إضافيا ، ويمكننا تصنيفها حسب المستويات الآتية :

الأول : كون المعنى الثاني المستفاد من التركيب والنظم هو المقصود لذاته ، ولا يمكن أن يكون مكملا للمعنى الأول ، أو أن يكون وجها محتملا ، أو معنى أضافيا ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ ﴾ [1] ، فإن في تقديم (شركاء) على (الجن) معنى جليلا مقصودا لا تؤديه عبارة (

١- سورة الإنعام : ١٠٠ .

وجعلوا الجن شركاء لله) ، التي يفيد ظاهرها أنها تنفي أن يكون الجن شركاء لله سبحانه فقط ولا تنفي إمكان وجود شركاء آخرين ، أما نص الآية فيفيد نفي مطلق الشريك لله سبحانه وأنه لا ينبغي أنْ يكون له شريك لا من الجن ولا من غيرهم ، فهذا معنى مقصود لا يمكن الوصول إليه في حال تقديم المفعول الأول (الجن) ، ومجيء الكلام بهذا النظم [١] .

الثاني : أن يكون المعنى الثاني معنى إضافيا لا يلغي مراد المعنى الأول ولا يبطله ، لأن كليهما مقصود ، ولكن الثاني عبارة عن إضافة لطيفة غير زائدة عن المعنى الأول ولا بديلة عنه ، ومثاله قوله تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيه)[٢] ، فإن النفي هنا جاء مسلطا على جنس الريب ، وليس على الظرف ، كما في قوله تعالى : (لا فِيهَا غَوْلٌ) [٣] حيث تنبه البيانيون إلى ملحظ هام في هذا النظم ، وهو أن القرآن الكريم أراد نفي الشك عن القرآن الكريم ، دون الطعن بسواه من الكتب المنزلة الأخرى ، ولو أولى الظرف بالنفي لتعدى المعنى إلى ما يبعد عن المراد ولا يحققه بالكامل ، كما في (لا فيها غول)؛ فإن فيها تفضيل خمر الجنة بنفي أثرها السيئ ، مع ذم الخمور الأخرى والطعن بها [٤] . فنص الآية (لا ريب فيه) فيه معنيان :

الأول : هو نفي الريب عن القرآن .

والثاني : هو عدم الطعن والمساس بالكتب الأخرى ، وهو-كما نرى- معنى مكمل وإضافي ، وليس بديلا عن المعنى الأول ، بل يكاد يكون معنى مستقلا ومساويا للمعنى الأول في الظهور بعد إدراك النظم .

الثالث : وفيه لا يكون المعنى الثاني مستقلا عن المعنى الأول ولا بديلا عنه ، وإنما هو ظل من ظلاله ورشح من رشحاته ، وهو تابع له مقويا أو مضعفا له ، ومثاله قوله تعالى على لسان امرأة العزيز بشأن يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [٥] ، فإن لغة التعبير القرآني بلغة عربية ، مترجِما عما يجول في خاطر هذه المرأة أثناء الحادثة جاءت بهذه الشاكلة ، حيث التوكيد بالنون الثقيلة في قضية الأمر بسجنه (ع) ، الكاشف عن قوة التصميم ، وسلطنة هذه المرأة ، وقدرتها على التنفيذ ، ثم جاء بعد ذلك توكيد بنون خفيفة في السياق نفسه ، ليكشف لنا جانبا غيبيا في شعور هذه المرأة حال إصدارها تلك الأوامر ، إذ خفّت حدتها فجأة فجاء التعبير اقل وطأة ، وذلك لأن جعله من الصاغرين أمر غير مقدور عليه بحسب سلطنتها ، وإن كان السجن في الغالب يذلّ صاحبه ولكنه لا يطّرد مع كل إنسان ، فكيف إذا كان وليا من أولياء الله تعالى ؟! .

٢- ينظر في توجيه الآية : دلائل الإعجاز : ٢٢١ ، والكشاف : ٢ / ٥٠ .
٢- سورة البقرة : ٢ .
٣- سورة الصافات : ٤٧ .
٤- ينظر : الكشاف : ١ / ٤٤ .
١- سورة يوسف : ٣٢ .

فكما نلاحظ أن هذا المعنى الثاني الذي بيناه غير منسلخ عن المعنى الأول الذي يفيده التوكيد ، ولا بديلا عنه ولكنه يتلمس في ظلاله .

أولاً : الخبر والإنشاء في السورة

يتألف النص القرآني كغيره من النصوص الكلامية الأخرى من مجموعة من التراكيب أو الجمل التي تؤلف سوره وآياته . والجملة (بمعناها الأخص، وهو ما نعنيه هنا) – وهي المركب التام الذي يحسن السكوت عليه ، أو ((هي أساس التعبير والصورة اللفظية الصغرى التي تطوي في ثناياها فكرة تامة)) [١] – تؤدي أخطر وأجمل وأدق وظيفة ، ألا وهي نقل الأفكار والصور المجردة في ذهن المتكلم إلى ذهن السامع وتفهيمه بمراده ، وإنّ أيّ زلل أو قصور أو جهل في طريقة استعمال هذه الأداة الدلالية سوف يؤدي إلى قطع صلة التفاهم واختلالها ، وعدم الوصول إلى المعاني والمرادات الحقيقية للمتكلم ، وكلما كان المستعمل لهذه الوحدة الدلالية من القدرة والمهارة والعلم والإحاطة والإتقان كان اقدر على صياغة هذه التراكيب والتفنن في استعمالها لتأدية أكثر ما يمكن من المعاني ذات المستوى البياني المتميز ، وذلك لأن((الجملة ليست مجرد مجموعة من الكلمات بل إن علاقة هذه الكلمات بنيويا

١- في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٢٥ .

هي التي تجسد الجملة)) [١] ، ولذلك أولاها اللغويون والنحاة والبلاغيون والمناطقة والأصوليون بالدرس والاهتمام كلٌّ حسب منهجه وطريقته .

والجملة في كل كلام أمّا خبر أو إنشاء ، والخبر عند أهل اللغة لا يعدو أن يكون من: ((أخبرته ، أي : أعلمته بما حصل من الخبر)) [٢] فالخبر إعلام ، والخُبْر بالضم العلم [٣] ، يقال : ((خَبُرتُ بالأمرِ ، أي : علمته ، وخَبُرتُ الأمر اخبُرُه ، إذا عرفته على حقيقته)) [٤] .

أما الخبر عند البلاغيين فهو ((كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته ، أو هو ما يتحقق مدلوله في الخارج بدون النطق به)) [٥] .

وأمّا الإنشاء ، فلغة : هو الإيجاد ، واصطلاحا : ((هو كلام لا يحتمل صدقا ولا كذبا لذاته ، أو هو ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا تلفظت به))[٦] .

أما أصحاب المنطق فالخبر عندهم هو القضية ويعرفونه بأنه : ((المركب التام الذي يصح أنْ نصفه بالصدق أو الكذب لذاته))[٧] ، وكذلك الإنشاء : ((هو المركب التام الذي لا يصح أن نصفه بصدق أو كذبٍ)) [٨] .

ولا يجب في الخبر أنْ يكون مطابقا للنسبة الواقعة ، فقد يطابقها ، فيكون صادقا ، وقد لا يطابقها ، فيكون كاذبا ، والنسبة التامة بين أجزاء هذا المركب تكون لها حقيقة ثابتة في ذاتها في الخبر مع غض النظر عن اللفظ ، وإنما يكون لفظ المركب حاكيا وكاشفا عنها ، أما في الإنشاء ، فإن اللفظ هو الذي يحقق النسبة ويُوجِدُها ، أي : أنَّ المتكلم هو الذي يوجد المعنى بلفظ المركب ، فليس وراء الكلام نسبة لها حقيقة ثابتة حتى يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب[٩] .

ويحترزون في التعريف بقيد (لذاته) في الخبر ، أي : نفس الخبر بقطع النظر عن خصوص المخبر أو خصوص الخبر ، وإنما ينظر في احتمال الصدق والكذب إلى الكلام نفسه ، لا إلى قائله ، لتدخل الأخبار الواجبة الصدق كأخبار الله تعال وأخبار رسله ، والبديهيات المألوفة ، وكذلك الأخبار

٢- بلاغة الخطاب وعلم النص : ٢٥٥ .
٣- ينظر: المفردات في غريب القرآن : ١٤١ .
٤- ينظر: الصاجي في فقه اللغة : ١٧٩ .
٥- لسان العرب : (خبر) ، ٤ /١٢ .
٦- جواهر البلاغة: ٤٥ .
٧- المصدر نفسه : ٦٣ .
١- المنطق : ١ / ٥٨ .
٢- المصدر نفسه : ١ / ٩٥ .
٣- ينظر : المصدر نفسه : ١/ ٥٨ – ٥٩ .

الواجبة الكذب كأخبار المتنبئين في دعوى النبوة ، وأقوال الكفار وأهوائهم الباطلة [١]. أما في الإنشاء فالاحتراز عن الدلالات الالتزامية لبعض صور الإنشاء التي قد توصف بالصدق أو الكذب ، كما لو استفهم شخص عن شيء يعلمه ، أو سأل الغنيُّ سؤالَ الفقير ، أو تمنى إنسان شيئا هو واجد له ، فإن هؤلاء يوصفون بالكذب ، بينما نقول للمستفهم الجاهل ، أو السائل الفقير أو المتمني الفاقد اليائس : إنهم صادقون . فهذه الإنشاءات تدل بالدلالة الالتزامية على الإخبار عن الجهل أو الحاجة أو اليأس ، فيكون الخبر المدلول عليه بالالتزام هو الموصوف بالصدق أو الكذب ، لا ذات الإنشاء ، ودفعا لهذا الالتباس يضيفون كلمة (لذاته) ، لتقرير أنْ الإنشاء لذاته لا يمكن وصفه بالصدق أو الكذب ، وإنما ما يمكن وصفه بالصدق أو الكذب هو مدلوله ألالتزامي[٢] .

وللشيخ عبد القاهر الجرجاني وقفة طويلة وجادة مع الخبر وحقيقته وفروقه ، فنراه يفسر الحكمة التي من أجلها أنّ الخبر يصحّ وصفه بالصدق والكذب ، ويدفع بذلك وهماً واقعاً من أن الخبر غايته الدلالة عل معنى موجود أو غير موجود ، فيقول :

((ليس الأمر على ما قالوه من أنَّ المعنى في وصفنا اللفظ بأنه خبر أنَّه قد وضع لأنْ يدل على وجود المعنى أو عدمه ، لأنه لو كان كذلك لكان ينبغي أنْ لا يقع من سامع شك في خبر يسمعه ، وأنْ لا تسمع لرجل يثبت وينفي إلا علمت وجود ما أثبت وانتفاء ما نفى ، وذلك مما لاشك في بطلانه ، فوجب أنْ يُعلم أنَّ مدلول اللفظ ليس وجود المعنى أو عدمه ، ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه ، وأن ذلك الحكم بوجود المعنى أو عدمه هو حقيقة الخبر))[٣] . ويضيف موضحا : ((إننا لا نعرف وجود المعنى المثبت ، أو انتفاء المنفي ، باللفظ ، ولكننا نعلمه بدليل زائد على اللفظ ، وأنَّ المعلوم بغير اللفظ لا يكون مدلول اللفظ))[٤] .

أما الأصوليون فيلتمسون الفوارق الدقيقة بين الجملتين الخبرية ، والإنشائية بالمرحلتين التصورية والتصديقية ، فيُقرّون اختلافهما في كيفية الدلالة حتى مع اتحاد لفظيهما مادة وهيأة ، كما في (بـِعتُ) الخبرية و (بـِعتُ) الإنشائية ، وكذلك في مثل (أنت حرٌ) و (زوجتي طالق) ، مما يستعمل في الإخبار تارة ، والإنشاء تارة أخرى ، وكذلك مما يتحد في المادة ويختلف في الهيئة مثل (تطهّرَ) الخبرية و (تطهّرْ) الإنشائية ، فإن الاختلاف ثابت بينهما في مرحلة المدلول التصوري وذلك في كيفية الدلالة ، لأنّ كلتيهما موضوعتان لمعنى واحد ، ولكن الخبرية موضوعة للإخبار عن تحقق المعنى ،

٤- ينظر : جواهر البلاغة : ٤٥ .
٥- ينظر : المنطق : ٢ / ١٤٩ .
١- دلائل الإعجاز :٤٦١ .
٢- المصدر نفسه : ٤٦٢ .

والإنشائية موضوعة للدلالة على إيجاده [١] ، بل يرى بعضهم اختلافهما حتى في مرحلة المدلول التصوري ، ((فإن الجملة الخبرية موضوعة لنسبة تامة منظوراً إليها بما هي حقيقة واقعة وشيء مفروغ عنه ، بينما الجملة الإنشائية موضوعة لنسبة تامة منظوراً إليها بما هي نسبه يراد تحقيقها ، وعليه فليس إيجا ديةُ الجملة الإنشائية لمعنى ، إيجاد للمعنى باللفظ ، بل بمعنى أن النسبة المبرزة بها منظور إليها لا بما هي ناجزة ، بل بما هي في طريق الإنجاز والإيجاد [٢] .

الجملة في القرآن الكريم :

إن الجمل أو التراكيب في القرآن الكريم وهي - ((تلك العبارات الموجزة ذات الدلالات على المعاني الكثيرة التي جاء يحققها القرآن)) [٣]- تتميز بميزتين أساسيتين يمكن التعويل عليهما في تلمس المعاني وطلبها من ظاهر الكلام وتنوعاته :

الميزة الأولى : أنَّ الجملة في القرآن الكريم هي الاستعمال الأمثل لطريقة الكلام العربي ، وأنّ المتكلم، وهو الله سبحانه ،قد آثار طاقات هذه اللغة إلى مستوياتها العليا التي تتدانى دونها كل المستويات ، ولأن الله سبحانه هو العالم والمحيط بأسرار اللغات ، وأسرار جميع الممكنات والحوادث وحقائقها وتفصيلاتها ، كان كلامه سبحانه متقنا ، دقيقا ، لاعوج فيه ، ولا نقص ، ولا تهافت ، وهذا هو سر الإعجاز الذي أساسه العلم والإحاطة بالأشياء ، وهو أيضاً سرّ العجز الذي أصاب الإنسان عن الإتيان بمثله ، لأنه محط النقص ، والجهل، والزيغ ، والزلل ، الذي لانهاية له .

ولذلك نجد أنّ التراكيب التي تؤلف القرآن الكريم منظمةٌ ومتسقةٌ بحيث إنّ كلَّ تصرف داخل النص من تقديم ، أو تأخير، أو حذف ، أو ذكر، أو إضمار ، أو تنكير ، أو تعريف ، وما إلى ذلك من فنون القول هو مقصود إليه ، وينطوي على سر من أسرار المعنى ، على العكس من استعمال الشاعر والمتكلم البليغين ، إذ ليس كل تصرفاتهم في النص هي مقصودة ومفيدة للمعاني الدقيقة ، فلربما اضطروا إلى ذلك اضطرارا ، أو جاء مصادفة وبلا تعمّل وقصد ، إرضاءً لسلطان الوزن والقافية ، ونسق الكلام ، ولذلك لا يمكن الاطمئنان لكل التفاتاتهم على أنها أسرار بيانية للغة ، فقد تكون تكلفات وزخارف لا طائل منها على مستوى المعاني والدلالات.

٣- ينظر : دروس في علم الأصول ،الحلقة الثالثة : ١/ ٩٩ .
٤- ينظر : المصدر نفسه : ١ / ١٠٠ -١٠١
٥- لغة القرآن الكريم : ٣٦٩ .

الميزة الأخرى : أنَّ الأخبار التي تضمنتها جمل القرآن الكريم وتراكيبه ، وإنْ كانت في ذاتها كأحكام بوجود الأشياء أو عدمها قابلة للصدق والكذب إلا إنـّها أخبارٌ يقينية صادقة بالنسبة إلى قائلها ، وهو الله سبحانه وتعالى (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً) [1] . وسواء أكانت الأخبار تختص بعالم الشهادة أم بعالم الغيب بمستوياته المختلفة ، فإنها بدرجة واحدة من الصدق والحقيقة ، والدقة في دلالتها على وجود المعاني أو عدمها ، ولذلك نرى أنّ القرآن لكريم عندما ينقل الأخبار المشهود بعضها تاريخيا كقصة يوسف ، وقصة مريم عليها السلام، وغيرهما من القصص والحوادث التي سطرها التاريخ أيضاً ونقلها يصفها بأنها من عالم الغيب ، ولعل جانبا مهما من حيثيات هذه الغيبية في هذه الأخبار هو نقلها وترجمتها إلى العربية من رؤوس أصحابها ، وأفكارهم ومشاعرهم ونفسياتهم وهواجسهم الأخرى ، بلغة تترجم كل هذه الحيثيات وتبرزها داخل النص بإيحاءات مختلفة . وما كان لهذه الشخصية المكتملة أنْ تعبر عن كل ما تريد بوجه من الدقة والإتقان والإحاطة في المعنى لو تم نقل كلامها منطوقا كما هو ، ولذلك إنّ من شهد هذه القصص والحوادث من مؤرخين وكتاب ، سوف لا يستطيعون نقل الحقيقة كاملة وكما هي ، لأنهم يعبرون عن السطح والظاهر ، وأقوالهم غير معبرة عن المعنى بكل تفصيلاته ، فصح عند ذاك أن تكون أخبار القرآن غيبية حتى للحوادث المشهودة والمؤرخة ، وهذا يعني أنها كاملة في الصدق والحقيقة .

التناوب الدلالي للخبر والإنشاء في السورة

قد عرفنا أنّ الخبر مهمته الكشف عن وجود الحقائق والأشياء أو عدم وجودها ، والإنشاء هو إيجاد للمعاني التي يريد تحقيقها المتكلم ، وبما أنَّ هدف القرآن الكريم وغايته العظمى لا تخرج عن هذين الغايتين ، فهو أما إخبار عن وجود وقائع وأحداث وحقائق أو عدم وجودها ، وأما إيجاد لمعان ، وتشريعات ، وسنن ، وآداب ، وإثارات للعقل والنفس والشعور في دواخل الإنسان الكامنة .

وفي سورة الإسراء نجد هذين النمطين ، أعني الخبر والإنشاء ، في تناوب مستمر ، يبدأ من الآية الأولى ، حيث تفتتح بجملة إنشائية تعجبية ، غايتها إثارة مشاعر الإنسان وتوجيهه إلى حدث عظيم ينبغي أنْ يكون مثار إعجاب الإنسان بقدرة خالقه ، وتنزيهه عن كل نقص وعجز ، آلا وهو الإسراء ، الذي يحمل طابعا إعجازياً ، ينبغي للإنسان الإقرار به بداهة دون التشكيك بتفصيلاته وتعقيداته ، وأن

١- سورة النساء : ٨٧ .

ينشئ مردداً مع الله سبحانه ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، وإلى آخر آية منها حيث تنتهي السورة بآية إنشائية أيضا ، توجه الإنسان وترشده إلى أن يكون مرتبطا مع الله سبحانه ، ملبيا بالحمد لمن لا يستحق الحمد إلا هو ، الذي تنزه عن كل شريك وولي وولد ، واستغنى بذاته ، وذلك منتهى العز والشرف والطول ، فمن مصلحة ذلك الإنسان الضعيف ، المفتقر ، أنْ ينضوي تحت رحمته ويتعزز بعزه ويتشرف بشرفه ، وذلك ما اختاره الله سبحانه لعباده ، فأرشدهم إلى اللهج بتسبيحه وحمده ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [1] .

وبما أنَّ الخبر هو الأصل في الكلام ، ولاسيما في القرآن الكريم ، لأنّ المخبر فيه هو الله تعالى العليم الذي لا تخفى عليه خافية ، فأراد أن يخرج الإنسان من ظلمات الجهل إلى عالم المعرفة والنور ، فكان كلامه سبحانه سيلا من الحقائق والمعلومات التي يجهلها الإنسان أو يتجاهلها ، فلا بد من أن تكون هذه العلوم والمعارف بواسطة أخبار تكشف للإنسان أولاً عظم ما يجهله عن نفسه ومحيطه وعالمه وما وراء ذلك ، ثم توجيهه بعد ذلك إلى الطريق القويم بواسطة جملة من صور الإنشاء من أوامر ، ونواهٍ ، وتعليمات ، وإثارات عن طريق الأسئلة المثيرة أو التعجب ، أو النداء ، أو غير ذلك مما يؤدى عن طريق الجمل الإنشائية .

فلا غرابة إذن أنْ تسود الجملة الخبرية في سورة الإسراء ، لأنها هي الأصل الذي يبنى عليه الكلام ، والإنشاء فرع وتابع لذلك الأصل ومعززا ومقويا ، ومجليا له .

ولذلك عندما نتابع سير الجمل والتراكيب في سورة الإسراء نجد أنّ نسبة الجمل الخبرية إلى الجمل الإنشائية يقترب من النصف ، فإن الجمل الخبرية الواردة في السورة حوالي (١٦٤) جملة خبرية تقريبا موزعة على (١٠٠) آية ، بينما وردت الجمل الإنشائية ما يقارب (٨٨) جملة إنشائية موزعة على (٥٣) آية ، وهي نسبة تشهد لما قلنا بأصالة الجملة الخبرية وأهميتها في بناء النص المتكامل ، ولكن مع ذلك لا يمكننا تجاهل عدد الجمل الإنشائية في هذه السورة ، والتي تقترب كما قلنا من النصف ، وهي نسبة عالية نسبيا لها أهميتها في صياغة الأسلوب في السورة ، لما يشيعه الأسلوب الإنشائي من معان ، وإثارات ، ودلالات ، تحوّل النص إلى الخطاب ، إلى صورة حية، متكلم يتكلم ، ومخاطب يستمع .

وقد أسهم هذا التوزيع والتناوب في الاستعمال للجمل الخبرية والإنشائية في هذه السورة في أن تكون سورة الإسراء متميزة في هذا الأمر ، وهو التناوب بين الأسلوبين ، بحيث يستمر النص إلى نهاية

١- سورة الإسراء : ١١١ .

السورة متنقلا بين الخبر الغيبي ، والقصة التاريخية ، ثم الالتفات إلى المخاطب بأوامر وآداب ونواه واستفهام وتعجب تتخلل هذه الأخبار والقصص والسنن والآداب .

فالسورة ليست ذات نفَس واحد ، فهي لا تتحدث عن قصة واحدة أو مجموعة قصص ، كسورة هود [1] ، وسورة يوسف ، وسورة الأعراف ، وغيرها من السور التي يغلب عليها الطابع الخبري ، وإنما تميزت بطابع التعدد في الأسلوب وتنويع الخطاب ، مما جعل من الأسلوب الإنشائي منافسا ومقاربا للأسلوب الخبري في هذه السورة . ولا يخفى ما لهذا التناوب من الفوائد الجليلة التي ساعد هذان النمطان على إثارتهما بطريقة تبعث على الشد والانتباه ، والانقياد والتفاعل مع النص حيث يشعر المتلقي أنّه جزء منه ومعنيّ بخطابه .

١- ينظر : سورة هود ، دراسة لغوية ودلالية ، (رسالة ماجستير) : ١٣٧ .

الجملة الخبرية في سورة الإسراء

الخبر في الكلام العربي لا يكاد يفارق مستويات ثلاثة من حيث القوة والتأكيد بحسب حال المتلقي أو المخاطب ، فهو أمّا أنْ يكون خالي الذهن عن مضمون الخبر ، فتستغني الجملة عندئذ عن مؤكدات الخبر ، ويسمى هذا النوع من الأخبار بالخبر الابتدائي ، وأما أنْ يكون المخاطب طالبا للخبر ، متحيرا في مضمونه فهو منه على وجل ، استحسن تقوية الخبر بمؤكد واحد ، لينقذه من ورطة الحيرة وسَوْرة الشك ، ويسمى هذا النوع من الخبر طلبيا ، وكأنـّما المخاطب يطلب من مخاطبه أنْ يعضد كلامه ويقويه . وأمّا إذا كان الخبر ملقىً إلى حاكم فيه بخلافه ، ومنكر ٍلمضمونه ، استوجب تأكيده بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده [١] .

وعلى هذا جرى الأسلوب العربي حتى نجد أبا العباس [٢] يزيل الالتباس عن الكندي [٣] المتفلسف عندما أثار استغرابه هذا التنوع في الألفاظ وجريانها على معنى واحد كما يظهر في النظرة الأولى ، حين سأله قائلا : إنّي أجدُ في كلام العرب حشوا ، يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون إنَّ عبد الله قائم ، ثم يقولون : إنَّ عبد الله لقائم ، والمعنى واحد ، قال : بل المعاني مختلفة ، وذلك إنَّ قولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إنَّ عبد الله قائم ، جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إنَّ عبد الله لقائم ، جواب عن إنكار منكر ٍقيامه ، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني[٤] . وقد وظف القرآن الكريم هذا الأسلوب كثيرا في إثارة المعاني الثانية التي اشرنا إليها ، ولعل من المصاديق الواضحة والمشهورة لذلك ، قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) [٥] . حيث قالوا أولا : (إنا إليكم مرسلون) ثم لما زاد إنكار القوم قالوا: (إنا إليكم لمرسلون) .

وفي سورة الإسراء وردت هذه المستويات الثلاثة من التعبير كلٌّ بحسب المقام الذي يتطلبه ، فعندما تتحدث السورة عن حقائق تاريخية مسلـّمة ، أو سنن إلهية محققة هي من مقتضيات شؤون الخالق

١- ينظر: مفتاح العلوم : ٢٥٨ ، و جواهر البلاغة : ٤٨ .
٢- هو أما ثعلب أو المبرد ، وكانا متعاصرين ومتفقين في الكنية ، والمرجح أنه المبرد ، لأنه مواطن الكندي ، فكلاهما بصري .
٣- هو يعقوب بن إسحاق الكندي من نسل الأشعث بن قيس وكان له منزلة عند المأمون ، ويدعى بـ (فيلسوف العرب) ، (ت ٢٥٣ هـ) .
٤- ينظر : دلائل الإعجاز: ٢٤٢ ، ومفتاح العلوم : ٢٥٩ .
٥- سورة يس : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

والمدبر لهذا العالم ، أو أمور واقعية لا تحتاج إلا إلى لفت نظر الإنسان إليها وتوجيه انتباهه نحوها للإقرار بها ، فإنها تأتي بسياق خطاب الجمل الخبرية الابتدائية الخالية من المؤكدات ، ومثاله قوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً ﴾[1] ، فإنَّ هذه حقيقة تاريخية مُسلّم بها من قبل اليهود والنصارى والمسلمين ، ولا يوجد من يشك أو يتردد تأريخيا في رسالة موسى عليه السلام وفي الكتاب الذي أُنزل إليه وهو التوراة ، ولذلك جاء الخبر ابتدائيا خاليا من المؤكدات .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [2] ، فهذه حقائق كونية لا يجهلها الإنسان ولا ينكرها ، ولا يتردد في إثباتها لله عز وجل ، بل هو يعمل بمقتضاها تكوينيا ، ولكن الجديد في الخبر أنّه يدق الجرس في أذني الإنسان الغافل عن هذه الحقائق الكبيرة ، التي ينبغي أنْ تكون حاضرة في ذهنه وعقله ، وأنَّ هذه المسخرات هي من نعم الله عليك أيها الإنسان فلا تنس ولا تغفل ، فلذلك جاءت خالية من المؤكدات لبداهتها عند الإنسان إذا توجه إليها ، ولكن عندما وصلت الآية إلى حقيقة أخرى ليس في بداهة الأولى ووضوحها احتيج إلى تقوية الجرس بشيء من التوكيد فقال تعالى : (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) ، لأنَّ الإنسان لا يفطن إلى هذه الدقة في تدبر الأشياء على هذا النحو من التفصيل والإتقان والجدية ، لذلك سوف يندهش هذا الإنسان ويصطدم بهذه الجدية ، فيقول في بعض مواطنها: ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [3] .

وأمّا قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [4] فهو عبارة عن سنة إلهية اجتماعية ، مُتقرّرة في كل زمان ومكان ، فالله سبحانه يقرر هذه السنة التي تحكم العلاقات بين الأمم والشعوب في هلاكها وإهلاكها وهو سيطرة الفاسقين والمنحرفين على مقاليد الحكم ومن ثم الانهيار والسقوط . وهذه الحقيقة قد يجهلها الإنسان ، ويغفل عنها ، فالمخاطب هنا يتلقى خبرا هو خالي الذهن عن مضمونه تفصيلا ، وإنْ كان يدركه إجمالا ، ولكن ليس على سبيل الحقيقة المقررة ، فالخبر هنا مسوق لبيان هذه السنة الإلهية بغض النظر عن كون المخاطب وهو الإنسان مقرا أو شاكا أو منكرا ، فهذا ليس مهما أو منظورا إليه في سياق الخبر ، وهكذا تأتي هذه الأخبار في هذا الإطار من التعبير لتقرير الإنسان بمعلومات ومعارف أولية أو معلومات جديدة يجهلها،

١–سورة الإسراء : ٢ .
٢– سورة الإسراء : ١٢ .
٣– سورة الكهف : ٤٩ .
١– سورة الإسراء : ١٦ .

ولكن لا ينكرها ولا يتردد في قبولها كما رأينا ، ومنها أيضا ، قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ [١] فالمخاطب هنا يتلقى الخبر ويسلم به دون أي شك أو إنكار .

ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [٢] ، فهذه الجملة الشرطية الخبرية جاءت خالية من المؤكدات ، لأنها حقيقة يلمسها في هذا الموقف كل إنسان ولا ينكرها أو يتردد فيها ، ولكنه غافلٌ ساهٍ عنها فجاء الخبر ليقررها في نفسه.

ومنها أيضا قوله تعالى : (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً)[٣] فإنها تثبت للإنسان صفة نفسية يجهلها كحقيقة ثابتة في ذاته ، وهي التسرع والعجلة وعدم التثبت ، فلربما يدعو لنفسه بالشر ، كما يدعو لها بالخير لعجلته وعدم تثبته وأناته ، وعدم تفريقه بين ما هو نافع أو ضار لحياته ومستقبله ، وهذه الحقيقة أخبر عنها الله سبحانه للتنبيه عليها ، وهي لا تحتاج إلى تصديقها من قبل الإنسان وإقراره بها ، لأنها حقيقة ماضية في طبعه شاء أم أبى ، أو أقرّ بها أم أنكر .

أمّا المستوى الثاني من الأخبار ، وهي الأخبار التي جاءت مؤكّدة بمؤكّد واحد ، وهو ما يعرف بالخبر الطلبي ، فقد وردت في هذه السورة أيضا مبرزة معاني أخرى تتراءى لنا في هذا اللون من التعبير ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيراً ﴾ [٤] ، فلما كان الخبر المتضمن في هذه الآية ليس حقيقة كونية ، أو سنّة إلهية ، أو صفة نفسية ، أو أمر واقع في حياة الإنسان ، وإنما هو خبر جديد وحقيقة يقف المخاطب أمامها لأول مرة ، وهي كون هذا القرآن هو الطريقة الصحيحة والقويمة في الحياة ، فهو في حيرة وتردد من قبول هذا الخبر والإذعان إليه يحتاج إلى تقوية وتقرير أكثر فجاء مؤكّداً بمؤكّدٍ واحد ٍهو كاف لتقريره في نفوس المؤمنين .

ومنه كذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾[٥] ولأنَّ الآية الكريمة تابعة لما قبلها من الآيات التي تدعو إلى التوازن وحسن التصرف في الإنفاق وعدم التبذير ، أو الخوف من الفقر ، جاء هذا الخبر مطمئنا البخيل ومحذرا المبذر ، لأن الإنسان بغريزته يعتقد أن الرزق هو الحرص والمحافظة الشديدة ، أو هو التوكل على الله سبحانه ، من غير سعي أو محافظة معقولة على أمواله التي حصل عليها فيعمد إلى تبذيرها ثقة برزق الله تعالى ، فجاء الخبر مؤكدا بمؤكد واحد ، ليصحح هذا الاعتقاد الخاطئ في ذهن الإنسان بشيء من القوة ، للتأكيد على أن الله

٢- سورة الإسراء : ٥٤ .
٣- سورة الإسراء : ٦٧ .
٤- سورة الإسراء : ١١ .
١- سورة الإسراء : ٩ .
٢- سورة الإسراء : ٣٠ .

تعالى هو الرازق وهو المقدر لمن يشاء من عباده ، لأنه الخبير بهم وبما يصلح حالهم ، وحتى يذعن الإنسان لمضمون الخبر ويطمئن لمحتواه جيء به على هذا النحو من التأكيد ، دفعا للشك والحيرة والتردد عند الإنسان في مسألة الرزق وتحصيله .

أمّا المستوى الثالث من قوة الأخبار فجاء في السورة أيضا ليلقي بظلاله على المعاني الثانية المستفادة من الخبر ، ومنه قوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً) [١] ، فانظر إلى هذا الخطاب المعنيّ به بنو إسرائيل المعروفون بالغلظة والقسوة في تلقي التعاليم الإلهية ، وهذا ما نلحظه في الخطاب الإلهي لبني إسرائيل في القرآن الكريم ، فقد جاء الخبر هنا مؤكدا بأكثر من مؤكد واحد ، لأنه أولاً يشير إلى أحداث غيبية مستقبلية تحدث لبني إسرائيل وهي إفسادهم وطغيانهم في الأرض في مرحلتين تاريخيتين ، ثم ذكر هلاكهم على أيدي عباد الله ، ولتأكيد المضمون فقد جاء الخبر مؤكدا بلام التوكيد، ونون التوكيد الثقيلة ، ثم المصدر : (ولتعلُن علوا كبيرا) ، مضافا إلى دلالات بعض الألفاظ الموحية بالتوكيد كلفظة (قضينا) ، أي : حكمنا وألزمنا، وكذلك تعبير: (في الكتاب) ، والذي يعني أن هذا الخبر هو وحي من السماء جاء في كتابهم (التوراة) ، فالخبر تكاد تكون كل ألفاظه وتراكيبه مشحونة بهذه القوة والتأكيد لمضمونه ، لأنه أولاً وكما قلنا : خبر مستقبلي غيبي ، وثانيا: لأن المخاطب به هم بنو إسرائيل العتاة الجفاة الذين لا يذعنون إلا لما هو محسوس أمام ناظرهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [٢] فإن هذا الخبر بمؤكداته : اللام وحرف التحقيق قد ، والمصدر ، هو تعبير عن حقيقة ظاهر الإنسان ، فهو يجهل هذا التكريم وهذا التفضيل ويجهل حيثياته ، فهو في الغالب غير ملتفت أو غير مكترث بهذه المميزات التي ميز بها ، فهذه المؤكدات تنير الإنسان وتلفته إلى ذلك ، وتحثه على البحث عن سر هذا التكريم والتفضيل ، و لتوجيهه إلى المنعم الحقيقي على الإنسان ، وشكره، والاعتراف بفضله وكرمه ، ولفت نظره إلى عجز الإنسان وفقره ومحدوديته واحتياجه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ [٣] فالخبر (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً) ، مؤكد بأشد توكيد ، وذلك رداً على عقلية الشرك المسيطرة على ثقافتهم ونفوسهم التي تأبى أنْ يكون الإله واحدا لا شريك له ، فينسبون الشركاء له ، عدوا وظلما وجهلا وضيعا ، حتى وصل انحطاطهم وجهلهم أنهم ينسبون الإناث لله سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

١- سورة الإسراء :٤ .
٢- سورة الإسراء : ٧٠ .
٣- سورة الإسراء : ٤٠ .

العدول عن مقتضى الظاهر في الخبر

ويسمى إخراج الكلام على الأضرب الثلاثة المتقدمة إخراجا على مقتضى الظاهر ، وقد تقتضي الأحوال العدول عن مقتضى الظاهر وإيراد الكلام على خلافه لاعتبارات يلحظها المتكلم[١] ، وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة ((حيث إنك ترى المفلقين من السّحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيرا ، وذلك إذا أحلّوا المحيط بفائدة الجملة الخبرية وبلازم فائدتها علما محل الخالي الذهن عن ذلك ، لاعتبارات خطابية مرجعها تجهيله بوجوه مختلفة))[٢].

ومما يروى في هذا الصدد ما أنشده الشاعر بشار بمحضر خلف الأحمر، وأبي عمرو بن العلاء وهو قوله :

بكّرا صاحبيَّ قبلَ الهجيرِ إنَّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ [٣]

فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان (إنّ ذاك النجاح) : (بكّرا فالنجاح في التبكير) كان أحسنَ ، فقال بشار : إنما قلتها أعرابية وحشية فقلت : إنّ ذاك النجاح في التبكير ، كما يقول الأعراب البدويون ولو قلتُ : بكرا فالنجاح في التكبير ، كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة التي قلتها ، فقام خلف فقبّل بين عينيه [٤].

فالشاعر هنا قد أنزل صاحبيه منزل السائل الجاهل ، وكأنهما قالا له بعد أن سمعاه يحثهما على التبكير : هل التبكير يثمر النجاح ؟ فكان الجواب : إن ذاك النجاح في التبكير .

وهذا الضرب كثير في التنزيل جدا [٥] ، ومن ذالك قوله تعالى : ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [٧] وقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [٨] وقد ورد هذا الأسلوب في سورة الإسراء ، وهو إجراء الكلام على غير مقتضى الظاهر ، إظهارا لبعض المعاني والدواعي التي يقتضيها المقام ، ومنها قوله تعالى : (وَلا

١- ينظر لمعرفة هذه الاعتبارات : مفتاح العلوم ، ٢٩٥ وما بعدها ، وجواهر البلاغة : ٥٠- ٥١ .
٢- مفتاح العلوم: ٢٥٩ .
٤- البيت في ديوانه : ٣ / ٣٢٠
٣- ينظر : مفتاح العلوم : ٢٦١ .
٥- ينظر : دلائل الإعجاز : ٣٠٤ .
٦- سورة هود : ٣٧ .
٧- سورة الحج : ١
٨- سورة التوبة : ١٠٣ .

تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)[1] ، وكذلك قوله تعالى : (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[2] فالخبر في الآيتين مؤكد بـ (إنّ) ، وهو مؤكِد لمضمون ما تقدمه ، وهو معنى لا ينكره المجتمع آنذاك ، فهم يعرفون جيدا أن قتل الأولاد خطأ كبير ، ولكن لما كان من الأعراب في ذلك الوقت من يجرؤ على قتل أولاده من البنات خشية الفقر والعار ، وكأنه ينكر فداحة هذا الخطر والإثم العظيم ، سيق الخبر مؤكدا وقد نزله منزلة الجاهل أو المتردد الشاك في هذا الأمر . وكذلك فإنّ المجتمع يدرك جيدا أنّ الزنى من الفواحش المرفوضة من قبل الجميع ، ولكن لضعف الناس وانسياقهم وراء ملذاتهم ، وتسويل الشيطان بتزيينه لهم صاروا بمنزلة المترددين في هذه الحقيقة والشاكين فيها مما أدى إلى تساهلهم في ألأمر ، فجاء الخبر ليقرع أسماعهم ويؤكد لهم هذه الحقيقة عن طريق التأكيد على غير مقتضى ظاهرهم ، ليثير فيهم هذه المعاني فتقوى الناس على تركه واجتنابه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[1] ، فبعد الأمر بعدم الغرور والتكبر والخيلاء في المشي ، والذي هو دأب بعض الذين لا يعرفون قدر أنفسهم ، ونسبة وجودهم وأثرهم إلى هذه العوالم المختلفة في الكون الفسيح ، فيتصورون ذواتهم فوق ذوات الآخرين ويقودهم الاعتداد بأنفسهم إلى هذه المشية المتجبرة ، ولكن سرعان ما يخيب القرآنُ ظنهم بحركة والتفاتة سريعتين بهذه الجملة الخبرية المصدرة بـ(إنّ) المؤكدة :

﴿ إنك لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ ، لتصعقه بأنه لا ينبغي له أنْ يتكبر على هذه الأرض ، فإذا هو وطأ بقدميه الأرض بهذه الكيفية المختالة ، فليعلم بأن هذه الأرض هي أقوى منه وأدوم بقاء وأكثر نفعا ، وهو من الخفة وعدم التأثير بحيث لا يستطيع أنْ يؤثر فيها شيئا ، فضلا عن أنْ يخرقها بقدميه ، وهو إذا نظر إلى فوق ، متطاولا ، شامخا فإنه سيصطدم بما هو أعلى واشمخ واثبت منه ، وهي هذه الجبال المتطاولة الراسية التي يعجز الإنسان عن مطاولتها . وهذه الحقائق لا ينكرها الإنسان ، ولكن القرآن الكريم أنزله منزلة المنكر ، لأنه تصرَف تصرُف من ينكر ذلك عملا وسلوكا ، وإن كان يعرفها نظرا وعلما ، فجاء الخبر على غير ظاهر علمه وثقافته ولكنه مطابق لعمله وتصرفه ،

١- سورة الإسراء : ٣١ .
٢- سورة الإسراء : ٣٢ .

وهذا الأسلوب من الأساليب الرائعة التي تثير معاني التهكم والاستهزاء والإنذار ، وهذه الآية التي بين أيدينا شبيهة الأسلوب بقول الشاعر الجاهلي :

جاء شقيقٌ عارضا رمحَه إنّ بني عمِكَ فيهم رماح [٢]

فإن تأكيد الجملة بـ (إن) على غير مقتضى ظاهر شقيق ابن عم الشاعر ، فهو غير منكر لقوة بني عمومته وهم غير عزل من السلاح ، ولمجيئه على هذه الهيئة ، وهو مدل بنفسه وشجاعته وقد وضع رمحه عرضا وكأنه واثق بنفسه وبتقاعس غرمائه ،أراد الشاعر أن يلفته بهذا الأسلوب التهكمي .

أغراض الخبر في السورة

إنّ الغرض الأساس من الخبر في جميع المخاطبات هو إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة ، وهو ما يسمى عند البلاغيين بـ (فائدة الخبر) . ويلزم في ذلك النوع من الخبر أن يكون المخاطب جاهلا بمضمون الخبر ، وهناك أيضا يذكر البلاغيون غرضا حقيقيا آخر ويسمونه بـ (لازم الفائدة) ، وهذا الخبر لا يقدم جديدا للمخاطب ، وإنما يفيد أنّ المتكلم عالم بالحكم أيضا ، ومن ذلك قولنا لصديق : (زاركم محمدٌ أمسِ) ، أو تقول لآخر أخفى عليك نجاحه في الامتحان وعلمته من طريق آخر : (أنت نجحت في الامتحان) ، لتعمله أنك عالم بالخبر أيضا [٣].

والنوع الأول هو الغالب في لغة التخاطب ، والخطاب القرآني بوجه خاص ، لأنه موجه من العالم بكل شيء إلى الجاهل بكل شيء ، فالخبر في القرآن الكريم ، إذن ، يُراد به غرضه الأساس ، وهو فائدة الخبر ، أمّا لازم الفائدة فوروده في الكلام نادر ، ويكاد يكون منحصرا في خطابات المتكلمين من البشر ، أما في القرآن الكريم فهو وإن جاء في بعض أخباره ما يفيد بأن الله سبحانه عالم أيضا بما يعلمه المخاطب إلاّ أن الغرض من ذلك هو ليس ما ذكروه فحسب ، وإنما هو لغرض آخر ومعنى ثان يفهم من سياق النص . أما في المحاورات التي نقلها لنا القرآن الكريم فقد يكون الخبر في بعضها هو مما يفيد لازم الفائدة بالنسبة للمتحاورين ، وأما الخبر بالنسبة إلى المخاطب بالقرآن الكريم فهو ليس كذلك ، لأنه عند ذلك يكون خبرا الغرض منه إفادة المخاطب خبر المحاورة ، ومثاله : المحاورة المنقولة في سورة الإسراء بين موسى عليه السلام، وبين فرعون ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ

٣- سورة الإسراء : ٣٧

١- ينظر البيت في مفتاح العلوم : ٢٦٣ ، ولم ينسبه لقائل .

٢- ينظر : مفتاح العلوم : ٢٥٤ ،و جواهر البلاغة : ٤٦ ،و البلاغة والتطبيق : ١١٥ .

بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾ [١] ، ثم على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ [٢] ، فموسى عليه السلام يحتج على فرعون بأنه ليس منكرا في نفسه هذه الآيات والمعجزات وكونها من عند الله سبحانه ، وإنما هو يتكابر ويجحد ، فموسى (عليه السلام) يريد أن يقول له : إني أعلم أنك مستيقن بهذه الآيات ولكنك تجحدها مكابرة ، فالخبر إذن (لازم فائدة) بالنسبة لفرعون ، وهو بالنسبة إلينا أو للنبي (صلى الله عليه وآله) ، فائدة خبر .

وسورة الإسراء أخبارها كلها من القسم الأول ، وهو الغرض الأساس للخبر ، لأن المخاطب في القرآن الكريم جاهل بالنسبة لعلم الله تعالى مهما تنوع الخطاب وتعددت وجوهه [٣] . فسواء أكان الخطاب خاصا بالنبي (صلى لله عليه وآله) ، كقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾ [٤] ، أم كان خاصا ومنه يراد العموم كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [٥] ، أو خطابا عاما ويراد به العموم ، كقوله تعالى : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾[٦] فكل هذه أخبار يراد بها فائدة الخبر ، لأنها عبارة عن إفادات يجهلها المخاطب على وجه التفصيل واليقين ، وإنْ كان يدرك بعض مضامينها إجمالا .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ [٧] ، وكذلك ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[٨] فليس المراد منه لازم الفائدة ، أي : أن الله سبحانه يريد أنْ يخبر نبيه (صلى الله عليه وآله) بأنه يعلم أيضا كما يعلم الرسول (صلى الله عليه وآله) ما يفعله هؤلاء القوم به من فتنة واستفزاز ، لحرفه عن الدين القويم بالمساومة تارة وبالتهديد أخرى ، بل إن وراء هذه الأخبار أغراضا أخرى قد يكون منها تنبيهه (صلى الله عليه وآله) إلى مخططاتهم ومكرهم الخفي لحرف الدين ، وكذلك لتطمينه (صلى الله عليه وآله) بأنّ مكائدهم سوف لا يكتب لها النجاح ، لأنهم لو نجحوا بذلك سوف يتم استئصالهم حسب السنن الإلهية . وكذلك قد يفهم منها غرض آخر ، وهو أن سياق هذين الخبرين

١- سورة الإسراء : ١٠١ .
٢- سورة الإسراء : ١٠٢ .
٣- ينظر لمعرفة وجوه الخطاب في القرآن الكريم : الإتقان : ٢ / ٤٣ .
٤- سورة الإسراء : ٤٧ .
٥- سورة الإسراء : ٩ .
٦- سورة الإسراء : ٦٦ .
١- سورة الإسراء : ٧٣ .
٢- سورة الإسراء : ٧٦ .

المعلومين للنبي (صلى الله عليه وآله) هو لترتيب النتيجة عليهما ، وهي في الأولى ((إذا لاتخذوك خليلا)) ، وفي الثانية ((وإذا لايلبثون خلافك إلا قليلا)) .

إذن ، فربما ترد في السورة أخبار ظاهرها البَدْوي أنها تفيد لازم الفائدة ، ولكن عند النظر والتأمل يتضح أنها تحمل وراءها مضامين أخرى ، وانه لا مكان لهذا النوع من الأخبار في القرآن الكريم ، لعدم جدواها وجديتها ، إلا أن يضاف لهذا الغرض أغراض أخرى ، كما رأينا فيما تقدم ، وكما سنرى في هذه الآية الكريمة حيث يقول تعالى مخاطبا نبيه الكريم (صلى الله عليه وآله) : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۝أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ [١] .

فقد يقول قائل : إن هذه الأخبار تفيد لازم الفائدة ، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) قد عاش وشهد كل هذه الاقتراحات من قومه فهو يعلمها جيدا ، وأن الله تعالى أراد أنْ يقول له : إننا على علم أيضا بهذه الاقتراحات ، ولكن بعد التدبر نلاحظ ، أولا : أن القرآن لم يرد إخباره بهذا المعنى فحسب ، وإنما قد يكون أراد من خلال ذلك الكشف عن جهالة هؤلاء القوم في اقتراحاتهم ، وبيان أنّ المعجزة هي من أمر الله سبحانه وليس من اختصاص النبي (صلى الله عليه وآله) ، الذي مهمته التبليغ وليس إصدار المعجزات كلما طلب منه ذلك .

وثانيا : أن هذه الأخبار ترتب عليها كلام آخر ، وهو إصدار التعليمات للنبي (صلى الله عليه وآله) لمواجهة هؤلاء وكيفية الرد عليهم بما يناسب حالهم وهو قوله تعالى ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً ﴾ .

٣- سورة الإسراء : ٩٠ – ٩٣ .

وثالثا : أن هذا الخطاب وإن كان خاصّا موجها للنبي (صلى الله عليه وآله) إلاّ أنّه يراد به إعلام الأمة وتعريفها بضلال المشركين من قومهم ، وتعريفهم بمحنة نبيهم(صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهو بالنسبة للأمة فائدة الخبر وليس لازم الفائدة .

المعاني الثانية للخبر في السورة :

قد علمنا أنَّ الحقيقة في الخبر أن يلقى لغرض أساس هو فائدة الخبر، وآخر ثانوي هو لازم الفائدة ، وقد يخرج عن الغرضين السابقين إلى أغراض تفهم من السياق وقرائن الأحوال ، وهي أغراض ومعان كثيرة ، منها : الاسترحام ، وإظهار الضعف ، وتحريك الهمة ، والتوبيخ والتحذير ، والفخر والمدح ، وغير ذلك مما يرجع إلى الذوق السليم .

والجدير ذكره ها هنا ، أن هذه المعاني الثانية للخبر ، وإنْ كانت مرادات جدية للمتكلم – ليس بالألفاظ المستعملة فيها وضعا ، وإنما بواسطة القرائن وحال المتكلم – إلا أنها معان ناتجة عن المعاني الأولية الحقيقية التي هي جدية أيضا ومراده من قبل المتكلم ، وبذلك نكتشف أن هذه المعاني الجديدة لا تلغي المعاني الحقيقية ولا تتجاوزها دائما وإنما هي في الغالب ظلال ومكملات للمعاني الحقيقية الأساسية للخبر ، ففي قوله تعالى مثلا مخاطبا بني إسرائيل بعد إخبارهم بالإفسادتين التاريخيتين : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [1] ، إخبار حقيقي يراد به إفادة المخاطبين بأن هذه السنة الإلهية ماضية فيكم ومتجددة ، ولكن سياق الخبر يحمل بالتبع في طياته معنى آخر مفاده التهديد والوعيد الذي يفهم من سياق النص .

وليس الأمر كذلك عندما نقول : (رأيتُ أسداً) ، ونريد به إنسانا شجاعا ، فإنّ المعنى الحقيقي في هذه الجملة وهو (رؤية الأسد) غير مطلوب جدّيا على مستوى الدلالة التصديقية للكلام ، ولا يبقى للحقيقة سوى مدلولها التصوري فقط ، لأنها لا تنفك عن اللفظ أبدا ، أما ما نقصده من المعاني الثانية للأخبار فهو لوازمها المختلفة التي تفهم من السياق والقرائن مع انحفاظ قيمة الخبر الأساسية وهي إفادة الخبر مضمون الجملة للمخاطب .

ولذلك فإننا عندما ننظر في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [2] ، لا يتبادر لنا مضمون تلك الحقيقة فحسب ، وإنما سوف تنبعث في النفس القوة والأمل ، والإصرار ، وتحريك الهمة لما عرفناه من أن نتائج الأعمال سوف يكون مرجعها إلينا ، إنْ شرا وانْ خيرا ، والإنسان بطبعه يدرك هذه المعادلة ، ولذلك إنه لما ((قيل – مرة – لهرتزل مؤسس الكيان الصهيوني

١– سورة الإسراء : ٨ .
٢– سورة الإسراء : ٧ .

الغاصب في فلسطين : كان اليهود خلال أربعة آلاف سنة بؤساء محرومين ، فكيف تبادر إلى ذهنك تأسيس دولة لهم ؟ فقال : قرأت قرآن (محمد) فرأيت فيه آية تقول : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإنْ أسأتم فلها) ، فعرفت أنَّ البؤس الذي يعانيه اليهود في العالم ليس إلا من عند أنفسهم)) [١] . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ [٢] ، فمضافا إلى ما يحمله الخبر من معنى أول وغرض أساس ، وهو الإخبار بمصير بني إسرائيل ، وكل من لم ينتفع بالحكمة الإلهية والسنن والقوانين التي حددها الله سبحانه في كتابه العزيز بأن مصيرهم إلى جهنم ، ولكن الخبر يوحي من بعد ذلك إلى معنى آخر ، وهو الإهانة والإذلال والتحقير لهؤلاء ، لأنّ العذاب في هذا المكان سوف يكون حاصرا للإنسان ، محيطا به لا رجاء فيه للخلاص منه [٣]. وكيف يكون حال من يقضي حياته الخالدة سجينا؟ [٤] .

وهكذا نجد أخبار القرآن الكريم عامة ، وما نحن بصدده في سورة الإسراء خاصة ، تنطوي على جانب عظيم من العظة والاعتبار ، لأنها أخبار ليست غايتها القصة ، أو التسلية أو التسجيل التاريخي ، وإنما جميعها تنبض بالحياة ، الغاية منها أنْ تنعكس على واقع الإنسان ومجتمعه ، حتى تصبح مفاهيم وقيما عليا للإنسان يتمثلها في حياته أينما حل ، ولأجل هذه الغاية يسوق هذه الأخبار بطريقة توحي إلى هذه المعاني الثانية وتبرزها بقوة في صور مختلفة من الترغيب والترهيب والمبالغة والتهويل . فانظر إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ [٥] ، كيف يحمل من النهي عن التبذير ويهول من أمره ، ويرغب في الابتعاد عنه عندما قرنه بالشيطان الجاحد بنعمة ربه ؟ ، وكأن النص لم يكتف بعبارة : (ولا تبذر تبذيرا) الظاهرة في النهي ، فأتبعها بجملة خبرية تحمل على الشعور بالهول من مخاطر التبذير على الإنسان ومجتمعه ، وهذا من مفردات التناوب الدلالي بين الخبر والإنشاء ، الذي اشرنا إليه فيما سبق ، حيث يتعاضد الأسلوبان في إبراز المعنى وتجليته في أبهى صورة وأجمل حلة وبمستويات مختلفة تناسب جميع المكلفين ، فلعل بعض الناس لا ينتهي بقوله (ولا تبذر تبذيرا) ، لجواز حملها على الكراهة أو الإرشاد ، مما لا يبعث على الجد في الاجتناب ، ولكن عندما يقرن هذا النهي بخبر ينطوي على تهويل أمر الإسراف والتبذير ويعرف خطورته وانحرافه عن سنة الله في الحياة كما انحرف الشيطان وأتباعه من الإنس والجن ، سوف يرتدع ويكون أسرع إلى الانتهاء .

٣- من هدى القرآن : ٦ / ٢٠٢ .
٤- سورة الإسراء : ٨ .
٥- ينظر : التفسير الكبير : ٢٠ / ١٦٠
٦- عن ابن عباس : حصيرا : سجنا ، ينظر : روح المعاني : ٨ / ٢٢ .
١- سورة الإسراء : ٢٨ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ (١) فهذا الخبر يرصد حقيقة نفسية لدى الإنسان وهي عجلته وتسرعه في الحكم على الأشياء فيحسب الشر خيرا والخير شرا ، فيدعو في موارد الشر كما يدعو في موارد الخير ، ولكن الله سبحانه لا يريد فقط التنبيه إلى هذه الحقيقة الذميمة لدى الإنسان ، وإنما هناك دعوة ضمنية إلى اجتنابها والتطهر منها ، وفيه كذلك إشارة إلى أدب من آداب الدعاء وهو عدم الاستعجال (٢) .

وكذلك في قوله تعالى :﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ (٣) فأن في الخبر دعوة ضمنية إلى تحمل الإنسان المسؤولية ، لأنه المسؤول الوحيد عن عمله . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (٤) ، فهو بما ينطوي على المدح والثناء للعلماء الذين ميزهم الله سبحانه وأخبر أنهم فقط الذين يعرفون الله سبحانه ويتقونه ، وأنهم أول من شهد بالوحدانية بعد الله وملائكته ، فيه حث للمخاطب على اقتفاء آثارهم والمسير بهداهم في تقديس الله وطاعته وتسبيحه والسجود له طائعا منيبا خاشعا .

وهكذا يجد المتتبع في أخبار هذه السورة المباركة ملامح تعبيرية ومضامين كبيرة تشيع بين عباراتها لتضفي عليها طابع الحياة والديمومة والشمول .

الإنشاء في سورة الإسراء

الإنشاء وكما قدمنا ، هو ((كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه)) (٥) .

٢- سورة الإسراء : ١١ .
٣- ينظر : روح المعاني : ٨ / ٤٩ .
١- سورة الإسراء:١١ .
٢- سورة الإسراء : ١١٧، ١١٨ .
٣- البلاغة والتطبيق : ٢٢١ .

وقد بينا أنَّ الكلام لا يعدو أما أنْ يكون خبرا أو يكون إنشاء ، والمعتمد في هذا التقسيم والانحصار هو اختلاف مفهوم النسبة التامة لكل من الجملتين ((لأنه أما أنْ يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه ، أو لا يكون لها خارج ، الأول الخبر ، والثاني الإنشاء)) [١] ، وتوصلنا إلى تقرير الفرق بـ ((أنّ الجملة الخبرية موضوعة للنسبة التامة منظورا إليها بما هي حقيقة واقعة وشيء مفروغ منه ، والجملة الإنشائية موضوعة للنسبة منظورا إليها بما هي نسبة يراد تحقيقها))[٢] .

ولا يخفى ما للإنشاء بما له من ميزة الإيجاد المثير من اثر في هيجان المشاعر والانفعالات ، والبعث والتحريك ، ((واللغة تكون آدب من غيرها إذا اشتملت على الإنشاء)) [٣] . ولكن لا ينبغي الإيغال في تأصيله وتفضيله على الخبر إلى حد أنْ يقال أنّ ((الصيغ الخبرية محدودة في اللغات وهي في اللغة الأدبية لا تثير الانفعال ولا تحرك النفس وإنما تثير الانفعالاتِ العباراتُ الإنشائية))[٤] .

والقرآن الكريم يستعمل الأسلوب الإنشائي كثيرا ويوظفه في سياقات متعددة لا يقوم الخبر مقامها محدثا بذلك إثارات مناسبة عند الملتقي ، لأنّ الإنشاء أقرب صلة وأكثر عناية بالمخاطب منه إلى الخبر ، الذي يعتمد كثيرا على السرد بضمير المتكلم والغائب.

وفي سورة الإسراء وجدنا ذلك التنوع بين الخبر والإنشاء وهذا قد شكل ميزة جمالية فيها ، وقد رأينا سابقا أن نسبة الإنشاء في السورة كبيرة نسبيا ، حيث إنها تمثل ما يقارب النصف بالنسبة للخبر فيها .

وقد ورد أسلوب الإنشاء في السورة بقسميه الطلبي وغير الطلبي ، فأما الطلبي فهو ((ما يستدعي مطلوبا غير حاصل في وقت الطلب وذلك لامتناع تحصيل الحاصل)) [٥] وهو خمسة أنواع وهي : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والتمني ، والنداء . وهذا النوع هو مورد العناية في علم المعاني ؛ لما فيه من تفنن في القول ؛ لخروجه من أغراضه الحقيقية إلى أغراض مجازية تفهم من سياق الكلام ، وقد ورد من هذا الأسلوب ثلاثة أنواع في السورة هي : الأمر ، والنهي والاستفهام.

٤- الإيضاح : ١٠ .

١- دروس في علم الأصول ، الحلقة الثالثة : ١ / ١٠٩ .
٢- المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم: ١٧٥.
٣- المصدر نفسه: ١٧٧.
٤- الإيضاح : ٢٧٧ .

أولا : الأمر:

هو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء [1]. وله صيغ أربعة وهي : فعل الأمر ، والمضارع المجزوم بلام الأمر ، واسم فعل الأمر ، والمصدر النائب عن فعل الأمر .

والأصل في دلالة الأمر هو الوجوب ، وقد اختلف الأصوليون في كيفيته ، وملخص أقوالهم ، أنَّ منشأ ظهور الأمر في الوجوب هو أما كونه بحكم الوضع أي : أنَّ صيغة الأمر موضوعة للوجوب ((والدليل على ذلك هو التبادر، بشهادة أن الآمر العرفي إذا أمر المكلف بصيغة الأمر ولم يأت المكلف بالمأمور به معتذرا بأني لم أكن اعرف أنَّ هذا واجب أو مستحب لا يقبل منه العذر ويلام على تخلفه عن الامتثال وليس ذلك إلا لانسباق الوجوب عرفا من اللفظ وتبادره)) [2] ،وأما كون صيغة الأمر تدل على الوجوب بحكم كونها موضوعة لمطلق أنواع الطلب ، وأنّ الوجوب هو أظهر الأفراد فينصرف إليه ، أو أن الوجوب يستفاد من حكم العقل بلزوم طاعة أمر المولى ووجوب الانبعاث عن بعثه قضاء لحق المولوية والعبودية ، ما لم يرخص نفس المولى بالترك ويأذن به [3].

وقد تدل صيغ الأمر على معان أخرى غير الوجوب والإلزام تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال .

وصيغ الأمر هي الأكثر شيوعا واستعمالا في سورة الإسراء من غيرها من أساليب الإنشاء الأخرى ، إذ ترد هذه الصيغة (٤٨ مرة) في السورة بصيغة فعل الأمر ، ماعدا مرة واحدة ترد بالمصدر النائب عن فعل الأمر ، وهو قوله تعالى: ((وبالوالدين إحسانا)) [4] .

ويشكل الأمر مع أسلوب النهي الذي يليه في كثرة الاستعمال في السورة ، نوعا من الخطاب المؤثر والمتنوع ، فنلاحظ أنَّ خطاب السورة يأخذ منحى جديدا ابتداء من الآية (٢٢) وحتى الآية (٣٧) من قوله تعالى (ولا تمشِ في الأرض مرحا) [5] ، حيث تبدأ سلسلة من الأوامر والنواهي بشكل متناوب وهذا ما أكسب الخطاب لوناً من ألوان الجذب للمخاطب ، مع إكسابه نوعاً من الموسيقى الداخلية في النص ، يسببه هذا التتابع من صور الإنشاء الموزعة مابين الآيات والآية الواحدة أحيانا ، كقوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾[6]، وربما اجتمعت ثلاثة أساليب في الآية الواحدة لخلق أجواء مناسبة لإثارة معان إضافية ، كقوله تعالى ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً

١- ينظر : جواهر البلاغة : ٦٤ ، وعلم المعاني : ٨١ .
٢- دروس في علم الأصول ، الحلقة الأولى : ١١٥ .
٣- ينظر : أصول الفقه : ٦٢ ، ودروس في علم الأصول ، الحلقة الثالثة : ١ / ١٠٤ .
٤- سورة الإسراء : ٢٣.
٥- سورة الإسراء :٣٧ .
١- سورة الإسراء : ٢٦ .

رَسُولاً ﴾[1] ، وربما جاءت أفعال الأمر متشابهة ، وذلك لاجتماع خطابين متتاليين : خطاب القرآن الكريم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وخطاب آخر بواسطته إلى الآخرين ، كقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾[2] وقوله تعالى :﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾[3] وقوله تعالى ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ [4] .

والأغراض التي تؤديها صيغة الأمر بعضها حقيقي يفيد الإلزام والوجوب وبعضها الآخر يفيد معاني أخرى تفهم من السياق والقرائن ، فمن الأغراض الحقيقية للأمر ، قوله تعالى : ﴿ وآتِ ذا القربى حقه والمسكين ﴾ [5] ، وقوله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [6] وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [7] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ [8] ، وقوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [9] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ [10] .

فنلاحظ أنّ الأمر في جميع هذه الآيات يدل على نسبة بين الفعل والفاعل منظورا إليها بما هي نسبة يراد تحقيقها وبعث المكلف نحو إيجادها على وجه الإلزام ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التسامح فيها إلاّ ما كان على وجه الضرورة والاضطرار .

فكلّ من إيتاء ذي القربى حقوقهم وطاعة الوالدين ، والإيفاء بالعهد ، والكيل ، وإقامة الصلاة، وصلاة الليل بالنسبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، كلها محبوبة لله سبحانه ، ومطلوبة من الإنسان على وجه الإلزام وعدم الترك ، لوجود المصلحة التامة فيها ، وفي التقصير والتساهل ، أو الترك لها ، المفسدة التامة للإنسان والمجتمع .

أما المعاني الثانية التي تؤديها صيغ الأمر فهي كثيرة ومتعددة بعدد السياقات المحتملة في اللغة ولا يمكن حصرها ، والسورة الكريمة اشتملت على كثير منها .

فمنها قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾[11] ، فالمعنى الثاني ، بعد المعنى الأول الحقيقي للأمر ، يفيد بأن الإنسان هو المسؤول الأول عن أعماله فلا حجة له بعد ما سطره على

٢- سورة الإسراء : ٩٥ .
٣- سورة الإسراء : ١١٠ .
٤- سورة الإسراء : ١٠٧ .
٥- سورة الإسراء : ٥٠ .
٦- سورة الإسراء : ٢٦ .
٧- سورة الإسراء : ٢٤ .
٨- سورة الإسراء : ٣٥ .
٩- سورة الإسراء : ٣٤ .
١٠- سورة الإسراء : ٧٨ .
١١- سورة الإسراء : ٧٩ .
١- سورة الإسراء :١٤ .

نفسه في الكتاب ، وكذلك يفيد إثبات عدالة الله سبحانه وتعالى في محاسبة البشر يوم القيامة . ومنها قوله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾[1] .

فالأمر هنا إرشادي لغرض العظة والاعتبار ، والتعجيب من تفضيل الله ، سبحانه ، الناس بعضهم على بعض في الدنيا ، وإن هذا التفضيل سيكون أعظم ، والدرجات أعلى في الآخرة ، فانظر إلى آثار الله في خلقه واصبر واعتبر .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [2] ، فقد تغير هنا مدلول صيغة فعل الأمر (ارحم) من الإلزام إلى معنى آخر أحدثه السياق الذي ورد فيه وهو صدوره من الداني إلى العالي ، وفيه يكون طلب الرحمة على وجه الدعاء والسؤال من الله سبحانه وتعالى .

ومنها قوله تعالى مخاطبا الشيطان : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ [3]

يقول الرازي في تفسيره : إنّ ((معنى صيغة الأمر : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك ......) التهديد كما يقال : اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك)) [4] .

ولكن بعد النظر في سياق هذه الأفعال وطريقة عرضها نستطيع أنْ نستشف معانيَ أخرى ، منها : الإمهال المشوب بالتهديد والوعيد ، وعند الملاحظة نجد أنّ هناك خمسة أفعال أمر متنوعة ومتتابعة هي (اذهب – استفزز – أجلب – شارك – عدْ) ، ونلاحظ أنّ الأفعال الأربعة الأخيرة هي تفصيل وتنويع يمكن أنْ يستغنى عنه بعبارة (اذهب فمن تبعك منهم ...) التي تدل على إمهال إبليس بكل ما يفعله من وسوسة وانحراف للخلق ، ولكن الله سبحانه عمد إلى التفصيل بذكر الأفعال الأخرى للتدليل والإيحاء إلى طرق إبليس في تدليسه الناس وختلهم وإغوائهم ، فكان بذكرها فائدة تفصيلية ومعنى آخر غايته البيان من أجل تنبيه الآخرين إلى عدوهم من خلال توجيه الخطاب له على وجه الفضيحة وكشف الأسرار ، وهو كمن يقول لأحد الأشرار مخاطبا إياه : افعل كذا ، وكذا بالناس ، وغايته تنبيه السامعين إلى أعماله وحيله التي يتبعها هذا الشرير في الإضرار بالآخرين بغية الحذر منه .

ومنها قوله تعالى ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ [5] ، بعد قولهم ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [6] .

٢- سورة الإسراء : ٢١ .
٣- سورة الإسراء : ٢٤ .
١- سورة الإسراء : ٦٣ -٦٤ .
٢- التفسير الكبير : ٢١ / ٨ .
٣- سورة الإسراء : ٥٠ .
٤- سورة الإسراء : ٤٩ .

حيث قال بعضهم : إنّ الأمر هنا يفيد الإهانة [١] ، وهو ربما يكون بعيدا عن هذا السياق ، لأن المعنى هو إنكم إذا كنتم منكرين عودتكم وبعثكم بعدما كنتم عظاما نخرة ، فكونوا أبعد شيء من قبول الحياة ، كأن تكونوا حجارة أو حديدا فإنهما أبعد قبولا للحياة من العظام بعد تلاشيهما ، بل كونوا أبعد من ذلك (أو خلقا مما يكبر في صدوركم) كأن تكونوا الموت نفسه ، فإنكم مهما تكونوا فإن الله قادر على إعادتكم مرة ثانية [٢] ، فالكلام إذن على سبيل المبالغة والتحدي ودحض الحجة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا ﴾[٣] ، فهذا أمر غايته تفويض بالاختيار بعد البيان ، مشوب بالتهديد والتسوية ، فإنه سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا لا تضرون الله شيئا بكفركم ولا تنفعونه بإيمانكم ، وإنما تضرون أنفسكم وتسعون لها بالهلاك والخَسار .

ثانيا : النهي :

و ((هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام))[٤]، أو فقل: هو ما دل بصيغته على الزجر عن الفعل وردعه عنه [٥] ، وهو عند البلاغيين له صيغة واحدة وهي المضارع المقرون بلا الناهية ، أما عند الأصوليين فهو كل صيغة تدل على الزجر وطلب الكف ، نحو (لا تفعل) و (إياك أنْ تفعل) [٦] .

وصيغة النهي تدل على الحرمة ، لأنها موضوعة للنسبة الإمساكية بوصفها ناتجة عن كراهة شديدة وهي الحرمة ، والدليل على أنها موضوعة كذلك هو التبادر كما تقدم في صيغة الأمر [٧] ، وقد تخرج هذه الصيغة عن أصل معناها إلى معان أخر تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال[٨].

والسورة المباركة تحتوي على مجموعة كبيرة من النواهي شكلت بمجموعها قطعة متناسقة بالتناوب مع مجموعة من الأوامر في (١٨) آية كما مر ، هدفها رفع قيمة الإنسان بتخليته عن مجموعة الرذائل والنواقص ، وثم تحليته بآثار خلقية رائعة ، وقد وصف الله تعالى هذه الصفات بأنها سيئة ومكروهة

١- جواهر البلاغة : ٦٦ .
٢- ينظرتفسير الآية : معاني القرآن : ١٢٥ ، والتفسير الكبير :٢٠ / ٢٢٦ .
٣- سورة الإسراء : ١٠٧ .
٤- البلاغة والتطبيق : ١٢٩ .
٥- ينظر : أصول الفقه : ٩٢ .
٦- ينظر : المصدر نفسه : ٩٢ .
٧- ينظر : دروس في علم الأصول ، الحلقة الثالثة : ١١٧ .
٨- ينظر: جواهر البلاغة : ٦٩ ، والبلاغة والتطبيق : ١٢٩ .

عنده سبحانه فيجب اجتنابها حيث يقول عز من قائل ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ [1] ، ووصف التمسك بتلك النواهي بأنها من آثار الحكمة حيث يقول : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [2] .

وقد وردت هذه الصيغة (١٨) مرة في سورة الإسراء ، الأعم الأغلب منها دل على المعنى الحقيقي للصيغة ، وهو الحرمة وطلب الكف على وجه الإلزام ، كقوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ [3] ، وكذلك الآيات الكريمة الآتية :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [4]

﴿ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ [5]

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [6]

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [7]

﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ [8]

فاتخاذ الشريك ، وقتل الأولاد ، وقتل النفس المحرمة ، ومقاربة الزنى ، واقتفاء الظنون والأهواء ، والتكبر ، كل هذه خصال مذمومة عند الله سبحانه ، وعند العقل السليم ، لا يمكن الترخيص والتسامح في اقترافها ، لذلك ورد النهي المؤكد بشأنها بغية اجتنابها والتطهر منها .

أما بالنسبة للمعاني الثانية ، أو الاستعمال المجازي للصيغة فلم يرد إلاّ قليلا في هذه السورة ، والتي قد يكون منها قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ [9] ، الذي يفهم منه الإرشاد إلى كيفية الإنفاق ، وهي الوسطية بين الإفراط والتفريط اللذيْن يجعلان الإنسان ملاماً من قبل نفسه ومن الناس ، ومنقطعا في تدبير معيشته .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[10] ، وفيه الإشارة إلى أنه لا ينبغي الصياح والصراخ في الصلاة ؛ لانّ ذلك ليس من أدب الدعاء في الصلاة ، ولا يجوز الإخفات إلى درجة بعيدة ، فهو أمر إرشادي ، ولذلك شُرّع في الصلوات كما

١- سورة الإسراء : ٣٨ .
٢- سورة الإسراء : ٣٩ .
٣- سورة الإسراء : ٢٢ .
٤ – سورة الإسراء : ٣٣ .
٥ – سورة الإسراء : ٢٣ .
٦- سورة الإسراء : ٣٢
٧- سورة الإسراء : ٣٦ .
٨- سورة الإسراء : ٣٧ .
١- سورة الإسراء : ٢٩ .
٢- سورة الإسراء : ١١٠ .

جاء في الروايات الإخفات في الصلوات النهارية ، والجهر في الصلوات الليلية ، ولعل الآية غير ناظرة إلى ذلك التشريع الثابت في الروايات ، وإنما هي بصدد الإرشاد إلى هذه الوسطية في كيفية الجهر والإخفات ، وإلى ذلك يشير الإمام الصادق (عليه السلام) حيث يقول : ((الجهر رفع الصوت والتخافت بها ما لم تسمع نفسك ، واقرأ ما بين ذلك))[1] .

ثالثا : الاستفهام :

هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل [2] ، ويؤدى بأدوات كثيرة هي : الهمزة وهل ، وهما حرفان .

وما ، ومتى ، وإيان ، وأين ، وأنـّى ، وكم ، وأيّ ، وهي أسماء .

وتنقسم بحسب الطلب إلى أقسام :

١- ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى وهو الهمزة .
٢- ما يطلب به التصديق فقط ، وهو هل .
٣- ما يطلب به التصور فقط ، وهو بقية ألفاظ الاستفهام .

والمقصود بالتصور ، هو إدراك المفرد ، وذلك كإدراك الموضوع وحده أو المحمول وحده أو هما معا ، والاستفهام في هذه الحالة يكون عند التردد في تعيين أحد الأمرين مثل : أعليٌ قادم أم سعيد ؟ .

والمقصود بالتصديق هو إدراك وقوع النسبة التامة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها ، بحيث يكون المتكلم خالي الذهن مما استفهم عنه [3] ،((وطلب التصور مرجعه إلى تفصيل المجمل أو إلى تفصيل المفصّل بالنسبة ، وإذا تأملت التصديق وجدته راجعا إلى تفصيل المجمل أيضا ، وهو طلب تعيين الثبوت أو الانتفاء في مقام التردد ، نقول في طلب التصديق بالهمزة : أحصل الانطلاق ؟ ، وفي طلب التصور بما في طرف المسند إليه : أدبسٌ في الإناء أم عسلٌ ؟ ، وفي طرف المسند : أفي الخابية دبسك أم في الزّق ؟ ، فأنت في الأول تطلب تفصيل المسند إليه وهو المظروف ، وفي الثاني تطلب تفصيل المسند وهو الظرف))[4] .

والذي يهمنا هنا هو المعاني الثانية التي يؤديها هذا الأسلوب في سياقاته المختلفة ، والذي نريد أنْ نتوجه بالعناية إليه هو أنّ طلب الفهم أو العلم من قبل المتكلم في القرآن الكريم وهو الله

٣- نور الثقلين : ٣ / ٢٣٤ .
٤- جواهر البلاغة : ٧١ ، والبلاغة والتطبيق : ١٣١ .
١- ينظر : جواهر البلاغة : ٧٢- ٧٣ .
٢- مفتاح العلوم : ٤١٨ – ٤١٩ .

سبحانه غير مقصود وغير وارد ، فلا استفهام ، إذن ، في القرآن إلاّ ما ينقله ويصوره عن المتحاورين من البشر وغيرهم .

وقد ورد هذا الأسلوب في سورة الإسراء (١٥) مرة ، منها (٤) مرات بأسماء الاستفهام التي يراد بها التصور ، وهي مرة واحدة بـ (مَن) التي يسأل بها عن العاقل ، في قوله تعالى : ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ﴾[1] ، ومرة واحدة بـ (متى) التي يسأل بها عن الزمان ، في قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هو ﴾ [2] ومرة واحدة بـ (كيف) التي يسال بها عن الحال ، في قوله تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [3] . ولا جواب هنا على العكس من الاستفهامين بـ (من) و (متى) ، حيث أجيب عن الأول بـ (قل الذي فطركم أول مرة ...) وعن الثاني بـ (قل عسى أن يكون قريبا ...) ، أما هنا فقد عدم الجواب ؛ لأنه ليس استفهاما حقيقيا ، بل هو للتعجيب من حال هؤلاء بعدم التصديق بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، واتهامه بالسحر فضلوا عن سواء السبيل . أما الاستفهام بالأداتين السابقتين فهو استفهام حقيقي صادر ممن يجهل إدراك النسبة وهم منكرو البعث ، وإن كان سؤالهم ينطوي على شيء من الإنكار والاستبعاد والاستغراب بدليل عدم رضاهم عن الجواب في قوله تعالى : (قل الذي فطركم أول مرة) ، فكان حالهم هو : (فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو ...).

أما بقية الموارد فكانت بحرف الاستفهام (هل) الذي ورد مرة واحدة أيضا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً ﴾ [4] ، وهو استفهام مجازي غرضه النفي ، أي : ما كنت إلاّ بشراً رسولاً ،وينطوي على تعجيب من أحوال هؤلاء القوم ومن مقترحاتهم الغريبة .

أما الاستفهام بالهمزة فقد ورد في (١٠) مواضع من السورة ، كلها تحمل معان غير معانيها الحقيقية ، والتي منها قوله تعالى على لسان إبليس الذي امتنع عن السجود مع الملائكة :﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ۞ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [5] ، الذي هو استفهام إنكاري وقح من قبل الشيطان أمام الله سبحانه وتعالى ، عندما أجرى قياسا مفاده : أن أصله اشرف من أصل آدم فوجب أنْ يكون أشرف منه ، فكيف يكون سجود منه لمن هو دونه ؟ ، أمّا قوله (أرأيتك هذا الذي كرمت) ، ((فيقول المفسرون : إنه إذا دخلت (الهمزة) على(رأيت) امتنع أنْ تكون رؤية البصر ، أو القلب ، وصار بمعنى

٣- سورة الإسراء : ٥١ .
٤- سورة الإسراء : ٥١ .
٥- سورة الإسراء : ٤٨ .
١- سورة الإسراء : ٩٣ .
٢- سورة الإسراء : ٦١ -٦٢ .

(أخبرني))) [١] ، ((قال الزجاج : قوله أرأيتك معناه اخبرني)) [٢] ، ولئن كان الأمر كذلك فأين نبرة الاستفهام في هذا التركيب إذن ؟ ، ((ولعل معنى الكلمة : هل ظننت أنك تغلبني))[٣] ، ومهما يكن فإنه تركيب يوحي بنبرة استفهام فيها نوع من التحدي والتمرد ، وكأنه كان يقول : ستعلم ما أفعل بهذا الذي كرمته علي وأمرتني بالسجود له من غير استحقاق له !! .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [٤] ، وفيه إنكار واستغراب وتعجب من البعث بعد الموت ، وهو كاشف عن جهالتهم وعمايتهم عن حقائق الموجودات ، وبراهين الأمور ، التي تثبت قدرة الله سبحانه على كل شيء ، لو أبصروها ، ولذلك يأتيهم الجواب سريعاً ، بأنهم غير معذورين بهذا الإنكار ، لأنكم لم تحققوا جيدا فيما حولكم،﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [٥] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً ﴾ [٦] ، ((وهو إنكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لا جواب لصاحبه إلاّ بما فيه أعظم الفضيحة)) [٧] ، ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ .

هذه هي أهم الأساليب الإنشائية الطلبية التي استعملت في هذه السورة المباركة ، ولكن بقي أن نشير إلى أنّ أسلوب النداء قد ورد مرتين فيها ، الأولى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٨] ، والثانية ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [٩] ، وقد حذف حرف النداء وبقي المنادى ، وهو غالبا ما يحذف مع كلمة (رب) ، وهذا هو الأصل في القرآن كله إلاّ في آيتين هما قوله تعالى : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٠] و ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ [١١] ، وقد جاء في سورة الإسراء ، على الأصل الغالب ، ولعل الحكمة من هذا الحذف هو لبيان قرب العبد من ربه وكثرة استعماله لهذه الكلمة واللهج بها .

الإنشاء غير الطلبي :

٣- الإتقان في علوم القرآن : ١ / ١٩١ .
٤- التفسير الكبير: ٢١ / ٣ .
٥- من هدى القرآن : ٦ / ٢٦٢ .
١- سورة الإسراء : ٤٩ .
٢- سورة الإسراء : ٩٩ .
٣- سورة الإسراء : ٤٠
٤- التفسير الكبير : ٢٠ / ٢١٦ .
٥- سورة الإسراء : ٢٤ .
٦- سورة الإسراء : ٨٠ .
٧- سورة الزخرف : ٨٨ .
٨- سورة الفرقان : ٣٠ .

وأما الإنشاء غير الطلبي وهو ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، فيقول عنه البلاغيون : إنّ أكثر صيغة أخبار نُقلت إلى الإنشاء [١] ، ولكنها لا يراد بها الإخبار؛ لأنها لا تحتمل الصدق والكذب ولذلك لم توضع مع الخبر ، ولا يهتم البلاغيون بهذه النوع من الإنشاء لقلة الأغراض المتعلقة به وهذه الصيغ هي : المدح ، والذم ، والتعجب ، والقسم ، والرجاء ، وصيغ العقود .

وقد ورد منها في السورة أسلوبا التعجب والرجاء ، أما التعجب فقد ورد سماعيا بالمصدر (سبحان) أربع مرات ، في قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِالْأَقْصَى﴾[٢] وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ [٣] ، أما الرجاء فقد ورد بواسطة الفعل (عسى) ، ثلاث مرات هي قوله تعالى ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[٤] و﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ [٥] ، و ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [٦] .

وقد اتفق المفسرون على أنّ كلمة (عسى) من الله واجبة ، قال أهل المعاني: لأن لفظة عسى تفيد الإطماع ، ومن اطمع إنسانا في شيء ثم حَرَمه كان عاراً ، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحدا في شيء ثم لا يعطيه ذلك [٧] .

ثانيا: الالتفات :

فن من فنون القول ، ولون من ألوان الصياغة في الأسلوب القرآني ، والكلام بصورة عامة ، ((وهو الانتقال بالأسلوب من صيغة المتكلم ، أو الخطاب، أو الغيبة ، إلى صيغة أخرى من الصيغ بشرط أنْ يعود الضمير الثاني على نفس الذي يعود عليه الضمير الأول)) [٨] .

(والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه))[١] .

١- ينظر : جواهر البلاغة : ٦٤ .
٢- سورة الإسراء : ١
٣- سورة الإسراء : ٩٣ .
٤- سورة الإسراء : ٧٩ .
٥- سورة الإسراء : ٥١ .
٦- سورة الإسراء : ٨ .
٧- ينظر : التفسير الكبير : ٢١ / ٣١ .
١- المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢٣٤ .

وقد تنبه إلى هذا الأسلوب أبو عبيدة (ت ٢٠٧ هـ) ، وإن لم يسمّه ، فيقول ((ومن مجاز ما جاءت به مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبة هذه إلى مخاطبة الغائب قول الله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[٢])) [٣] ، ((ولعل الأصمعي (٢١٧ هـ) هو الذي أطلق عليه الاسم الاصطلاحي ، فقد روي أنه سأل بعض من كان يتحدث إليهم : أتعرف التفاتات جرير ؟ فقال : لا ، فما هي ؟ قال :

أتنسى إذْ تودعنا سليمى   بِعودِ بَشَامةٍ ، سُقِيَ البَشَامُ [٤]

ألا تراه مقبلا على شعره ثم التفت إلى البَشَام فدعا له)) [٥] .

أما ابن الأثير فيلقبه بـ (شجاعة العربية) ، وذلك أنّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيع غيره ويتورد ما لا يتورد سواه ، وكذلك الالتفات في الكلام ، فإن اللغة العربية تختص به من دون غيرها من اللغات [٦] . ويذكر الزمخشري في وجه حسنه ((أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد)) [٧] ، وهذا الوجه من الحسن لهذا الأسلوب هو الذي اختاره السكاكي كما ذكرنا ، أمّا ابن الأثير فلا يرتضي هذا الوجه من الحسن ، فيقول معلقا على رأي الزمخشري : ((وهذا قدح في الكلام ، لا وصفٌ له ، لأنه لو كان حَسَنا لمّا مُل)) [٨] ، وهو عنده أن الانتقال الذي يحصل في الكلام ((لا يكون إلاّ لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب غير أنها لا تحدّ بحدّ ولا تضبط بضابط)) [٩] .

والذي نميل إليه ونستهويه ، بل ونعتمده هو ما قاله ابن الأثير ، ولا سيما صور الالتفات في الأسلوب القرآني ، لأننا نعتقد أنّ كل التنوعات البيانية ، في النص القرآني مقصودة بعناية فائقة ومن ورائها معان تتفاوت الأذهان في إدراكها والأذواق في تناولها ، ونستبعد كل البعد أن تكون استعمالات النص القرآني للمفردات أو التراكيب مجرد محسنات لفظية وأسلوبية الغرض منها إلقاء مسحة جمالية على النص وإثارة أجراس موسيقية في داخله فحسب ، وإنما تبرز ميزة الاستعمال في النص القرآني بهذه الانتقائية للألفاظ والتراكيب والأساليب التي تثير معاني محددة ودقيقة سواء أ كانت ظاهرة أو خفية من

٢- مفتاح العلوم : ٢٩٦ .
٣- سورة يونس : ٢٢ .
٤- مجاز القرآن : ١١ .
٥- البيت لـــ (جرير) كما في ديوانه:٤١٧ ،وفيه (بفرع) بدل (بعود)، والبشام : شجر طيب الريح والطعم يستاك به ، والبيت في لسان العرب هكذا :

أتذكر يوم تصقل عارضيها   بفرع بَشامة سقي البشامُ

يعني : أنها أشارت بسواكها ، فكان ذلك وداعها ولم تتكلم خشية الرقباء ، ينظر : لسان العرب : (بشم) ، ١ / ٤١٧ .
٦- المعاني في ضوء أساليب القرآن : ٢٣٤ .
٧- ينظر : المثل السائر : ١ / ٤٠٨ .
٨- الكشاف : ١ / ٢٤ .
١- المثل السائر: ١ / ٤٠٨ .
٢- المصدر نفسه : ١ / ٤٠٩ .

دون إغفال ما لهذا الاستعمال من وظيفة ثانوية أخرى غير مقصودة لذاتها وإنما هي منسجمة وتابعة وهي المسحة الجمالية للنص ، فالالتفات في القرآن الكريم يوفر الوظيفتين معاً : إبراز المعاني الدقيقة مع تحقيق الوظائف الأخرى التي ذكروها من دفع الملل وبعث النشاط عند المتلقي .

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الالتفات المبني على التغاير في الكلام لا يقف عند حدود الانتقال بين الضمائر الثلاث ، وإنّما يتعداه إلى أنواع أخرى ، كالانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين ، والانتقال الزمني في الأفعال كالانتقال من الزمن الحاضر إلى الماضي وبالعكس [1] . وما نقصده نحن في هذا البحث هو الالتفات بمعناه العام، من صرف الخطاب وتحويله من وجه لآخر بحيث يؤدي إلى إثارة معنى جديد أو يشير إلى نكتة لطيفة.

وقد ورد هذا الفن كثيرا في القرآن الكريم وهذا ما جعل المفسرين يولونه العناية والاهتمام ويترصدون مواقعه التي منها ما هو واضح فاضح كقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [2] ، ومنها ما هو خفي مستور لا يلفت النظر ولا يثير الاهتمام كما في كثير من صور الالتفات فيه .

وفي سورة الإسراء حضور متميز لهذا الفن بحيث يشكل أداة ًهامّة من أدوات التعبير البيانية فيها، والذي يهمنا في هذا الأسلوب هو ما يترشح منه من معان ثانية تختفي وراء تراكيبه المتغيرة وما نستفيده من إيحاء وإشارات لمعان قد تكون محتملة في النص ، وإلاّ فلا يمكن الجزم والتعويل ، على المعاني المستفادة من هذا الفن ؛ لأنها تابعة لمقصود المتكلم القدير على التحكم والتصرف في أفانين الكلام المختلفة ، ولا يعلم حقيقة تلك القصود وأسرارها إلاّ صاحبها والراسخون في العلم .

ومن صور الالتفات ما يواجهنا في الآية الأولى من السورة وهي قوله تعالى :﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [3] .

حيث ينتقل الخطاب بصور متعددة من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، فقوله سبحانه: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) فيه ذكر الله تعالى على سبيل الغيبة ، وقوله (باركنا حوله لنريه من آياتنا) فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور ، ثم يعود الخطاب إلى الغيبة: (إنّه هو السميع البصير) ، ثم ينتقل إلى الحضور في الآية الأخرى: (وآتينا موسى الكتاب) ، ((وقد ذكروا لهذا التلوين نكتة خاصة وهي أن قوله تعالى ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ﴾ يدل على مسيره " عليه الصلاة والسلام" من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، فهو بالغيبة أنسب ، وقوله تعالى ﴿ باركنا حوله ﴾ دل على إنزال

٣- ينظر : النظم القرآني في سورة (ق)،رسالة ماجستير : ٤٤ .
٤- سورة يونس : ٢٢ .
١- سورة الإسراء : ١.

البركات فيناسب تعظيم المنزل ، ﴿ ولنريه ﴾ على معنى بعد الاتصال وعز الحضور فيناسب التكلم معه ، وأمّا قوله ﴿ إنه هو السميع البصير﴾ فليطابق قوله تعالى ﴿ بعبده ﴾ ويرشح ذلك الاختصاص بما يوقع هذا الالتفات أحسن مواقعه)) (١).

وقد يفهم من هذه التغييرات بعض الإشارات ، كإجراء أول الكلام على الغيبة في قوله تعالى ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ الذي يشير إلى التعظيم والتقديس ، و (الغيرة) بعدم التصريح بالاسم الظاهر من أسمائه الحسنى ، وكذا بعدم ذكر اسمه(صلى الله عليه وآله وسلم) ويفهم من هذه الغيبة كذلك ، التركيز على الفعل ، ذلك الأمر الإعجازي : الإسراء ، وتسليط الضوء عليه ، ليتبين عظمة فاعله ، ثم ينتقل الخطاب فجأة إلى عالم الحضور (لنريه من آياتنا) ، فيكشف الأسرار للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)(٢) في عالم الحضور الرباني والإطلاع على آياته وملكوته ، ويتجلى الفاعل الحقيقي لهذا الأمر الغيبي بكل عظمة وعزة ورعاية .

ومنها قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ (٣) ، فالانتقال هنا كان من ضمير الغيبة في (حملنا) كناية عن بني إسرائيل الذين أنجى الله تعالى آباءهم من الغرق في سفينة نوح (عليه السلام) ، إلى الغائب المفرد ، فبمناسبة ذكر نوح (عليه السلام) بنسبة بني إسرائيل إليه ، ينتقل فجأة إلى ذكر شمائله ، وربما يكون المراد الإلماح إلى حملهم على التوحيد الخالص كما دعا إليه نوح (عليه السلام) ، وفيه إشارة أيضا إلى أن إنجاء من معه وبقاء ذريتهم كان ببركة شكره لله تعالى ، وفيه حث للذرية للاقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك (٤) ، وهو شبيه بالتفات جرير السابق .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (٥) ، وفيه التفات من الحاضر المستمر بالفعل المضارع (يدعو) إلى الماضي (كان) ، للإشارة إلى رسوخ صفة العجلة في جبلّته الأولى ، ومثله قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الإنسان قَتُوراً﴾ (٦) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ (٧) ، فرجع الحديث عن الشيطان لبيان حقيقته الثابتة .

وفي قوله تعالى ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١) ، ثلاثة التفاتات ، من الغائب المفرد إلى الغائبة المفردة

٢– روح المعاني : ٨ / ١٤ – ١٥ .
١– ينظر: المصدر نفسه .
٢– سورة الإسراء : ٣ .
٣– ينظر : روح المعاني : ٨ / ١٧ .
٤– سورة الإسراء : ١١ .
٥– سورة الإسراء : ١٠٠ .
٦– سورة الإسراء : ٦٤

﴿ ولاتزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي : ولا تحمل نفس حمل أخرى ، ثم إلى الحضور في قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

أما الغيبة فعلى الأصل ، وأمّا انتقالها إلى المفردة وتخصيص الخطاب بالنفس ، فلأنها محل الأوزار ومبعث الخطايا وهي الأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي ، وأما الانصراف إلى التكلم والحضور ، فلبيان الحاكمية والعدالة ، على وجه التعظيم والحضور ، وعدم ترك الإنسان ضالا حائرا في غياهب الظلمات ، فجسور الاتصال مفتوحة بين عالم الغيب والشهادة بواسطة الرسل والأنبياء والأوصياء والأولياء ، فضلا عن الرسول الداخلي لدى الإنسان وهو العقل السليم .

ومن صور الالتفات المثيرة للانتباه هذه السلسلة من التوصيات والتعليمات العقائدية والاجتماعية التي جاءت على شكل خطابات متنوعة بين الإفراد والجمع ، وهي تستغرق الآيات (٢٢ – ٣٩) ، والتي تبدأ بقوله تعالى ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ [٢] ، وتنتهي بقوله تعالى ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ [٣] ، فهذه السلسلة تبدأ وتنتهي بموضوع واحد وهو النهي عن الشرك بالله سبحانه ، وفيما بين البدء والختام ، مجموعة من النواهي الاجتماعية والأخلاقية ، وكأن ذلك إشارة إلى أنّ الشرك بالله يشكل جذر كل مشكلة اجتماعية أو نفسية أو أخلاقية ، ولكن اللافت هنا هو تنوع الخطاب وتنقله من المفرد إلى الجمع وبالعكس في سلسلة من الآيات المتتالية ، فتبدأ بخطاب ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر ... ﴾ ثم ينتقل الخطاب إلى الجمع ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [٤] ، ثم يلتفت إلى الإفراد في قوله تعالى ﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ [٥] ، ويستمر الخطاب بالمفرد ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ [٦] .

وكذلك ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ..... ﴾ [٧] ، ثم يلتفتُ بالخطاب إلى الجمع ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ... ﴾ [٨] ، ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ ، ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [٩] ، ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [١٠] ، ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

٧- سورة الإسراء : ١٥
١- سورة الإسراء :٢٢ .
٢- سورة الإسراء :٣٩ .
٣- سورة الإسراء : ٧ .
٤- سورة الإسراء : ٢٣ .
٥- سورة الإسراء : ٢٦ .
١- سورة الإسراء : ٢٩ .
٢- سورة الإسراء : ٣١ .
٣- سورة الإسراء : ٣٣ .
٤- سورة الإسراء : ٣٤ .

الْمُسْتَقِيمِ﴾ [١] ، ثم يلتفت إلى المفرد ثانية : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [٢] ، ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً ﴾ [٣] ، ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ...... ﴾ [٤] .

وهذا مسلك شريف ودقيق في التعبير عن المعاني والتمييز بينها بتأدية الخطاب ، فنلاحظ أنه عندما يتعلق الخطاب بأمر عقائدي أو أخلاقي يكون الإنسان هو المسؤول الأول عن إيجاده والإيمان به ، ولا علاقة بالمجموع في تحصيله يكون الخطاب للمفرد ، للإيحاء بهذه المسؤولية الملقاة على الشخص نفسه لا غيره ، كما رأينا في مسالة الاعتقاد بالتوحيد وعدم اتخاذ الشريك ، وكذلك في علاقة الإنسان مع والديه وأقاربه فإنها مسألة شخصية يكون الإنسان مسؤولا عنها وحده ، وكذلك الأمر في المسائل الأخلاقية الأخرى ، كالتواضع في المشي وعدم التكبر والغرور ، وعدم اقتفاء الظنون والأهواء ، كلها مسائل شخصية عبر عنها القرآن بالخطاب المفرد .

أما في المسائل الاجتماعية التي يكون ضررها عاما ويكون المجتمع هو المسؤول عن تحصيلها كظاهرة عامة ، كقتل الأولاد ، والنفس المحترمة ، والتطفيف في الميزان وغير ذلك ، فيكون الخطاب فيها عاما وموجها للجميع ، ولعل هذا سر التنوع في الخطابات المتقدمة ، والله العالم .

ومن صور الالتفات الأخرى في السورة ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [٥] ، فانتقل السياق من مخاطبة الشيطان إلى مخاطبة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفيه مؤانسة للإنسان والتكفل بحمايته وإرشاده إلى أنّ سرّ الانتصار على الشيطان هو حسن التوكل على الله تعالى .

ومن لطائفه أيضا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾[٦] ، فإن الانتقال من الحضور في الإنعام إلى الغيبة في الشر تنزيه لله سبحانه عن نسبة الشر إليه ، تعالى عن ذلك .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[٧] ، فالسياق هو مخاطبة بني إسرائيل وتحذيرهم من العود إلى الإفساد في الأرض ، ثم يلتفت إلى الغيبة ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ ولم يقل (لكم) ، وذلك لبيان مصيرهم وعدم تخصيصهم بالخطاب ، ليشمل غيرهم ، أيضاً ، ممّن يتخطى السنن الإلهية التي لا تتبدل ولا تتحول.

---

٥ – سورة الإسراء : ٣٥ .
٦– سورة الإسراء : ٣٦ .
٧ – سورة الإسراء : ٣٧ .
٨ – سورة الإسراء : ٣٩ .
١ – سورة الإسراء : ٦٥ .
٢– سورة الإسراء : ٨٣ .
٣– سورة الإسراء : ٨ .

ثالثا : التقديم والتأخير :

التقديم والتأخير من أجمل الأساليب البيانية في القرآن الكريم ، وهو أحد الوسائل الهامة التي ارتكز عليها الأسلوب القرآني لإفادة المعاني الثانية من خلال التركيب المتقن ، ولعله من أكثر الأساليب شيوعا فيه ، وذلك لما له من أثر في أداء المعاني اللطيفة وتحسين الأسلوب وتقويته .

يقول عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، الذي كان مأخوذا بهذا الفن : ((هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعه ، ويفضي بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعرا يروقك سمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك أنْ قـُدّم فيه شيء وحُوّل اللفظ من مكان إلى مكان))(1) .

وقد عرف هذا الفن علماء العربية الأوائل وأشاروا إليه وكان سيبويه صاحب الريادة في الوقوف على هذا الباب ، فقد ذكر أنّ التقديم والتأخير لضرب من العناية والاهتمام (2) ، أما الريادة في تأصيله وتفصيله فيسجل للشيخ عبد القاهر الجرجاني (3) ، حيث ميّز بين وجهين للتأخير والتقديم : ((تقديم يقال إنه على نية التأخير ، وذلك في كل شيء أقررته، مع التقديم، على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه ، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ والمفعول إذا قدمته على الفاعل ... وتقديم لا على نية التأخير ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم ، وتجعله باباً غير بابه ، وإعرابا غير إعرابه ، وذلك أنْ تجيء إلى اسمين يحتمل كل منهما أنْ يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له ، فتقدم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا)) (4) . ويلقي عبد القاهر اللوم على من سبقه للتفريط في فهم الأهمية الكبيرة

١- دلائل الإعجاز : ١٣٧ .
٢- ينظر : الكتاب: ١ / ٥٥ .
٣- لمعرفة المزيد من التسلسل التاريخي لهذا الفن ينظر : التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ١٢ وما بعدها .
٤- دلائل الإعجاز : ١٣٧ .

لهذا الأسلوب حين حصروا فائدته والغاية منه بالعناية والاهتمام ، في حين يرى عبد القاهر أنّ لأسلوب التقديم والتأخير معانٍ ثانية تتجدد وتتحدد مع كل سياق يرد فيه ، فهو يدعو إلى تفصيل ما أجمله الآخرون وجمدوا عليه ، فيقول في هذا الصدد ((واعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام ، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم ، وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم)) [١] ، ويضيف مستنكرا ((وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أنْ يقال أنه قُدّم للعناية ولأن ذكره أهم ، من غير أنْ يذكر من أين كانت تلك العناية ولِمَ كان أهم ، ولتخيلهم ذلك قد صغُر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهونوا الخطب فيه ، وكذلك صنعوا في سائر الأبواب فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار والإظهار والإضمار والفصل والوصل ، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه إلاّ نظرَك فيما غيره أهم لك بل فيما إن لم تعلمه لم يضرك ، لا جرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ، ومنعهم من أن يعرفوا مقاديرها))[٢] .

والتقديم والتأخير يكسب الكلام جمالا وتأثيرا : لأنه سبيل إلى نقل الألفاظ إلى المخاطبين كما هي مرتبة في ذهن المتكلم حسب أهميتها عنده ، فيكون النقل صادقا ومطابقا لإحساسه ومشاعره[٣] .

وقد اختلفوا في عده من المجاز ، لأن تقديم ما رتبته التأخير ، كالمفعول، وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل ، نقل كل واحد منهما عن رتبته وحقه ، وقال الزركشي : ((والصحيح أنه ليس منه، فإن المجاز نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع)) [٤] .

وللتقديم والتأخير أسباب ودواعٍ كثيرة ، أو قل : إن وراءه معاني ومقتضيات يتفنن المتكلم بإبرازها بهذا الأسلوب المحكم ، وقد ذكر البلاغيون من هذه الأسباب والدواعي شيئا كثيرا [٥].

وقد ورد هذا الأسلوب في سورة الإسراء ، وسوف نركز الاهتمام في الحديث عن معانيه الثانية المستفادة من خلال اختيار بعض النماذج التي تساعد في هذا الغرض .

ولنبدأ من قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [٦] ، حيث تقدم ضمير الغائب على المخاطب في قوله ﴿ نرزقهم وإياكم ﴾ ، أي : رزق الأولاد على رزق الآباء ، وحقيقة الأمر أننا لا نتفطن لأثر هذا التقديم والتأخير إلاّ عند المقارنة ، بنظير الآية من سورة الإنعام وهي قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [٧] ، حيث تبدل الأمر ها هنا تماما فقدم رزق الآباء على رزق الأولاد ، عند ذاك نفزع إلى سياق كل من الآيتين لنتبين السر في

٥- دلائل الإعجاز : ١٣٨ .
١- المصدر نفسه : ١٣٩ .
٢- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي :٣ / ٢٣٣ .
٣- ينظر : المصدر نفسه .
٤- ينظر : المعاني في أساليب القرآن : ٩٦ ، وجواهر البلاغة : ١١٦ -١٢٩ .
٥- سورة الإسراء : ٣١ .
٦- سورة الإنعام : ١٥١

اختلاف الاستعمال لهذه المفردات والتصرف في ترتيبها ، فنجد ما يدلنا على ما تطمئن النفس إليه ، وهو إنّنا نجد في النص الأول عبارة ﴿ خشية إملاق ﴾ ، وفي الثاني ﴿ من إملاق ﴾ ، وهما السبب في بعث الآباء على قتل أولادهم ، والخشية تعني توقع الفقر والخوف منه بسبب الأولاد وعيلتهم ، فلذلك قدم رزقهم ليطمئن آباؤهم . أمّا قوله ﴿ من إملاق﴾ فذلك هو الفقر الناجز والمتحقق ، فالآباء فقراء أصلا ، فقدم رزقهم لأنه أساس المشكلة ، مع ضمان رزق أولادهم معهم ، فالآية في سورة الإسراء تريد أن تقول : أيها الآباء لا تقتلوا أولادكم لأن كثرتهم ليست سببا في إفقاركم ، وأما في الثانية فتقول : أيها الآباء لا تقتلوا أولادكم لأنكم فقراء فإن رزقهم ليس بأيديكم وإنما الرازق الله سبحانه .

والمعروف أنّ التقديم والتأخير له أنماط متعددة ، منها ما يتصل بتقديم المعاني والمفاهيم بعضها على الآخر ، ومنها ما يتصل بالتركيب والنظم ، والنوع الأول شائع أيضا في هذه السورة كما في غيرها مما هو متداول في الاستعمال ، كتقديم الدنيا على الآخرة ، وتقديم السمع على البصر ، والهداية على الضلال ، والإحسان على الإساءة ، والبشارة على الإنذار ، وغير ذلك مما هو مطرد في الكلام ، ومثاله قوله تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [2] وكذلك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [3] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ [4] ، حيث قدمت الأموال على البنين ؛ وذلك لأهميته في النصر والغلبة ، لأنه أساس العدة وقوة السلاح ونوعيته ، كما نلاحظ اليوم مصداق الآية بـ (إسرائيل) القوية بأموالها وسلاحها ، وضعف الأمة الإسلامية على كثرة أبنائها بسبب قلة عدتها ، وضياع أموالها المنهوبة .

ويصنف بعض الباحثين التقديم والتأخير إلى قسمين [5] :

الأول : تقديم اللفظ على عامله ، نحو قوله تعالى : ((إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين))[6] ، و ((وربّكَ فكبّرْ)) [7] .

الثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل وذلك نحو قوله تعالى : (وما أهلّ بهِ لغير الله) [8] ، وقوله تعالى : (وما أ هلّ لغير الله به) [9] .

١- سورة الإسراء : ٧
٢- سورة الإسراء : ٣٦ .
٣- سورة الإسراء : ١٠٥ .
٤- سورة الإسراء : ٦ .
٥- ينظر : أسرار البيان في التعبير القرآني ، محاضرة ألقاها د. فاضل السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢ م .
٦- سورة الفاتحة : ٥ .
٧ – سورة المدثر : ٣ .
١- سورة البقرة : ١٧٣ .
٢ – سورة المائدة : ٣ .

ولسنا في هذه الدراسة بصدد التنظير لهذا الفن والحديث عن أقسامه ورصدها في السورة ، وإنما غايتنا ، كما قلنا ، هو تتبع الأنماط التي توفر لنا معان ثانية هامّة داخل النص ، وهي كثيرة في هذه السورة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ (١) فقدم الإنكار بواسطة الهمزة على الفعل ، ولم يُسلط على الاسم ، وذلك ليشعر أنّ الفعل لم يحصل من أصله ، أي: أنّ هذا الإصفاء لم يكن أصلا ، لا من الله سبحانه ، ولا من غيره ، وفي هذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم(٢) .

ولو قُدّم الاسم وكان التعبير (أفربكم أصفاكم بالبنين) ، صار الإنكار في الفاعل ، أي: أنّ أصل الإصفاء موجود وحاصل ولكنه ليس من الله ، وهذا غير مطلوب ومراد حسب ظاهر الآية.

ومثله قوله تعالى : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ . في حين نجد المعنى مختلفا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ (٣) ، فقد تقدم الاسم على الفعل ، لأن كلمة (لو) من شأنها أن تختص بالفعل ، لأنها تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره كحال بقية أدوات الشرط الأخرى ، والاسم يدل على الذوات والفعل يدل على الآثار والأحوال ، والمنتفي هو الأحوال والآثار ، لا الذوات ، فيثبت أنها مختصة بالأفعال(٤) ، ولكن هنا قدم الاسم للدلالة على أنهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل ، وهذه مبالغة في وصفهم بهذا الأمر (٥) .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (٦) ، أربعة مواضع للتقديم والتأخير ، الأول : قوله تعالى ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ ، إذا كان الجار والمجرور متعلقا بالمصدر – وقد منعه الزمخشري ؛ لأن صلته لا تتقدم عليه وهو عنده متعلق بالفعل المقدر أي: وبأن تحسنوا بالوالدين إحسانا – ومذهب كثير من النحاة تقديم معمول المصدر عليه إذا كان ظرفا مطلقا (٧) . وعلى كل حال لم يقل النص : ((وإحسانا بالوالدين)، بل قال (وبالوالدين إحسانا) فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام)) (٨) ، والثاني : قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ ﴾ ، حيث قدم الظرف (عندك) على المفعول به (الكبر) وحقه أنْ يتأخر عنه ، وذلك للتشويق إلى ورود المفعول به فإنه مدار تضاعف الرعاية والإحسان(٩) .

٣- الإسراء : ٤٠ .
٤- ينظر: دلائل الإعجاز : ١٤٦ – ١٤٧
٥- سورة الإسراء : ١٠٠ .
٦- ينظر : التفسير الكبير : ٢١ / ٦٣ .
٧- ينظر : المصدر نفسه .
٨- سورة الإسراء : ٢٣
١- ينظر روح المعاني : ٨ / ٥٤ .
٢- التفسير الكبير : ١٨٧ .
٣- ينظر : روح المعاني : ٨ / ٥٤ .

والثالث : قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾ حيث أخر الفاعل (أحدهما) عن الظرف والمفعول به ، لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه[1] . فالتأخير هنا اقتضاه بناء الكلام أسلوبيا ليرتب كلاما آخر عليه ، وبتقدمه سوف يطول به الكلام فيفقد من رونقه .

وأمّا الموضع الرابع فهو من باب الترتيب الدقيق بين المعاني ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ ، فإن لقائل أنْ يقول : إنّ تقديم كلمة (أفّ) وهي كناية عن التضجر ، على كلمة (النّهر) وهو الزجر بإغلاظ كما يقول الراغب الأصفهاني [2] ، عبث لا طائل من ورائه ، وهو تحصيل حاصل ، لأن المنع من التأفف ، يدل على المنع من الانتهار بقياس الأولوية ، أما لو فرضنا أنه قدم المنع من الانتهار ثم أتبع بالمنع من التأفف كان مفيدا حسنا ، لأنه لا يلزم المنع من الانتهار المنع من التأفف . والجواب على ذلك نقول : إنّ المراد من كلمة (أف) هو المنع من إظهار الضجر قليلا كان أو كثيرا ، وأما (النهر) ، فهو المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، فجاء هذا الترتيب فتأمل [3] .

ومن المواضع الأخرى ، قوله تعالى، وهو من مواضع تقديم المعاني على بعضها الأخر : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[4] ، فالترتيب هنا بين موارد تكريم الإنسان ، يمكن أنْ يكون لأجل أن الاستفادة من الطيبات وأنواع الأرزاق لا يمكن أنْ تتم بدون حركة في البر والبحر ، وهما مساحة عمل الإنسان وتجارته ، حيث إن حركة الإنسان على الكرة الأرضية يحتاج إلى وسائل نقل ، وهي مقدمة لأي بركة من بركات هذه الأرض [5] .

ومن الموارد الأخرى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ [6] فتقديم الجار والمجرور (من الليل) على الفعل (فتهجد) يدل على العناية والاهتمام بصلاة الليل التي هي من مختصات الرسول(صلى الله عليه وآله) ، وهي من المستحبات الأكيدة للأمّة ، وقد شكل تقديم الظرف والجار والمجرور على متعلقه ظاهرة أسلوبية متميزة في القرآن الكريم ، وكذلك في هذه السورة ، ويبدو أن لهذا النوع من التقديم فائدتين هامتين :

الأولى : وهي الأهم : تسليط الضوء والاهتمام والإبراز والاختصاص على هذا المعنى الذي يحمله المقطع المتقدم .

٤- ينظر : المصدر نفسه .
٥- ينظر : المفردات : ٥٠٧ .
٦- ينظر : التفسير الكبير : ٢٠ / ١٩٠ ، وروح المعاني : ٨ /٥٥ .
١- سورة الإسراء : ٧٠ .
٢- ينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٩ / ٤٣ .
٣- سورة الإسراء :٧٩ .

الثانية : هي قوة السبك التي يمنحها التقديم والتأخير في التركيب مع إكسابه لونا من ألوان الموسيقى الداخلية والموازنة في النص ، وأمثلته في السورة كثيرة ، منها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (١)

﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾ (٢)

﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ (٣)

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ (٤)

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ (٥)

﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (٦)

﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ (٧)

﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ (٨)

وأخيراً فإن هناك أسلوبا للتقديم والتأخير ورد في هذه السورة ، وهو يرد في مواضع مختلفة من القرآن الكريم ، وهذا الأسلوب هو مجيء الفاعل مصدرا مؤولاً من بعد استثناء منفي ، متأخرا عن المفعول المتقدم ، وهو ما يسمى بأسلوب القصر ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾(٩) وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ (١٠) .

فالسبب في عدم إرسال الآيات والمعجزات هو تكذيب الأولين بها وكذلك السبب في عدم إيمان الناس هو قولهم هذا ، إلا أنّ التعبير بالقصر قد لا يكون دليلا على الحصر ، بمعنى أن يكون هو العلة التامة ، بل هو للتأكيد وبيان الأهمية في أقوى المصاديق وأوضحها .

٤- سورة الإسراء : ٦٥
٥- سورة الإسراء : ٨٠ .
٦- سورة الإسراء : ٨٧ .
٧- سورة الإسراء : ٥٣ .
١- سورة الإسراء : ٨ .
٢- سورة الإسراء : ١٤ .
٣- سورة الإسراء : ٢٥ .
٤- سورة الإسراء : ٣٣ .
٥- سورة الإسراء : ٥٩ .
٦- سورة الإسراء : ٩٤ .

رابعا : الفصل والوصل :

وهذا فن آخر من فنون القول ، قال عنه علماء البلاغة : إنه دقيق المسلك ، جم الفائدة ، خفي الدلالة ، ولذلك قد جعل قديما حدا للبلاغة عندما ((قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الوصل من الفصل)) [١] ، ((فهو العلم بمواقع الجمل والوقوف على ما ينبغي أن يصنع فيها من العطف ، والاستئناف ، والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها ، أو تركها عند عدم الحاجة إليها)) [٢] .

والوصل _بتعبير أولي_ هو عطف جملة على أخرى بالواو ، والفصل ترك ذلك العطف بين الجملتين والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة من بعد الأخرى [٣] ، وهو شائع في عرف الخطاب ، ولا يحتاج إلى مزيد عناية وكلفة ، لأنه مما يقتضيه نظام الكلام ، ولكنه في النصوص العالية يصار إلى الاختيار الدقيق ، والاستعمال الأمثل لهما بطريقة فنية ، موحية لكثير من المعاني الثانية ، أو لاجتناب اللبس مع معان أخرى ، ولذلك يقول عنه الشيخ عبد القاهر : ((اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه ، إلاّ الأعراب الخلّص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد)) [٤] ، ثم يبين بعد ذلك ميزته ودقته وخفاءه وبيان أصله قائلا : ((ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه إنه خفي وغامض ودقيق وصعب إلاّ وعلم هذا الباب أغمض وأدق وأخفى وأصعب ، وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف : إنّ الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله ، وتطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك ، ولقد غفلوا غفلة شديدة)) [٥] .

١- البيان والتبيين : ١ / ٦٨ .
٢- جواهر البلاغة : ١٧٠ .
٣- ينظر : المصدر نفسه : ١٧٠ ، والبلاغة والتطبيق : ١٥٢ .
٤- دلائل الإعجاز : ٢٣٠ .
٥- المصدر نفسه : ٢٣٧ .

ولهذا التنوع الأسلوبي : الفصل والوصل ، فوائد وغايات يمكن الإحساس بها وإدراكها ، منها : الإيضاح وإيجاز المعنى ،وذلك من خلال تقطيع الموضوع الواحد إلى أجزاء موصولة وعرضه بأشكال متعددة ، مع الحفاظ على تناسب المعنى الدلالي مع الإيقاع الصوتي[١] .

وبلاغة الوصل لا تتحقق إلاّ بالواو العاطفة فقط دون بقية حروف العطف ، لأن الواو هي الأداة التي تخفى الحاجة إليها ، ويحتاج العطف بها إلى لطف في الفهم ودقة في الإدراك ، إذ لا تفيد إلاّ مجرد الربط وتشريك ما بعدها لما قبلها في الحكم ، دون غيرها من حروف العطف ، لأنها تفيد مع الإشراك معاني أخرى [٢] .

و قد حدد علماء البلاغة مواضع كل من الفصل والوصل فقالوا [٣] : إنه يجب الوصل في ثلاثة مواضع هي : -

١- إذا اتحدت الجملتان في الخبرية والإنشائية ، لفظا ومعنى أو معنى فقط .

٢- دفع توهم غير المراد وذلك بأن يكون بين الجملتين (كمال الانقطاع) ، مع الإيهام ، وذلك بأن تكون احدهما خبرية والأخرى إنشائية ، وكان الفصل يوهم خلاف المقصود ، ومنه قول البلغاء : لا ، وحفظك الله ، لا ، وأيدك الله .

٣- أنْ يكون للجملة الأولى محل من الإعراب وقصد إشراك الجملة الثانية لها في الحكم الإعرابي مع وجود المناسبة بين الجملتين .

ولابد في مواضع الوصل هذه من اتفاق الجملتين في أمر جامع ، مشترك بينهما ، سواء أ كان عقليا أم وهميا أو خياليا .

أما مواضع الفصل فخمسة وهي : -

١- أنْ يكون بين الجملتين اتحاد تام وهو ما يسمى بـ (كمال الاتصال)، بحيث تنزل الثانية منزلة الأولى ، وذلك بان تكون الثانية ، بدلا أو بيانا أو مؤكدة للأولى توكيدا لفظيا أو معنويا .

٢- أنْ يكون بين الجملتين انقطاع تام وهو ما يسمى بـ (كمال الانقطاع)، وذلك بأن يختلفا خبرا وإنشاء ، أو أنْ لا يكون بين الجملتين مناسبة في المعنى ولا ارتباط ، بل تكون كل جملة مستقلة بنفسها .

٣- أنْ يكون بينهما رابطة قوية لوقوع الثانية جوابا عن سؤال يفهم من الأولى ، وهو ما يسمى بـ (شبه كمال الاتصال) أو الاستئناف .

٦– ينظر : **الفصل والوصل في القرآن الكريم** : ١٩٣ .
١– ينظر : **دلائل الإعجاز** : ٢٣١ .
٢– ينظر : **الإيضاح** : ٨٦ وما بعدها .

٤- أنْ تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى وهو ما يسمى بـ (شبه كمال الانقطاع) ، وهو أنْ تسبق جملة يصح عطفها على الأولى لوجود مناسبة ولكن في عطفها على الثانية فساد في المعنى ، فيترك العطف ، دفعا لتوهم أنه معطوف على الثانية ، ومنه قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها   بدلا أراها في الضلال تهيمُ [١]

٥- وهو كون الجملتين متناسبتين وبينهما رابطة قوية ، ولكن يمنع من العطف مانع هو عدم التشريك في الحكم وهو ما يسمى بـ (التوسط بين الكمالين) كأن يكون للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۞اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [٢] .

أما الجملة الحالية فقد تقترن بالواو وقد لا تقترن في حالات معينة ، فأشبهت بذلك الفصل والوصل فهي داخلة فيه أيضا [٣] .

ونحن في هذه الدراسة نسعى إلى تجلية المعاني الثانية التي يمكن أن يكون الفصل والوصل إحدى أدواته الهامة في هذا النص الكريم ، وأهم ملاحظة نسجلها هنا في السورة هي توظيف النص لدلالة حرف العطف (الواو) ، وهي الجمع بين الجمل المتغايرة التي تتوفر فيها أمور مشتركة بجامع قريب أو بعيد توظيفا متميزا ، حيث حشد النص مجموعة من الجمل المختلفة ذات المعاني المستقلة بنحو من الاستقلال في الآية الواحدة المرتبطة فيما بينها بجامع مشترك؛ لتؤلف بمجموعها موضوعا مستقلا ، ففي قوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [٤] ، يوجد لدينا أربع جمل خبرية معطوف بعضها على بعض على الرغم من أنّ لكل واحدة منها معنى مستقلا ، فالأولى تبين ثمرة الهداية ، والثانية موضوعها الإنسان الضال ، والثالثة تبيّن أنّ النفس لا تحمل خطيئة غيرها ، والرابعة تشير أنّ لا عقاب بلا بيان . ولكنها جميعا تشترك بوحدة الجامع وهو المخبر عنه (الإنسان) في الجمل الأربعة أو النفس كما في الجملة الثانية وهي تعبير عن الإنسان أيضا باعتبار جزئه الأهم في هذا المقام . فالجمل الأربعة تشترك في بيان تكليف الإنسان وعاقبته والقانون الإلهي بين الإنسان وخالقه ، وهي سنن ثابتة لا تتغير ، ولذلك أمكن عطف بعضها على الآخر لتؤلف ذلك النسيج المتماسك على الرغم من تنوع مفردات معانيها .

١- البيت في مفتاح العلوم : ٣٧٠ ، ولم ينسبه لقائل .
٢- سورة البقرة : ١٤ -١٥ .
٣- ينظر : جواهر البلاغة : ١٨٢ .
٤- سورة الإسراء: ١٥

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ (1) ، وفيه ثلاث جمل متفقة في الخبرية وهي متغايرة في المعنى ، لأن الأولى تتحدث عن السبب في عدم إرسال الآيات ، والثانية تتحدث عن ناقة صالح (عليه السلام) وعقرها من قبل قومه (ثمود) ، والثالثة ، تتحدث عن الغاية من إرسال الآيات ، ولكن كل هذه الجمل المتغايرة في المعاني التفصيلية تجتمع برباط ، وهو أولاً : وحدة المخبر وهو الله سبحانه وتعالى في الجمل الثلاث المعبر عنه بالضمير (نا) ، وثانيا: وحدة الموضوع وهو السر في عدم إنزال المعجزات المقترحة على هذه الأمة ، لأنها سبب هلاكهم كما هلكت ثمود بعقرها ناقة صالح (عليه السلام) ، فنلاحظ أنّ المسوغ لعطف الجملة الثانية وهي ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ على الجملة الأولى كونـُها إحدى المصاديق الهامة لتكذيب تلك الآيات والمعجزات ، وكذلك الجملة الثالثة على الجملة الثانية ، لأنها تبين أنّ الغاية من إرسال الآيات هو التخويف وهو غير حاصل عند الإنسان فحصل المنع من إرسالها ، فالجملة ترتبط بما قبلها لأنها تمثل إحدى المقدمات التي تؤدي إلى المنع من إرسال الآيات .

ومثلها في طبيعة المغايرة والاشتراك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ (2) ، وكذلك قوله تعالى ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (3) .

فهذا توظيف للوصل أيضا في إبراز معنى ثان داخل النص ، وذلك من خلال عطف الجملتين المتفقتين بالإنشاء ، والمختلفتين في المعنى ، فإن الأولى تنهى عن الشريك ، والأخرى تأمر بالإحسان للوالدين ، ولكن الجامع المشترك هو أن كليهما متعلقان بقضاء الله وأمره ، وهذا يكشف عن مدى محبوبية كل من الأمرين لله سبحانه وتقاربهما في تلك المحبوبية والأهمية ، وأن الإحسان لهما وإرضاءهما يأتيان بدرجة قريبة من رضا الله سبحانه وطاعته .

أما الفصل فكان أداة فاعلة للتعبير وتغيير الخطاب في السورة وكان له أثر واضح فيها ، وقد أحصينا في السورة صورتين هامتين من صوره ، الأولى : وهي عندما يراد إلى الشرح والتفصيل والاسترسال في الكلام ، وذلك عندما تكون الجمل بيانا لبعضها الآخر ، كقوله تعالى ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورا﴾ (4) .

فهذه ثلاث جمل متتابعة مفصول بعضها عن بعض ولكنها مرتبطة برباط المعنى ، وهو أن الجملة الثانية هي بيان لكيفية استماع المشركين للقرآن عندما يتلوه الرسول(صلى الله عليه وآله) ، والجملة

١- سورة الإسراء : ٥٩ .
٢- سورة الإسراء : ٥٥
٣- سورة الإسراء : ٢٣ .
١- سورة الإسراء : ٤٧

الثالثة هي بدل عن الجملة الثانية ، لأنها تبين ما اشتملت عليه نجوى هؤلاء عند الاستماع إلى القرآن؛ فهذه هي الصورة الأولى للفصل عندما يراد إلى تطويل الكلام وإخراجه من الإجمال إلى التفصيل .

وأمّا الصورة الأخرى وهي الغالبة والطاغية في النص ، فهي ما يسمى بـ (شبه كمال الاتصال) أو ألاستئناف ، الذي يعتمد على الإجابة عن سؤال مقدر من المخاطب ، أو إنزاله منزلة السائل لما يحويه مضمون الجملة السابقة من غرابة ، أو أهمية ، أو تشديد في الطلب أو غير ذلك .

وهذه الصورة أيضا أداة من أدوات تطويل الكلام مع المخاطب واقتناص كل فرصة للحديث بتفصيل وإضافة ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾

فالجملة الثانية من الآية الكريمة مستأنفة ، وهي عبارة عن تعليل للجملة الأولى ، لما تحمله من غموض في كيفية البسط والتقدير للأرزاق ، فيكون الجواب : إنه بحسب علم الله تعالى ، لأنه الخبير البصير بعباده وما يتلاءم مع مصالحهم .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾ [(١)] .

وفيها ثلاث جمل مفصول بعضها عن الآخر وترتبط بأنها جواب عن سؤال مكنون ، فهذه الآية تشدد في الأعذار والأسباب التي من أجلها يجب أنْ يقلع الناس عن قتل أولادهم خوف الفقر ، وكأن بعض الناس وجدوا لأنفسهم عذرا مناسبا ومبررا لقتل أولادهم الصغار أو الأجنة ، وهو خوفهم من الفقر إذا كثر نسلهم ، فتتصدى الآية الكريمة لتبديد هذه الأعذار الواهية ، وكأنها تجيب عن تساؤلين :

الأول : من يرزقهم إذن ؟ الجواب نحن نرزقهم .

الثاني : وهل هناك ضير في قتل الصغار من أجل تحقيق التوازن الاقتصادي في الأسرة والمجتمع ؟ الجواب إنه كان خطأ كبيرا . بينما لا نجد في قوله تعالى :

﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [(٢)]

مثل هذا التعليل للحكم ، وذلك لأنه لا أحد من البشر من يلتمس العذر في قتل الآخرين وتبرير ذلك إلاّ على وجه التعدي والظلم ، والنهي هنا واقع على هذا الوجه .

وعندما ينتقل النص إلى مفردات أخرى نجد أنه يعمد إلى تقوية الأحكام وتبريرها وشرحها وتفصيل أسبابها الموجبة ، وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة المقدرة في أذهان المخاطبين ، كقوله تعالى :

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [(١)] .

٢- سورة الإسراء : ٣١ .
١- سورة الإسراء : ٣٣ .

فنلاحظ أنّ التعليل في الجملة الثانية المستأنفة ، وهو عبارة عن جواب لسؤال مقدر لمن يتساهل في هذا الأمر ويعده أمرا طبيعيا ، لا موجب لإنكاره .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾(٢).

فواضح جدا أن التعليل في الجملة الثانية بكون الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وعقله أمام الله تعالى يوم الحساب ، يبعث على التبصر والتوقف عن اتباع أهل الهوى والظنون الزائفة . ومثله في التعليل قوله تعالى :

﴿وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (٣).

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ (٤) ، ففي هذه الآية ثلاث جمل مفصول بعضها عن الآخر ، على طريقة الاستئناف ، والاتصال بينها هو رباط معنوي ، لأن الجملة الثانية هي جواب عن سؤال مقدّر وتعليل لمضمون الجملة الأولى ، وكأن الإنسان يسأل عن الغاية من القول الحسن وملازمته ؟

والجواب : إنّ الشيطان يستغل الفرص لغواية الإنسان عن طريق أقواله وأفعاله الشائنة ، ويثير من خلالها العداوة والبغضاء بين الناس . والجملة الثالثة هي عبارة عن جواب آخر مكنون أو مفترض وهو : ولماذا يتدخل الشيطان وينزغ بالعداوة بين الناس ؟ فيكون الجواب : إنه عدو للإنسان والعدو يتربص دائما بعدوه ويتتبع سقطاته وعوراته .

ومثال آخر لبلاغة الفصل في قوله تعالى :

﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ (٥) .

فقد جاءت العبارة الأخيرة منفصلة ومستأنفة ، لأنها تعليل لتميّز صلاة الفجر عن غيرها ، وقد هيّأ لذلك التعليل إفراغها عن السياق الذي وردت فيه فنصبت على الاختصاص أو المدح ، وعُبّر عنها بالقراءة ، بينما عبّر عن الأخريات بالإقامة ، وهذا التميز والتفرد والخصوصية هو المبرر لمجيء هذا التعليل الذي يصفها بأنها مشهودة .

٢- سورة الإسراء : ٣٢
٣- سورة الإسراء : ٣٦ .
١- سورة الإسراء : ٣٧ .
٢- سورة الإسراء : ٥٣ .
٣- سورة الإسراء : ٧٨ .

إنّ هذا الرباط الخفي الذي توفره بلاغة الفصل بين الجمل المتغايرة قد يكون أكثر تأثيرا وأبعث على استئناس النفس بهذا الأسلوب ؛ لأنه يثير الخطاب والحديث الخفي مع ذات الإنسان وتصوراته الباطنة ، والله العالم .

خامسا : الإطلاق والتقييد :

الإطلاق والتقييد أمران متقابلان ، وهما وصفان للحكم ، فالإطلاق أنْ يقتصر في الجملة على ذكر المسند والمسند إليه ، حيث لا غرض يدعو إلى حصر الحكم ضمن نطاق معين بوجه من الوجوه ، والتقييد أن يزاد على المسند والمسند إليه شيء يتعلق بهما أو بأحدهما بحيث لو أغفل لفاتت الفائدة المقصودة أو كان الحكم كاذبا . (١)

فإذا تصورنا معنى وأخذنا فيه وصفا زائدا أو حالة خاصة ، (كالإنسان العالم) ، كان ذلك تقييدا ، وإذا تصورنا مفهوم الإنسان ولم نضف إليه شيئا من ذلك كان ذلك إطلاقا . (٢)

والمطلق مأخوذ من الإطلاق ، وهو الإرسال والشيوع ، ومن هنا عُرّف المطلق بأنه : (ما دل على معنى شائع في جنسه) ، ولكن لا يختص المطلق بما له معنى شائع في جنسه كاسم الجنس ، وعَلَم الجنس ، والنكرة ، بل يشمل الأعلام الشخصية والمعرف بلام العهد ، وغير ذلك ، ولكن ليس باعتبار معناها ، إذ لا شيوع ولا إرسال فيها ، ولكن بالنظر إلى أحوالها المختلفة ، فإنه لو قيل مثلا: (أكرم محمدا) وعرفنا أن لمحمد أحوالا مختلفة ولم يقيد الحكم بحال من الأحوال نستطيع أن نصف لفظ (محمد) أو هذا الكلام بمجموعه بأنه مطلق بالنظر إلى أحواله ، وإن لم يكن له شيوع باعتبار معناه الموضوع له ، والإطلاق كما يكون في المفردات يكون في الجمل أيضا (٣).

والتقييد يقابل الإطلاق من باب تقابل المَلَكة وعدمها ، كتقابل الأعمى والبصير ، فكما أن العمى هو عدم البصر فيمن شأنه أن يبصر ، فكذلك الإطلاق هو عدم التقييد فيما من شأنه أن يُقيّد(٤) .

١- ينظر : جواهر البلاغة : ١٣١ .
٢- ينظر : دروس في علم الأصول : الحلقة الثالثة : ١ /١١٧ .
٣- ينظر : أصول الفقه : ١٥٠ .
٤- ينظر: المصدر نفسه .

ولا يخفى أن لمعرفة موارد كل من الإطلاق والتقييد أثرهما في فهم الكلام بصورة دقيقة ومحكمة ، ومعرفة مراد المتكلم الحكيم الذي هو في مقام البيان والتفهيم للمخاطبين ، فإذا جاء الكلام مطلقا عِلم المخاطب أنّ المتكلم لا يتعلق غرضه بتقييد الحكم بوجه من الوجوه ، وذلك ليذهب السامع فيه كل مذهب ممكن ، لأنه لو أراد وجها من وجوهه لذكره ، وبما انه لم يذكر قيدا لذلك عرفنا أن المتكلم أراد الإطلاق فتثبت به أحكاما ومفاهيم كثيرة ، وهذه هي بلاغة الإطلاق.

أما لو جاء الكلام مقيدا علمنا أنّ المتكلم قد أراد خصوصية ذلك القيد ، وذلك لمقام الفائدة ، لأن الحكم كلما زاد قيده زاد خصوصية وكلما زاد خصوصية زاد وضوحا .

والتقييد يكون بأدوات مختلفة وهي ((التوابع ، وضمير الفصل ، والنواسخ ، وأدوات الشرط ، والنفي ، والمفاعيل الخمسة ، والحال ، والتمييز)) [١] .

والإطلاق والتقييد كلاهما يسهمان إسهاما فاعلا في النص القرآني لإثارة مزيد من المعاني الثانية بما يساعد في الكشف عن مضامين كثيرة ومقاصد مختلفة للمتكلم من خلال سعة الموضوع عندما يكون مطلقا ، حيث يترك مساحات دلالية واسعة ومتنوعة يستوحيها المتلقي والتي يمكن أنْ نسميها بالدلالات الايجابية للكلام ، وضيقه عندما يكون مقيدا بحيث يؤدي بالمتلقي إلى البحث الدقيق عن الدلالات الضيقة المقصودة في النص وذلك من خلال عملية التقشير والإزالة للدلالات الخارجة عنه ، والتي لا يمكن أنْ تنطبق عليه وصولا إلى المراد والمقصود ، وهي عملية مضنية تحرك المتلقي نحو ما يمكن أنْ نسميه بالدلالات السلبية للنص .

ومن خلال النصوص الواردة في سورة الإسراء ، نستطيع عن طريق هذين الأسلوبين أنْ نستوحي كثيرا من الدلالات والمعاني الثانية الواردة فيها .

فمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [٢] ، نستطيع أنْ نفهم من الإطلاق في كلمة (يهدي) ، سعة وشمولية من يهديهم القرآن الكريم ، وفيما يهديهم ، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود ، أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم . ويشمل ما يهديهم إلى كل طريق حق وكل منهج قويم وكل خير ، يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، يهدي إلى العقيدة الصحيحة وإلى الموازنة بين التكاليف والطاقة ،والنسق بين ظاهر الإنسان وباطنه ويهدي إلى العلاقة بين الناس بطريقها الأقوم [٣] .

وفي قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [٤] .

١- جواهر البلاغة : ١٣٣ .
٢- سورة الإسراء : ٩ .
٣- ينظر : في ظلال القرآن : ١٦ -١٧ ، وروح المعاني : ٨ / ٢٢ .
٤ – سورة الإسراء : ١٥ .

إطلاق في كلمة (معذبين) ، يتيح لنا أن نسدل الستار على النقاش الدائر بين المفسرين حول نوع العذاب المقصود هنا ، وهل هو نوع من العذاب الذي يقع في الدنيا أو في الآخرة ؟ أو المقصود به هو عذاب الاستئصال ، أي : العقوبات الشاملة المدمرة كطوفان نوح عليه السلام وعذابات قوم عاد وثمود وفرعون ؟ .

ولكن بما أنّ ظاهر الآية يدل على الإطلاق فهو_في نهاية الأمر_ يشمل كل أنواع العذاب ولا يختص بنوع محدد منها .

ومن إطلاق (حتى نبعث رسولا) ، نفهم أنّ الحكم فيها لا يخص المسائل الشرعية التي يعتمد فهمها على الأدلة النقلية فقط ، بل يشمل جميع المسائل العقلية والنقلية في أصول الدين وفروعه ، فإنه ما لم يأتِ الأنبياء والرسل ويؤيدون حكم العقل بحكم النقل فإن الله تبارك وتعالى لا يجازي أحدا بالعذاب ، للطفه ورحمته بالعباد ، ويستثنى من ذلك ، المسائل العقلية البحتة التي يقطع العقل بحسنها وقبحها ، كحسن العدل وقبح الظلم ، فإن العقل بقوة الرسول الداخلي للإنسان[1] .

والأصوليون يستدلون بهذه الآية على قاعدة (البراءة الشرعية) في حالة الشك في التكليف ، وهو ما يسمى عندهم بـ (قبح العقاب بلا بيان) [2] .

ومن الآيات الأخرى موضع الشاهد ، قوله تعالى : -

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [3] .

فإن ظاهر اللفظ (ولا تقتلوا) بالإطلاق ، النهي عن جميع أنواع القتل للأولاد حتى الإسقاط للجنين في مراحله المختلفة – ذكورا وإناثا – مخافة الفقر والفاقة [4]. وكذلك الإطلاق في (أولادكم) ، الذي يشمل كلا من الذكور أو الإناث وهو جنس لهما ، فالآية إذن غير ناظرة فقط إلى العادة الجاهلية في قتل البنات خاصة بسبب العار أو الفقر ، لأن ظاهر الآية يؤكد على العامل الثاني وهو الفقر الذي يشمل الذكور والإناث ، ولأن الأولاد كما ذكرنا جنس لهما ، فإذا أريد افتراقهما وتمييزهما ذكرا باسميهما الخاصين، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً﴾ [5] ، والأمر الآخر الذي يدل على ذلك هو ضمير الجمع المذكر في الآية ﴿ إن قتلهم كان خِطأ كبيرا ﴾ فإنه يستبعد اختصاصه بالبنات وحدهن [6] ، فالآية ، إذن ، تعالج طبيعة سيئة لدى الإنسان وشعورا داخليا باستقلاله في الرزق والخشية من نفاده .

١– ينظر : الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل :٢٨٢ .
٢– ينظر : دروس في علم الأصول : ٢ / ٣٥ .
٣– سورة الإسراء : ٣١ .
٤– ينظر : روح المعاني : ٨ / ٥٦ .
١– سورة الإسراء : ٤٠ .
٢– ينظر : الأمثل : ٣٠٩ .

وكذلك عندما ننظر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ [1] ، نجد أنّ الإطلاق في (أنعمنا) و(الشر) يوحي بأن هذا الإنسان كثير التقلب ، وأنه غير واثق تماما برحمة ربه وخالقه ورازقه ، يتغير ما تغيرت حاله من الرخاء والشدة بأدنى مصاديق الشدة وأدنى مصاديق الرخاء ، فهو يبطر ويعرض بأدنى نعمة ينعمها الله سبحانه عليه ، سواء أكانت مادية أم معنوية ، وكذلك الشر ، فإن قليله وكثيره يسوء هذا الإنسان ويحوله إلى يائس قانط يظن الظنون بربه .

وكذلك الأمر في قوله تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [3] ، فإن الإحسان في الآيتين وكذلك الإساءة غير محدودة بحد أو نوع ، ليشمل جميع أنواع الإحسان والإساءة ودرجاتهما .

أمّا التقييد فقد ورد في السورة بكثرة أيضا ، ونحن نسجل هنا ونتتبع ما فيه خصوصية زائدة ذات أثر في الدلالة على معان هامة في النص ، والتي منها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [4] .

فالآية تفيد البشارة بأمرين مجتمعين لا يمكن الفصل بينهما وهما : الإيمان ، والعمل الصالح ، فالإيمان يجب أنْ يكون مقيدا ومقترنا بعمل الصالحات ، وهذا يعني أنّ الإيمان بالله وحده لا يفي ، ولا يؤدي أثرا إذا لم يكن مقترنا بالآثار التي يبعثها ذلك الأيمان وهي التقوى ، والعمل الصالح ، والاستقامة .

وعلى النقيض من ذلك عدم الإيمان بالآخرة في قوله تعالى وفي سياق البشارة نفسه: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [5] ، فإنه لا حاجة لتقييد عدم الإيمان بالآخرة بعمل السيئات مثلا ، أو بالإعراض عن العمل الصالح ، وذلك لأن نفس الاعتقاد ، وهو عدم الإيمان بالآخرة سبب كاف للانحراف والسقوط إلى مراتب بعيدة عن مرتبة الإنسانية ، ومن ثم استحقاقهم العذاب الأخروي الدائم .

ولننظر كذلك إلى مجموعة القيود في الآية الكريمة :

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾[6] . وهي قيود هامة ودقيقة ينبغي للإنسان متابعتها وملاحظتها في التعامل الحذر والجدي مع قوانين الحياة الدنيا والآخرة

٣- سورة الإسراء : ٨٣ .
٤- سورة الإسراء : ٧ .
٥- سورة الإسراء : ٢٣ .
٦- سورة الإسراء : ٩ .
١- سورة الإسراء : ١٠ .
٢- سورة الإسراء : ١٩ .

بحسب ما سنه الله تعالى من سننه وتشريعاته لهما ، فهناك ثلاثة قيود للفوز بالسعادة في العالم الآخر : الأول : إرادة الآخرة ، والإرادة وحدها لا تفي ولا تروي ظمأ إذا لم يتحرك الإنسان لرفع ذلك الظمأ ،ولذلك هناك قيد ثان : وهو السعي (وسعى لها) بالأعمال المسنونة الموصلة إليها وهو فعل الخيرات ، وأما الثالث فهو قوله: (سعيها) الذي يريده الله سبحانه ، فكم من ساع يعمل الصالحات ويؤدي الخيرات ولكنه قد لا يصل إلى الآخرة ، فالشيطان كان يسعى إلى الآخرة ويعبد الله تعالى ، ولكنه كان يعبد الله من حيث هو يريد لا من حيث يريد الله تبارك وتعالى .

والرابع : (وهو مؤمن) بالعالم الآخر ومؤمن بالعقاب والثواب وأنّ ما يفعله هو لله سبحانه وليس لغيره ، فكم من مصلح في العالم أسدى للبشرية من الخدمات الجليلة التي يتنعم بها الناس جميعا ، ولكنه لم يكن في خلده أبداً أنه يعمل كل هذه الأشياء له سبحانه وطلبا لثوابه ورضاه ، فهو غير مؤمن ومعتقد بثواب عمله في العالم الآخر ، فمثله لا يمكن أنْ يكون مصداقا لمريد الآخرة .

فهذه قيود من كان مريدا للآخرة ، وأمّا ما يتصل في إرادة الدنيا فيقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ [1] ، فالدنيا ليست مفتوحة لكل من يطلبها ويريدها بل هي مقيدة أيضا بقيدين ، أحدهما : (ما نشاء) ، فليس كل شيء يطلبه يتحقق فإنها خاضعة للمشيئة الإلهية .

وثانيهما : هو (لمن نريد) ، فليس كل من يطلب الدنيا يجدها ، فقد يدرك الإنسان طلبته وقد لا يدرك ، وكل ذلك بحسب إرادة الله سبحانه ، وكل ذلك حتى يبقى الإنسان مدركا لقوانين السماء الإلهية ، مفتقرا لعطف الله وكرمه ، شاعرا بفقره وفاقته ، وكل ذلك لطفا بذلك الإنسان الذي يريد أن يستغني بنفسه ، ويتجبر ، ويتكبر ، ويطغى .

ومن هذه القيود أيضا قوله تعالى :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [2]

فجملة (إذا كلتم) قيد للأمر بالكيل ((أي : وقت كيلكم للمشترين، وتقييد الأمر به ، لأن التطفيف يكون هناك ، أي : وقت الكيل للناس ، وأمّا وقت الاكتيال عليهم فلا حاجة إلى الأمر بالتعديل ، قال تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾[3])) [4] .

وقوله تعالى :

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [5]

٣- سورة الإسراء : ١٨ .
١- سورة الإسراء : ٣٥ .
٢- سورة المطففين : ٢ .
٣- روح المعاني : ٨ / ٦٩ - ٧٠ .
٤- سورة الإسراء : ٢٤.

فقيد (من الرحمة) يدل على أنّ التواضع للوالدين والذل لهما منشؤهما الرحمة لهما وليس أمراً آخر فيه مهانة للنفس وتحقير لها بما لا يتناسب مع عزة الإنسان المؤمن ووقار شخصيته .

وكذلك القيد في قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ (١)

وهو كلمة (وحده) فإن له أهمية هنا في دقة التعبير والوصف حيث يشير إلى أنّ هؤلاء القوم لا يرفضون أنْ يذكر الله سبحانه ، وهو الحق الخالص والتوحيد الخالص ، إذا ذكر معه شيء من الباطل والأهواء والشركاء ، ولكنهم يرفضون أنْ يكون الأمر كله لله سبحانه ، وأن يكون الحقُ الخالصُ والشريعةُ الخالصة ، لأنهم قد اعتادوا أنْ يعيشوا حياة فيها من الباطل وفيها من الأهواء ، وهذا هو دأب الناس في كل زمان ومكان ، وهذه هي مشكلة الأنبياء والمصلحين في كل زمان ومكان .

وكذلك لنلاحظ هذا القيد في قوله تعالى :

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ (٢)

وهو قوله (في الملك) والتقييد في عدم وجود الشريك مع أنه لا شريك له مطلقا ، لا في الملك ولا في التدبير ، ولا في الوجود ولا في الإمكان ولا في غير ذلك من أنحاء الشركة ، ناظر إلى أكمل الوجوه المتحققة واقعا ، أو لأن الملك يشملها جميعا .

وكذلك تقييد (ولم يكن له ولي) بـ (من الذل) ، مبين بأن الله سبحانه لم يتخذ وليا لذله ، أو نقص ، أو لسد خله ، وإنما اتخذ الله الأولياء لإيمانهم وصلاحهم وطاعتهم وحبهم لله سبحانه (الله ولي الذين آمنوا) ، لا لطلب العزة والنصرة والقوة ، فإنه القوي العزيز .

ومن هذه القيود ما جاء على لسان المشركين حين طلبوا من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، واقترحوا عليه بعض المطالب التعجيزية في نظرهم ، وهي كاشفة عن مدى جهلهم لمقام النبوة ومهمة الرسول ، وعن تماديهم وسخريتهم واستهزائهم بمقام النبوة الرفيع الشامخ ، ولنتأمل في هذه الآيات والقيود التي وضعت فيها على لسان المشركين :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا

٥- سورة الإسراء : ٤١ .
١- سورة الإسراء : ١١١ .

بَشَراً رَسُولاً ﴾ [1] ، وهذه القيود واضحة بأدنى تأمل ، وغايتها التهكم والتعجيز والإنكار لما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

سادسا :التنكير :

التعريف والتنكير أداتان من أدوات الدلالة على المعاني ، فكلاهما يدل على معين ، إلا أنّ الفرق بينهما ، أنّ النكرة يفهم منها ذات المعين فقط ، ولا يفهم منها كونه معلوما للسامع ، وذلك لأن النكرة بمفردها تدل على الإطلاق ، وأما المعرفة فيفهم منها ذات المعين ويفهم منها كونه معلوما للسامع لدلالة اللفظ على التعيين ، وهذا التعيين في المعرفة أما بنفس اللفظ من غير احتياج إلى قرينة خارجية كما في (العَلم) ، وأما بقرينة تكلم ، أو خطاب ، أو غيبة ، كما في الضمائر ، أو بقرينة إشارة حسية أو بإضافة إلى ما ذكر . [2]

والنكرة لا تعني الإبهام المطلق ، وإنما هي إبهام مقيد ببعض أحوالها وعوارضها ، لأن النكرة تدل دلالة واضحة على ذات الشيء وحقيقته ، والإبهام واقع في تحديد هوية الشيء وصفاته الأخرى المخصصة له .

فالتنكير في الكلام ليس إبهاما وغموضا إذن ، بل قد يكون استعمال النكرة أكثر وضوحا ودقة من المعرفة وإلا لما عُدل إليها ، فالمتكلم قد يحقق من المعاني الكثيرة في استعماله النكرة ، ما لا يستطيع تحقيقه باستعمال المعارف ، لما تتميز به النكرة من مميزات وما تحمله من معان متنوعة بما تدل عليه من إطلاق وشمول تتحدد على وفق السياقات التي ترد فيها ، ولذلك نجد أن استعمال النكرة يحقق كثيراً من المعاني الثانية الخارجة عن دلالات الألفاظ ، فهي ترد لتحقيق أغراض بلاغية ومعان استقصاها علماء البيان وحددوا كثيرا منها [3] .

وفي سورة الإسراء المباركة ما يعزز ذلك ويؤيده ، فقد وردت كثيرٌ من الكلمات المنكرة تأدية لمعان مقصودة بطريقة الإيحاء كقوله تعالى :

٢- سورة الإسراء : ٩٢ -٩٣ .
١- ينظر : جواهر البلاغة : ١٠٥ .
٢- ينظر حالات التنكير : مفتاح العلوم : ٢٨٦ .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ [1] ، فعلى الرغم من أن كلمة (ليلا) جاءت في الآية تأكيدا لمعنى لكمة (أسرى) ، لأن الإسراء لا يكون إلا ليلا ، إلا أنّ لها دلالة أخرى وهي إن سفر الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، قد تم في ليلة واحدة ، فالتنكير هنا يدل على الإفراد [2] .

وقيل أيضا أنّ (ليلا) بلفظ التنكير هنا يراد منه تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسري به (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية [3] .

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ ، أي : نوح عليه السلام ، وتنكير (عبدا) يدل على استغراقه في كمال العبودية لله سبحانه وتعالى ، وليس مثله قوله تعالى : ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا ﴾ فإن تنكير (عبادا) لا يدل على كمالهم ومدحهم ، وإنما قد يكون إشارة إلى نوعيتهم ، أي: نوعاً من العباد الذين يتصفون بالقوة والبطش ، وسيأتي مزيد من الكلام حول هذه الكلمة في البحث الدلالي إن شاء الله.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴾ [4] ، جاء التنكير هنا لـ (أموال وبنين) لإفادة الكثرة إذ إنهما من مواطن الغلبة والنصر .

ومن موارده أيضا قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [5] ، أي : علم كامل ويقين به يستطيع الوصول إلى الحق ، وليس علما ناقصا وظنا لا يؤدي إلا إلى الضلال المبين .

ومنه أيضا قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ﴾[6]. فالتنكير هنا لـ (حجاب) يفيد النوعية ، أي: نوعا من الحجاب المستور غير المرئي .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ [7] .

أما في قوله تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾[8] ، فالتنكير هنا من باب تجاهل العارف فإنهم أشاروا إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بنوعه على الرغم من معرفتهم

٣- سورة الإسراء : ١
٤- ينظر : الأمثل : ٨ / ٢٥٤ .
١- ينظر : الكشاف : ٢ / ٦٢٢ ، والتفسير الكبير : ٢٠ / ١٤٦ .
٢- سورة الإسراء : ٦
٣- سورة الإسراء : ٣٦ .
٤- سورة الإسراء : ٤٥ .
٥- سورة الإسراء : ٢٥ .
٦- سورة الإسراء : ٤٧ .

لشخصه، وذلك تهكما واستهزاءً ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [1] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ [2] ، ((فالتنكير هنا يدل على تعظيم حاله ؛ لأنّ الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه : الكتاب ، فكأن معنى التنكير أنه كامل في كونه كتابا)) [3] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾ ، فقد ذكر كونه مظلوما بصيغة التنكير التي تدل على الكمال ، فالإنسان المقتول ما لم يكن كاملا في المظلومية لم يدخل تحت هذا النص.[4]

وقوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ فإن مجيء (إحسانا) ((بلفظ التنكير للدلالة على التعظيم ، والمعنى : وقضى ربك أنْ تحسنوا إلى الوالدين إحسانا عظيماً)) [5] ، ومثله كذلك في التعظيم المستفاد من التنكير قوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ ، وأمّا التنكير الوارد في سياق الآية الكريمة :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [6] ، فيدل على نفي الجنس وشمول جميع الأفراد بالنفي ، لأنّ النكرة في سياق النفي والنهي تفيد الشمول [7] ، ومثلها ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ [8] ، أما التنكير في قوله تعالى (وكبره تكبيرا) ، فيفيد الكمال من حيث التعظيم والكثرة .

سابعا: الحذف :

الأصل في الكلام أنْ يذكر فيه كلٌ أركانه وأجزائه ، ولا يحذف منه شيء إلا بدليل مقامي أو مقالي ، وحذفه لا يكون لغرض الإيجاز في الكلام والرغبة في عدم الإطالة فحسب ، وإنما يكون لأغراض وغايات فيها كثير من الدقة والإتقان في إبراز معانٍ ثانية محيطة بالنص الأصلي للكلام[9] ، وهذا ما يجعله أصلا من أصول التعبير عن تلك المعاني ، ولذلك قال عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني : ((إنه

١- سورة سبأ : ٧ .
٢- سورة الإسراء : ٥٥ .
٣- التفسير الكبير : ٢٠ / ٣٢٠ .
٤- المصدر نفسه : ٢٠ ، ٢٠٢ .
٥- ينظر : المصدر نفسه : ٢٠ / ١٨٧ .
٦- سورة الإسراء : ١١١ .
٧- دروس في علم الأصول ، الحلقة الثالثة : ١ / ١٤٤.
٨- سورة الإسراء : ٥٨ .
١- للتفصيل ينظر:الخصائص: ٢/٣٦٠.

باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك انطق ما يكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِن)) [١] .

والمحذوف قد يكون حرفا ، أو فعلا ، أو اسما ، وقد يكون جُملة أو جُملا ، ((فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه ، وحذف في الحال التي ينبغي أنْ يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به)) [٢] . وكل هذه المحذوفات لا يجوز حذفها إلا إذا دل عليها دليل يفهم من الجملة ، فمثلا أنّ العرب قد اعتادوا على حذف المبتدأ في مواضع القطع والاستئناف كقول الشاعر:

قومٌ إذا لبسوا الحديـــــ ـــدَ تَنمّروا حَلَقا وقِدّا [٣]

وكذلك قد يضمرون الفعل فينصبون ، كقول الشاعر :

ديارَ ميّة إذ ميٌّ تساعفنا ولا يرى مثلَها عجمٌ ولا عربُ [٤]

ونحن في سورة الإسراء نقتفي آثار هذا الفن الأسلوبي متلمسين ، قدر ما يمكن لنا آثاره المتنوعة ومعانيه اللطيفة ، فهناك أساليب متنوعة للحذف في السورة بعضها يلفت الانتباه لشيوعه واطرداه ، كحذف الفعل والابتداء بالنصب ، كقوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [٥] ، فقد جاءت كلمة (ذرية) منصوبة ، ويبقى الفعل مضمرا بحاجة إلى تقدير مناسب ، وذلك التقدير المناسب هو ما يكشف لنا سر الإعراض عن الفعل والابتداء بالنصب ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وقد قيل إنه نصب على الاختصاص ، أي: خص ذرية من حملنا مع نوح ، أو على النداء [٦] ، أو إنه مفعول لاتخذ [٧] ، أي: واتخذوا ذرية من حملنا مع نوح ، لما تقدم من قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾[٨] .

والأول هو الأقرب، لما يحمل من المدح والثناء لهذه الذرية وصاحبها العبد الشكور ، وأنّها لجديرة بحمل هذا الكتاب الذي جعلناه هدى لذريتهم ، وفيه حضٌ على اقتفاء آثار أسلافهم من الصالحين .

٢- دلائل الإعجاز: ١٧٠ .
٣- المصدر نفسه : ١٧٥ – ١٧٦ .
٤- والبيت لـــ (عمرو بن معد يكرب) كما في ديوانه: ٦٨، و لسان العرب : (نمر) ، ١٤ / ٢٨٩ ، وديوان الحماسة : ١ / ٥٠ ، وأراد بالحَلَق : الدروع ، وبـــ (القد) : جلدا كان يلبس في الحرب .
٥- ينظر : دلائل الإعجاز : ١٧١ ، والبيت لـــ (ذي الرمة) كما في ديوانه : ١١، وفيه: (ديار) بالرفع ، فلا شاهد.
٦- سورة الإسراء : ٣ .
١- ينظر : روح المعاني : ٨ / ١٧ .
٢- ينظر : التفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٣ ، ومعاني القرآن : ٢ / ١١٦ ، وروح المعاني : ٨ / ١٧ .
٣- سورة الإسراء :٢

ومثله قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [1] ، فبناء (قرآن الفجر) على النصب يوحي بتفرد صلاة الفجر وخصوصيتها ، يقول الرازي : ((وانتصابه بالعطف على الصلاة في قوله : أقم الصلاة ، والتقدير : أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر))[2] ، ولكن الأقرب أنها منصوبة على الاختصاص الذي يفيد المدح ، أي: وخُصّ قرآنَ الفجر بالإقامة ، لما فيها من ميزة كونها مشهودة تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [3]

ومثله ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ .

على النصب في (كل)،وهو منصوب بفعل يفسره ما بعده ، أي:(وفصلنا كل شيء) ، وهو من باب الاشتغال ، ورُجّح النصب تأكيدا وتقريرا ، وكأنه قال : وفصلناه حقا ، وفصلناه على الوجه الذي لا مزيد عليه ، والله العالم [4] .

وكذلك في (وكلّ إنسان) بالتفصيل نفسه ، أي: وألزمنا كلَّ إنسان ألزمناه طائره .

ومما جاء على هذا الأسلوب أيضا قوله تعالى : ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ [5] ، يقول الفراء : إنها نصبت ((على العذاب المضمر ، أي: يعذبون كسنة من أرسلنا)) [6] ، وقد يكون لها وجوه أخرى ، محتملة في هذا السياق الذي جاء يعبر عن عظمة هذه السنة وثباتها ، ومدحها بنسبتها إليه سبحانه ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ ، فقد تكون هذه الكلمة ، إذن ، منصوبة بـ (تذكّر سنة من قد أرسلنا) ، أو (امدح) أو (انظر) ، وما إلى ذلك من الألفاظ الدالة على التشريف والتعظيم ، والتنبيه لهذه السنة ، والله العالم .

وهناك أسلوب آخر يرد في طريقة الحذف في السورة ، وهو أسلوب مطّرد كذلك في القرآن الكريم ، وفي هذه السورة يرد ثلاث مرات هي :

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [7]

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [8]

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [9]

٤- سورة الإسراء : ٧٨ .
٥- التفسير الكبير : ٢١ / ٨ .
٦ – سورة الإسراء : ١٣
٧- ينظر : التفسير الكبير : ٢٠ / ١٦٦ ، وروح المعاني : ٨ / ٣٠ .
١- سورة الإسراء : ٧١ .
٢- معاني القرآن : ٢ / ١٢٩ .
٣- سورة الإسراء : ٩
٤- سورة الإسراء : ٣٤ .
٥- سورة الإسراء : ٥٣ .

ففي هذا الأسلوب ((نعت لموصوف محذوف ، والتقدير : يهدي للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق)) [1] ، وفيه ذوق بلاغي، لما في الإبهام من الدلالة على تعظيم وتشريف هذه الطريقة المثلى .

وقد ينطوي هذا الأسلوب على حذف آخر ، وهو متعلق اسم التفضيل (أقوم وأحسن) ، وعند ذاك يكون موردا من موارد الحذف أي : هي أقوم من كل الشرائع الأخرى .

ولأنّ الآية لا تذكر الطرف الآخر من المقايسة ، دلَّ ذلك على العموم ، أي : أقوم من كل طريقة وشريعة وملة ، فينتج أنّ الإسلام آخر الأديان وأن محمدا (صلى الله عليه وأله) خاتم الرسل، لأنه ليس بعد صيغة التفضيل (أقوم) من درجة في التفضيل . [2]

ويستدل الرازي على المطلب نفسه بطريق آخر لا يعتمد الحذف في الأسلوب ، لأنه لا حاجة أصلا لذكر متعلق اسم التفضيل ها هنا ، حيث يقول وباستدلال عقلي :

((قولنا هذا الشيء أقوم من ذاك إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة ، وهذا محال ، لأن المراد من كونه مستقيما ، كونه حقا وصدقا ، ودخول التفاوت في كون الشيء حقا وصدقا محال ، وإن لفظ (الأفعل) قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا : الله اكبر ، أي : كبير)) [3] .

ولئن صح قول الرازي في كلمة (أقوم) هنا ، فإنه لا يصح في قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [4] ، لإمكان التفاوت والمقايسة في طريقة القول وطريقة التعامل مع مال اليتيم ، ومثله ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [5]، فهناك درجات متفاوتة من القول وطرق الجدال ، منها ما هو حَسَن ، ومنها ما هو أحسن ، بل يمكننا أنْ نقول بإمكان التفاوت في قوله (أقوم) ، وذلك لثبوت التفاوت والتفضيل بين أصحاب الحق وطرقهم ، كتفضيل الأنبياء بعضهم على بعض ،على الرغم من أحقيتهم ، وصوابهم واستقامتهم جميعا ، وكذلك التفضيل قائم بين الأديان والملل الحقة ، كلٌ بنسبته إلى زمان ومكان معينين ، وإلاّ لما حصل نسخ الديانات السابقة للإسلام على الرغم من استقامتها وصلاحها في عصورها .

فالإسلام هو أفضل وأقوم الديانات والشرائع والملل والطرائق على الإطلاق ، لأنه يناسب كل الأجيال المتبقية من عمر الزمان ويواكب عقليته المنفتحة وإمكاناته المتطورة .

٦- التفسير الكبير : ٢٠ / ١٦١ .
٧- ينظر : الأمثل : ٨ / ٢٧٣ .
١- التفسير الكبير : ٢٠ / ١٦١ .
٢- سورة الإسراء : ٣٤ .
٣- سورة النحل : ١٢٥ .

وقد يرد الحذف لآمر آخر لطيف المسلك ، كما في قوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [1] ، فانظر إلى قوله (نشاء) و (نريد) المتعديين ، وقد صرف الكلام عن ذكر مفعوليهما ، وذلك لتحقيق أصلٍ دقيق من أصول حذف المفعول به ، وهو توفير العناية على إثبات فاعله والتركيز عليه دون شغل الفكر بما عداه ، فالمهم هنا هو تثبيت أنّ المشيئة والإرادة لله سبحانه وأنهما لا يكونان إلاّ منه ، وأن تعدية الفعل إلى مفعوله تنقض الغرض ، وتغير المعنى ، لانصراف الذهن إلى المفعول به ، فالمهم هنا هو إثبات المعاني التي اشتقت منها هذه الأفعال المتقدمة – للفاعل من غير أنْ يتعرضوا لذكر المفعول ، ويكون المتعدي كغير المتعدي في هذه الحالة . [2]

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [3] ، فحذف مفعول الفعل (يشاء) هنا ، هو لأجل لفت النظر وقصره على أصل الفعل وهو المشيئة ، دون ذكر متعلقها ؛ لأنه معروف من السياق ، وذكره لا يشكل أهمية فيه ، أمّا مفعول الفعل (يقدر) فهو محذوف ؛ لتقدم ما يدلّ عليه ، اختصارا للكلام وتحاشيا للتكرار والإطالة .

وما يدل على المطلب ذاته قوله تعالى على لسان إبليس : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [4] ، فالتركيز هنا على أصل اعتراض إبليس وعدم سجوده وهو كون عنصر الطين اقل شرفا من عنصر النار ، حسب قياس الشيطان ، وليس الاعتراض على كون السجود لآدم أو لغير آدم ، فالإنكار هنا لأصل الفعل وهو السجود لمخلوق الطين ، وليس لمتعلقه ، ولذلك حذف المتعلق ، حتى لا يشغل الذهن به ، فقال : (خلقتَ) بحذف المفعول به ، لتثبيت هذا المعنى ، والله العالم .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾[5] ، حيث لم يذكر مفعول الفعل (زنوا) ، لعدم تعلق الفائدة به ، وإنما المقصود أصل الفعل (الوزن) وليس ما يوزن .

وهناك مضافا إلى هذه الأصول الثلاثة ، موارد أخرى للحذف تعرف بملاحظة السياق ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [6] ، فبالاعتماد على ما سبق من الآيات يكون التقدير : وإنْ عدتم بالإفساد عدنا عليكم بالعقوبة ، وهو وعيد مستمر لبني إسرائيل تخويفا وزجرا لهم .

٤- سورة الإسراء : ١٨ .
١- ينظر : دلائل الإعجاز : ١٧٧ .
٢- سورة الإسراء : ٣٠ .
٣- سورة الإسراء : ٦١ .
٤- سورة الإسراء : ٥٥ .
٥- سورة الإسراء : ٨ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [١] ، ففيها (يقال) مضمرة ، أي: يقال لـه : اقرأ كتابك ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ [٢] ، ومثل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ ...﴾ [٣] ، فالمعنى والله العالم : فيقال لهم : أكفرتم [٤] .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[٥]، وكيف أنّ السامع ليحار في متعلق (أمرنا مترفيها) ، ما هو هذا الأمر ؟ وكيف أنّ السياق تعمد أنْ يترك مجالا واسعا للفكر والتأمل في مدلول الآية ، فكانت للمفسرين جولة حول هذه الآية ، نتعرض في هذا المبحث لأحد جوانبها وسنترك جانبا آخر إلى مبحث آخر سيأتي إنْ شاء الله تعالى .

فقد فُسّر متعلق الأمر في (أمرنا مترفيها)بالطاعة ، أي: أمرناهم بالطاعة ففسقوا . إلا أنّ صاحب الكشاف أبى إلاّ أنْ يستكشف من ظاهر اللفظ دلالة أخرى ، فهو يدل بزعمه على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون ، ولكن هذا (الأمر) ليس على حقيقته وإنما هو استعمال مجازي للفظ ، أي: يفتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا ، ويقول : إنّ الدليل على ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه ،وأنّ المأمور به إنما حذف لأن قوله (ففسقوا) يدل عليه ، يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ ، لا يفهم إلا أنّ المأمور به قيامٌ أو قراءة ، ونظير (أمر) (شاء) ، في أنّ مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه [٦] .

ولكنه قد يقال : ((أن المعصية منافية فلا نقول : أمرته فعصاني أو فخالفني ، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق ، لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به ، فكونه فسقا ينافي كونه مأمورا به ، كما أنّ كونها معصية ينافي كونها مأمورا بها ، فوجب أنْ يدلّ اللفظ على أنّ المأمور به ليس بفسق ، وهذا في غاية الظهور)) [٧] ، فالمعنى على هذا : أمرناهم بالإعمال الصالحة والطاعة ولكنهم خالفوا الأمر عنادا وأقدموا على الفسق فأهلكناهم .

ومثله في الإجمال قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[٨] .

فقد ذكر لتعيين مفعول الفعل (يدعو) المتعدي ، أمران :

١- سورة الإسراء : ١٤ .
٢- سورة غافر: ٤٦ .
٣- سورة آل عمران : ١٠٦ .
٤- ينظر : معاني القرآن : ٢ / ١١٩ .
٥- سورة الإسراء : ١٦ .
٦ – ينظر : الكشاف : ٢ / ١٢٩ .
٧- التفسير الكبير : ٢٠ / ١٧٥ .
١- سورة الإسراء : ٥٧ .

الأول : يدعون الشركاء [1] ، ((يعني الجن الذين كانت خزاعة تعبدهم فقال الله عز وجل (أولئك) يعني الجن الذين (يدعونهم) يبتغون إلى الله ، فـ (يدعون) فعل (الذين يعبدونهم) ، و (يبتغون) فعلٌ للجن به ارتفعوا)) [2] .

الثاني : يدعون الله [3] ، أي: أنّ هؤلاء الأولياء الذين يزعمون أنهم آلهة إنما هم عباد له ضعفاء يبتغون رضا ربهم ، ويريدون الوسيلة إليه .

وأخيراً لنلاحظ الحذف في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [4]

فقد يقول قائل أين جواب الشرط ؟ والجواب أنْ يقال : فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوءوا وجوهكم [5] ، أي: أنَّ تقدير الجواب اعتمادا على ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا﴾ [6] ، ومن هنا حسُن هذا الحذف .

وهناك حذف آخر في جملة (وعد الآخرة) ، حيث قال المفسرون : معناه ، وعد المرة الآخرة ، وهي الإفساد الثاني الذي وعد به بنو إسرائيل .

وهكذا نجد أنّ للحذف الوارد في سورة الإسراء ، كثيرا من الدلالات التي يعبر عنها بهذا الأسلوب المتبع في الكلام العربي ، وقد رأينا نوعا من الحذف في السورة يعتمد على السياق ، ونوعا آخر مطّردا في الكلام ، وقد استعرضنا مجموعة من النصوص التي ورد فيها كلا النوعين ، وقد أعرضنا عن موارد أخرى يمكن التوصل إليها بنظرة بسيطة إلى السياق الواردة فيه [7] .

الفصل الثاني

المعاني المجازية والكنائية في سورة الإسراء

أولاً : المعاني المجازيّة :

٢- ينظر : الأمثل : ٨ / ٤٣ .
٣- معاني القرآن : ٢ / ١٢٥ .
٤- الأمثل : المصدر نفسه .
٥- سورة الإسراء : ٧ .
٦- معاني القرآن : ٢ /١١٦ .
٧- سورة الإسراء : ٥ .
٨- ينظر : الآيات : ٣٦ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ١٠٥.

المعاني المجازية صورة من صور تغير المعنى يعتمد على تغيير مجال الاستعمال ونقل المعنى من مجالٍ إلى آخر [1] ، ويكون ذلك الانتقال عندما يتساوى المعنيان الأول والثاني أو الحقيقي والمجازي ، فليس الانتقال للمعنى (المجازي) إثباتاً لمعنىً جديد ، أو تضييقاً للمعنى الأوّل أو توسيعاً له كما هو الحال في المعاني الثانية التي يثيرها التركيب ويحددها النظم ، وإنما هو تعبير آخر عن المعنى الأوّل وتوضيحاً له ، ((وجعلُ الصورة الذهنية من الجلاء والصقل ، بحيث لا تترك مجالاً للوهم أو الشك ، ويكون هذا عادةً حين تنتقل الدلالة المجردة إلى مجال الدلالات المحسوسة الملموسة . وهي عملية أشبه بتحميض الصور الشمسية لتوضيح معالمها ، فبعد أنْ كانت الدلالة لا تدرك إلاّ إدراكاً عقلياً بعيداً عن الحواس أصبحت مما يُرى ويُسمع ويُلتمس ويُشم ، وسهُل على الأذهان القاصرة أنْ تفهم مدلولها وأنْ تتبين حدودها ومعالمها بعد أن كانت مجرد فكرة عقلية يضل الذهن في حدودها)) [2].

فضلاً عن أنّ المجاز يُعدَّ أهمَّ صور تغير المعنى ، وذلك لاشتماله على نوع من الخيال . ((وقد تحدث الكثيرون عن أهمية التخيلات وبخاصة في مجال الكناية والمجال والتشبيه ، وقد أعلن أرسطو أنّ أعظم شيء هو أنْ تسيطر على المجاز ، ويعتقد (Pruost)[3] أنّ المجاز وحده يمكن أنْ يعطي نوعاً من الخلود للأسلوب ، كذلك يضع المجاز حرية الاختيار في الأسلوب أمام الكاتب ، يقول (Ullmann)[4] : (ففي مجال النحو والقواعد محددة ولا يختار الكاتب إلاّ في حدود ضيقة ، وفي حدود المفردات تملك مرادفات لتختار منها ومع ذلك فمجال الاختيار محدود جداً ، والمجال الوحيد الذي يمكننا أنْ نختار فيه بدون تقييد حريتنا هو التخيُّل) [5]))

والمجاز يقابل الحقيقة ، وقد تحدث فيهما القدامى والمحدثون وميّزوا بينهما وجعلوا كلاً منهما أقساماً . فالحقيقة وهي الأصل في الكلام والأساس الذي يعتمد عليه المجاز تُعرَّف بأنها : ((كل كلمةٍ أُريد بها ما وقعت له في وضع واضع - وإن شئت قلت : في مواضعةٍ - وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره))[6] ، أو هي ((الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص))[7] أو هي ((الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة)) .[8]

١- ينظر : دلالة الألفاظ : ٥ ، وعلم الدلالة ، أحمد مختار : ٢٤٧ .

٢- دلالة الألفاظ : ٥ .

٣-ناقد ومترجم وروائي فرنسي (١٨٧١م-١٩٢٢م).

٤- هو ستيفن أولمان الناقد الإنكليزي المعروف ،صاحب كتاب (دور الكلمة في اللغة) ، وكتاب (Semantic) .

١- علم الدلالة : ٢٤٩ .

٢- أسرار البلاغة : ٣٠٣ .

٣- مفتاح العلوم : ٤٦٧ .

٤- المصدر نفسه : ٤٦٨ .

أمّا المجاز فهو ((كل كلمة أُريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول))[1] ، أو هو ((الكلمة المستعملة في غير هي ما موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع)) [2]

وبتعبير أوضح فإنّ المجاز ((هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقةٍ ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي)) [3]، وهذا المعنى الاصطلاحي للكلمة مأخوذ من معناها اللغوي ، فإنّ المجاز لغةً هو ((مَفْعَل ، من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه ، وإذا عُدل باللفظ عمّا يوجبه أصل اللغة وُصف بانّه مجاز ، على معنى أنَّهم جازوا به موضعه الأصلي ، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً)) [4]

فيتضح إذن أنّ الحقيقة ما هي إلاّ الكلمة الموضوعة بإزاء معنىً معيّن ، والمجاز هو نقل تلك الكلمة إلى معنىً آخر تربطه بالمعنى الأوّل نوعَ علاقةٍ قد تكون مُشَابَهَةً أو غيرها ، مع عدم وجود ترديد بين المعنيين ، بمعنى أنّ المعنى الثاني هو الذي أصبح مقصوداً ومراداً بالتأكيد ، ولم يبقَ من المعنى الأوّل إلاّ دلالته التصورية ، وذلك يقتضي وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأوّل وانصرافه إلى المعنى الآخر .

بين الحقيقة والمجاز في اللغة :

عادة ما يتم الانتقال إلى المعنى المجازي ((بدون قصد ، وبهدف سدّ فجوةٍ معجميّة))[5] ، وإنّما يكون ذلك في الكلام الإعتيادي غير البليغ عندما يضيق المتكلم ذرعاً بمفردات اللغة وتراكيبها الحقيقية المحدودة في الاستعمال ، أمّا في النصوص البليغة ((فيتم بصورة قصدية لغرض أدبيٍّ غالباً)) [6].

ولكنّ التساؤل الهام هنا ، هو كيف يتمُّ التمييز بين الاستعمال الحقيقي وبين الاستعمال المجازي للكلمة في حالة عدم وضوح القرينة الدالة وعدم ظهورها ، أو في حالةُ الشك في وضع لفظ لمعنى مخصوص ، فلا يُعلم أنّ استعماله فيه هل كان على سبيل الحقيقة ، فلا يحتاج إلى نصب قرينة عليه ، أو على سبيل المجاز فيحتاج إلى نصب القرينة ؟ .

٥- أسرار البلاغة : ٣٠٤ .
٦- مفتاح العلوم : ٤٦٨ .
٧- جواهر البلاغة : ٢٥٣ .
٨- أسرار البلاغة : ٣٤٢ .
١- علم الدلالة ، أحمد مختار : ٢٤١ .
٢ – اللغة ، لفندريس : ١٨٠ .

وقد يكون عنصر النفي الموجود في كل مجاز هو ما يميز الاستعمال المجازي من الحقيقي للكلمة ، وذلك كقولنا : رجلُ الكرسي ليست رجلاً ، وعين الإبرة ليست عيناً [(١)] ، وقد يكون التبادر ـ وهو سبق المعنى من اللفظ نفسه ، مجرداً عن كل قرينة ـ هو علامة الحقيقية كما يقول الأصوليون ، وهو المراد بقولهم : (التبادر علامة الحقيقة) [(٢)].

ولكن هذه الطرق والعلامات لا تحلُّ المشكلة القائمة في التمييز بين الاستعمالين من جذورها ، لاسيّما بعد جهل العلماء بنشأة اللغة ومعرفة الوضع الأوّل لها ، وتاريخ تطور ألفاظها بشكل دقيق وثابت ؛ ولذلك نرى أنّ علماءَ اللغة قد انقسموا في آرائهم حول هذا الأمر ، ففريق يرى أنّ الكلام كلّه حقيقة وينكر وجود المجاز في اللغة ، وفريق يرى أنّ الكلام كلّه مجاز ولا حقيقة فيه ، وفريق ساد رأيه بعد ذلك بين الدارسين من جمهور العلماء يرى أنّ اللفظ قد يُستعمل استعمالاً حقيقياً وقد يُستعمل استعمالاً مجازياً [(٣)] .

ولعل من أبرز نواحي الضعف في علاج القدامى للحقيقة والمجاز والذي أوقعهم في ضرورة الجزم بنسبة الكلمة إلى كونها أمّا حقيقة وأمّا مجاز ((أنّهم وجّهوا كل عنايتهم إلى نقطة البدء في الدلالة ، وركّزوا نظرهم نحو نشأتها ، فتصوروا ما سموه بالوضع الأول ، وتحدثوا عن الوضع الأصلي كأنّما قد تمَّ هذا الوضع في زمن متعيّن وفي عصر خاص من عصور التاريخ)) [(٤)]. ومن هنا ظهرت بعض الألفاظ على أنّها حقيقة بعد أنْ شاع أمرها وتُنوسيت مجازيتها فقالوا : إنّ الكلام كلّه حقيقة ، وظهر لآخرين أنّ معظم الألفاظ لها تاريخٌ مجازيٌ فخيّل إليهم أنّ كلّ الألفاظ تبدأ مجازية الدلالة وأنْ لا حقيقة لها [(٥)] .

ولذلك نجد بعض اللغويين قد أسرفوا إسرافاً كبيراً في تتبع ظاهرة المجاز في الكلام العربي والقرآن الكريم وجهدوا أنْ يُرجعوا كلَّ كلمةٍ إلى أصلٍ لها قديم ، ربما كان بعيداً أو مهجوراً أو متكلفاً وليس له أيةُ قيمة جمالية في مجال الاستعمال وعملية الانتقال ، وقد يبدو ذلك واضحاً عند الزمخشري ((حين عرض للحقيقة والمجاز في معجمه (أساس البلاغة) ، ففي رأيه أنّ (الكتابة ، والقراءة ، والخلق ، والهجاء) كلها من المجاز ، ويقول : إنّ الدلالة الحقيقية للفعل (كتب) هو في مثل (كتب السقاءَ) أي : خرزه بِسَيْرَين ، أي : بمعنى الضم والجمع ، أما الكتابة المألوفة فدلالتها مجازية ، وكان أيضاً يقول : إنّ الدلالة الحقيقية (للقراءة) هي الجمع والضم ، وأنّ الدلالة الحقيقية للفعل (خلق) هي التي في مثل خلق الحذّاءُ الأديمَ ، والخياطُ الثوبَ : قدّره قبل القطع ((ومن المجاز خَلَقَ اللهُ الخلقَ)) !!

٣- ينظر : علم الدلالة ،أحمد مختار : ٢٤١ .
٤- ينظر : أصول الفقه : ١/ ٢٦ .
٥- ينظر : المثل السائر : ٤٤ ، ودلالة الألفاظ : ١٢٧ .
٦- دلالة الألفاظ : ١٢٨ .
١- ينظر : المصدر نفسه : ١٢٨ .

وكان يزعم أنّ معنى ((هجا الحروف يهجوها عدّدها ، ومنها عن طريق المجاز (الهجاء بمعنى تعدّد المعايب))) [1].

وقد حاول العلماء أنْ يضعوا حداً لهذا الإفراط أو التفريط في كيفية التعامل مع الحقيقة والمجاز في مقام الاستعمال ، فقد وضع الأصوليون أصلاً عقلياً مفاده : أنّه في حالة الشك في إرادة المعنى الحقيقي أو المجازي من اللفظ ، بأن لم يعلم وجود قرينة على إرادة المجاز مع احتمال وجودها ، فإنّ الأصل هو الحقيقة ، فيكون حجة فيه للمتكلم على السامع وحجة فيه للسامع على المتكلم ، فلا يصح من السامع الاعتذار في مخالفة الحقيقة بأنْ يقول للمتكلم : لعلك أردت المعنى المجازي ، ولا يصح الاعتذار من المتكلم بان يقول للسامع : إني أردتُ المعنى المجازي [٢]

أمّا اللغويون والأدباء فيضعون ميزاناً يعتمد على الذوق والمزية الفنية والجمالية ، يقول الدكتور إبراهيم أنيس في هذا المجال : ((وبحوث القدماء على استفاضتها ودقتها وحسن عرضها قد تجاهلت أمراً هاماً هو في الواقع الأساس الأول للحكم على الدلالة ، ذلك هو أثرها في الفرد حين يسمع اللفظ ويقرؤه ، فهو وحده الذي يستطيع الحكم على الحقيقة والمجاز ، ذلك لأن الحقيقة لا تعدو أنْ تكون استعمالاً شائعاً مألوفاً للفظ من الألفاظ ، وليس المجاز إلاّ انحرافاً عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أنْ يثير في ذهن السامع أو القارئ دهشة أو غرابة أو طرافة ، وحدود تلك الغرابة أو الطرافة تختلف باختلاف تجارب المرء مع الألفاظ وباختلاف وسطه الاجتماعي أو الثقافي))[٣].

ومن قبلُ قرر ابن الأثير هذين الأصلين ـ العقلي والذوقي ـ في التمييز بين الاستعمالين قائلاً : ((واعلم أنّه إذا ورد عليك كلام يجوز أنْ يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه فانظر ، فإنْ كان لا مزية لمعناه في حمله على طريق المجاز فلا ينبغي أنْ يُحمل إلاّ على طريق الحقيقة ؛ لأنها هي الأصل والمجاز هو الفرع ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلاّ لفائدة))[٤] .

ولاشك لدينا الآن في أنّ اللغة كائن حيّ متطور ، وقد يحدث بمرور الوقت أنْ يشيع المعنى المجازي على حساب المعنى الحقيقي ، ويطغى عليه ، وقد تتغير دلالة الألفاظ الحقيقية إلى دلالات أخرى ضيقاً وسعة وانتقالا ، وانطلاقاً من هذه الحركة الحية للألفاظ ، نجد أنَّ هناك تصنيفاً للمجاز حيث ((ذكر بعضهم ثلاثة أنواع منه ، وهي :

٢- دلالة الألفاظ : ١٣٢ ، وينظر : أساس البلاغة : (خلق) ، ٢٤٨ ، و(قرأ) ،٧٥٣ ، و (كتب) ، ٨٠٨ ، و(هجو) ، ١٠٥ .
٣- ينظر : أصول الفقه : ١ / ٣١ .
١- دلالة الألفاظ : ١٢٨ – ١٢٩ .
٢- المثل السائر : ١ / ٧٣ .

١ـ المجاز الحيّ (living) ، الذي يظل في عتبة الوعي ويثير الغرابة والدهشة عند السامع .
٢ـ المجاز الميّت (dead) أو الحفري (fossil) وهو النوع الذي يفقد مجازيته ويكتسب الحقيقة من الألفة وكثرة التردد .
٣ـ المجاز النائم (sleeping) ، أو الذاوي (faded) ، ويحتل مكاناً وسطاً بين النوعين السابقين)) [١].

فاللفظ قد يشيع استعماله في جيل من الأجيال للدلالة على معنى معيَّن على وجه الحقيقة ، ولكن ربما انحرف به الاستعمال إلى مجال آخر فأثار في الذهن غرابة أو طرافة فيقال حينئذٍ إنه من المجاز ، وتلزمه تلك الغرابة أو الطرافة زمنا ، قد يفقدها ويصبح من الألفة والذيوع بحيث تُنسى مجازيته ويُعد من الحقيقة [٢].

ومن أجل ذلك يجب علينا أنْ نكون حذرين في التعامل مع النص القرآني واستعمالاته للألفاظ التي تبدو لنا ـ ونحن بعيدون عن زمن صدور النص ـ مجازية ، لتطور دلالتها ، أو حقيقية ، للألفة الحاصلة عندنا ، ولذلك يتعينُ علينا الرجوعُ القهقرى إلى زمن الصدور للكشف والتحقق من مجازية الكلمة أو حقيقتها في ذلك الزمن ، لا أنْ نُخضعها لقانون التطور الدلالي الحاصل في اللغة الذي قد يُسقط من هيبة بعض الكلمات أو يُضيِّقُ دلالتها أو يوسّعها أو يجعلها مبتذلة أو وحشية ، أو يرقّيها إلى مستوى دلالي أعلى . كل ذلك يحدث كلما ابتعدنا عن زمن الصدور الذي نزل فيه القرآن الكريم .

وليس ذلك بطبيعة الحال تحييداً أو تجميداً لقدرات النص القرآني على الانفتاح والجريان في العصر الذي نعيش والعصور القادمة التي قد تشهد تطوراً دلالياً هائلاً بفعل الانفتاح والتلاقي بين الشعوب ، وذلك لأنَّ في كلماته وتراكيبه طاقة خلاّقة ، وقدرةً على التأثير والإيحاء والتواصل دون المساس بجوهرها وطبيعتها التي نزل النص بها ، وهذا ما يوفر لهذه اللغة حرية الانفتاح والاتصال مع ضمان السلامة والبقاء والاستمرار في التأثير .

المجاز في القرآن الكريم :

لقد ورد المجاز كثيراً في لغة العرب ، وورد منه شيء كثير وبصورة لافته في القرآن الكريم ، وإنَّ بعض القدامى من علماء اللغة والبيان قد شغلوا أنفسهم في قضية وروده لاعتبارات ، منها :

٣- علم الدلالة : ٢٤١ – ٢٤٢ .
٤- ينظر : دلالة الألفاظ : ١٣٠ .

زعمهم أنّ المجاز كذبٌ ، لانَّ الجدار لا يريد ، والقرية لا تُسأل ، والدُّلُ ليس له جناح[1] ، ومنها : زعمهم أنّ المتكلم لا ينصرف من الحقيقة إلى المجاز إلاّ إذا ضاقت به الحقيقة أو عجز عن التعبير عنها فيستعير، وذلك محال على الله تعالى القادر المنزّه عن العجز [2]، ولذلك فقد ((رفض أهل الظاهر استعمال صيغ المجاز في القرآن كافة ،ووافقتهم بعض الشافعية وقسم من المالكية وأبو مسلم الأصبهاني من المعتزلة)) [3]، بينما حرص الجمهور والشيعة الأمامية وأغلب المعتزلة ومن وافقهم من المتكلمين على إثبات وقوعه في القرآن [4] .

وواضح جداً أنّ الشبهة الأولى لا يستحق الردَّ على أصحابها ولذلك نرى ابنَ قتيبه يصف طعنهم هذا بأنه من أشنع الجهالات ، وأدلّها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم ، ويعلل ذلك بأنّ المجاز لو كان كذباً كان أكثرُ كلامنا فاسداً [5] .

وقد تولّى مجموعة من العلماء والأدباء الردّ على أصحاب الشبهة الثانية ، فقد ردّ الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) على هذه الشبهة قائلاً :((وهذا باطل ولو وجب خلوّ القرآن من المجاز لوجب خلوّ من التوكيد والحذف وتثنية القصص وغيره ، ولو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن)) [6]. ويصف الدكتور محمد حسين الصغير هذه الظاهرة ، أي : الانتقال إلى الاستعمال المجازي مع توفر ألفاظ الحقيقة بأنه انتقال ((بذهن السامع إلى آفاقٍ جديدة ذات أبعاد جديدة والتخطي معه إلى صور رائعة ومشاهد متناسقة لا تتأتى بالاستعمال الحقيقي ، وهذا يعني القيام بعملية تجديد وتطوير لأسلوب اللغة)) [7]. فالمجاز إذن هو نمط من أنماط اللغة وأشكالها وامتداداتها وهو سرٌّ من أسرار تأثيرها في النفوس والعقول ، لانّ المجاز يحوّل المعنى إلى صورة مؤثرة ومشوقة مبنية على شيء من المبالغة والتهويل المستحقَين ، وإنّما يُصار إلى هذا الأسلوب إذا كان الموقف يستدعي ذلك ويقتضيه وإلاّ فإنّ الكلام يُبنى على أصله من الحقيقة القادرة على تأدية الدور تامًّا في تبليغ المعاني .

والأسلوب القرآني كما أنه مبنيٌّ على الألفاظ الحقيقية التي لا غنى عنها ، كذلك يحتوي على كثير من التعابير المجازية التي جيء بها لتؤدي وظيفة مقصودة لا تُؤدّى على الوجه الأكمل إلاّ بها ،ومن هنا يتبين أنّ المجاز ((في قيمته الفنية لا يختلف عن الحقيقة فكلاهما يهدف إلى الفائدة المتوخاة من الكلام))[8]، فلا داعي إذن للقيام بعملية تفاضل بينهما بعد أنْ عرفنا أنَّ الحقيقة هي الأصل وأنّ

١- ينظر : تأويل مشكل القرآن : ١٣٢ .
٢- ينظر البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ٢ / ٢٥٥ .
٣- ينظر : أصول البيان العربي : ٣٧ .
٤- ينظر : المصدر نفسه : ٣٨ .
١- ينظر : تأويل مشكل القرآن : ١٣٢ .
٢- البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٢٥٥ .
٣- أصول البيان العربي : ٣٨ .
٤- أصول البيان العربي : ٣٩ .

المجاز هو فرع له ، وإنّ قولهم بأنّ المجاز أبلغ من الحقيقة فيه نظر ، فكم من كلام متطاول في البلاغة مبني على الحقيقة ، والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك ، ولو كان ذلك كما يزعمون لكان الأسلوب القرآني متفاوتاً في بلاغته . وما نلمسه فيه من قوة تارةً ، وفتورٍ أخرى هو نابع من الأحوال والمواقف التي تناسبها قوةً وضعفاً .

وتقرير الأمر : أنّ التعبير المجازي لا يُعدَل إليه إلاّ إذا كان فيه زيادة في الفائدة واستيعاب للمعنى الحقيقي بإضافة أمرٍ جديد ينتقل إليه ذهن السامع (١).

والقرآن الكريم يوظف المجاز في تجسيد المعاني وتشخيص وتصوير المشاهد الحسية والعقلية والخيالية الجديدة التي لم يكن أكثرها مألوفاً في الأدب العربي وهذا ما جعل من أسلوبه البياني بما انطوى عليه من تشبيهات واستعارات ومجازات عقلية ومرسلة ، مؤثراً ، خالداً ، يبعث النفس والعقل على التأمل في معانيه التي انتثرت واستترت وتنوعت وراء تراكيبه وألفاظه في أسلوب رائعٍ واستعمالٍ أمثل .

أنواع المجاز :

لقد انتهى الأمر في العصر الخامس الهجري وعلى يد الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، إلى تحديد مفهوم المجاز ووضوحه واستقلاله عن المباحث البيانية بمعناها الواسع ، حيث أخذت تتضح وتتميز شيئاً فشيئاً ((فيما بعد عصر الجاحظ ، عند كل من الرماني (ت ٣٨٦ هـ) ، والشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ))) (٢).

والمجاز نوعان : عقلي ولغوي :

والعقلي هو ما استفيد من طريق العقل وإيحاءات الفطرة ، واللغوي هو ما استفيد عن طريق اللغة ومدركات اللسان (٣) ، وهذا ما أثبته عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة قائلاً: ((واعلم أنّ المجاز على ضربين : مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول))(٤) . فالجرجاني يحدد أقسام المجاز بنوعيه العقلي واللغوي ، وقد فرّق بينهما بأنه : ((إذا وقع في الإثبات فهو متلقىً من العقل ، وإذا عرض في المثبت فهو متلقىً من اللغة)) (٥) ، كما سيأتي توضيحه بعد قليل .

٥- ينظر : أصول البيان العربي : ٣٩ -٤٠ .
١- أصول البيان العربي : ٤١ .
٢- ينظر : المصدر نفسه : ٤١ .
٣- أسرار البلاغة : ٣٥٥ .
٤- أصول البيان العربي : ٤١ .

وقد اقتفى علماء البيان أثر عبد القاهر الجرجاني في هذا التقسيم وزادوا عليه بتقسيمات ثانوية لا تخرج كثيراً عن هذين الأساسين ، ويلخص السكاكي هذه التقسيمات بقوله : ((اعلم أنّ المجاز عند السلف من علماء هذا الفن قسمان : لغوي ويسمى مجازاً في الفرد ، وعقلي ، واللغوي قسمان : قسم يرجع إلى معنى الكلمة ، وقسم يرجع إلى حكم لها في الكلام ، والراجع إلى معنى الكلمة قسمان : خالٍ عن الفائدة ومتضمن لها ، والمتضمن قسمان : خالٍ عن المبالغة في التشبيه ومتضمن لها ، وإنه يسمى الاستعارة ولها انقسامات ، فهذه فصول خمسة))(١) .

وقد استقر البلاغيون على نوعين للمجاز ، هما :

١ـ المجاز العقلي

٢ـ المجاز اللغوي ، وهو ينقسم بدوره إلى قسمين :

أ ـ الاستعارة : وتكون فيما إذا كانت العلاقة بين المعنى الحقيقي والمجازي هي المشابهة .

ب ـ المجاز المرسل : ويكون فيما إذا كانت العلاقة بينهما غير المشايهة .

وفي هذا البحث سوف نسير على هذا التقسيم الذي يشمل هذه الأنواع الثلاثة دون التعرض إلى تقسيمات ثانوية قد لا يكون لها أثرٌ كبير في تجلية صور بيانية هامة في النص بقدر ما تسبِّبه من تعقيد مُمل وتشويش للذهن ليس للذوق فيه محل .

أ ـ المجاز العقلي :

وقد يّعرف بحدٍ جامع مانع بأنه :

((إسناد الفعل أو ما في معناه من اسم فاعل أو مفعول ، أو مصدر إلى غير ما هو له في الظاهر من المتكلم لعلاقة قرينة تمنع من أنْ يكون الإسناد إلى ما هو له)) (٢)

وقد سمي هذا النوع من المجاز بالعقلي ؛ لأنّ التّجوز يُفهم من العقل ، لا مِن اللغة كما في المجاز اللغوي (٣) ، فدلالة الألفاظ فيه على ذاتها ، بذاتها ولم تُنقل من أصلها اللغوي ، والكلمات لم تجتز وضعها في الأصل إلى ما يشابهها أو يقاربها ، وإنّما يُستشعر بهذا المجاز عن طريق التركيب والإسناد (٤) .

ولقد كان الشيخ عبد القاهر الجرجاني رائداً لهذه الفكرة حين ميّز تمييزاً كان خفياً ، بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي ، وأنّه من أي جهةٍ سمي هذا الأخير بهذا الاسم ، وقد دافع عن فكرته هذه وشرحها طويلاً في كتابه (أسرار البلاغة) ، وملخص فكرتها : أنّ المجاز إنّما يحدث في إثبات شيء

١- مفتاح العلوم : ٤٧١ .
٢- جواهر البلاغة : ٢٥٨ .
٣- ينظر : المصدر نفسه : ٢٥٨ .
٤- ينظر : أصول البيان العربي : ٤٤ .

لشيء وليس في المثبت له من طريق اللغة ، فعندما نريد أنْ نثبت الفعلَ والتأثيرَ للإنسان مثلاً ونصفه بأنه فاعل ومؤثر فإن الكلام يكون قد جاء على حقيقته ، لا لأنّ (الفعل) و(التأثير) قد وضعتا في اللغة لفعل وحركة الحيّ القادر كالإنسان ، وإنّما وضعتا لمطلق الفعل والتأثير ، وإنّما نستكشف الحقيقة عن طريق العقل ، لأن العقل يحكم بتأثير وفعل الحي القادر ، ولا يحكم بهما لما ليس كذلك ، فإذا نسبناهما إلى الجماد أو لاسم معنوي فقلنا مثلاً : فَعَل الربيعُ الوشيَ ، فقد جرى الكلامُ على المجاز ، ولكن ليس بنقل كلمة (فَعَل) عن موضعها الأصلي إلى موضع آخر شبيه به ، كنقل (الأسد) إلى الرجل الشجاع الشبيه به من هذه الجهة ؛ وذلك لأنَ (فَعَلَ) موضوع لإثبات الفعل للشيء على الإطلاق وليس فقط للشيء الحي ، والحكم في بيان من يستحق هذا الإثبات وتَعْيينِه يتم عن طريق العقل كما ذكرنا ، وأمّا الأسد فموضوع لـ (السبع) قطعا ، واللغة هي التي عينت المستحق له ، وبها ثبت هذا الاستحقاق ، وأمّا استحقاق الحي القادر، بأنْ يثبت له الفعل ويختص به دون كل شيء سواه فبفرض العقل ونصّه ، لا باللغة [1]، ثم يصل الجرجاني إلى نكتة جامعة تميّز بين النوعين وهي ((أنّ المجاز في مقابل الحقيقة ، فما كان طريقاً في أحدهما من لغةٍ أو عقل فهو طريق في الآخر ، ولستَ تشكُ في أنَّ طريق كون الأسد حقيقة في السبع ، اللغة دون العقل ، وإذا كانت اللغة طريقاً للحقيقة فيه وجب أن تكون هي أيضاً في كونه مجازاً في المشبه بالسبع إذا أنت أجريتَ اسم الأسد عليه ، فقلت : رأيتُ أسداً ، تريد رجلاً لا تميزه عن الأسد في بسالته وإقدامه وبطشه . وكذلك إذا علمت أنّ طريق الحقيقة في إثبات الفعل للشيء هو العقل ، فينبغي أنْ تعلم أنه أيضاً الطريقُ إلى المجاز فيه ، فكما أنّ العقل هو الذي دلك حين قلت : ((فعَلَ الحيُّ القادر)) أنّك لم تتجوز ، وأنّك واضع قدمك على محض الحقيقة ، كذلك ينبغي أنْ يكون هو الدال والمقتضي إذا قلت : (فعَلَ الربيعُ) أنّك قد تجوّزت وزلتَ عن الحقيقة فاعرفه))[2].

أمّا السكاكي فقد أنكر المجاز العقلي وأدرجه في سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع فيمن قال : (أنبتَ الربيعُ البقلَ) استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بوساطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة ، وعنده أنّ المجاز كلّه لغويٌ وينقسم إلى مفيد وغير مفيد [3] . وتابعه على ذلك الخطيب القزويني ، وقد أخرجه من علم البيان وأدرجه في علم المعاني حيث عدّه مجازاً بالإسناد [4] .

وقد تابع أغلب دارسي البيان المحدثين عبدَ القاهر الجرجاني في إقرارهم للمجاز العقلي وعدّه من مباحث علم البيان [5] .

١- ينظر : أسرار البلاغة : ٣٥٥ -٣٥٨ .
٢- أسرار البلاغة : ٣٥٨ .
٣- ينظر : مفتاح العلوم : ٥١١ .
٤- ينظر : الإيضاح : ٣١ .
٥- ينظر: البلاغة والتطبيق : ٣٣٧ ، و جواهر البلاغة : ٢٥٨ ، وأصول البيان العربي : ٤٣ .

ولابد أن يتوفر في كل مجاز ركنان أساسيان هما : القرينة الدالة والعلاقة المسوّغة للمجاز في العقل والذوق ، وهي متنوعة ، وكثيرة ، يذكر البلاغيون المشهورة منها وهي : الزمانية ، والمكانية ، والفاعلية ، والمفعولية ، والسببية ، والمصدرية .

المجاز العقلي في سورة الإسراء :

لا يُعد المجاز العقلي من الأساليب البيانية الأساسية في القرآن الكريم إذا ما قيس بالأنواع البيانية الأخرى ، كالتشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكنايات المختلفة ، ولعل السبب في ذلك أنّ الأسلوبَ القرآني ينزع في الأعم الأغلب إلى تجسيد المعاني بصورة محسوسة ومتحركة ، ليتملى منها المتلقي ما يشاء ، ولتأخذ منه هذه التصويرات كلَّ مأخذ ، في حين يفتقد المجاز العقلي في كثير من صوره إلى هذه المرونة والمساحة الواسعة من التصوير والتأثير على المتلقي وتجسيد المعاني المتعدّدة في التعبير الواحد . مضافاً إلى أنَّ كثيراً من صور المجاز العقلي هي صورٌ مألوفة لدى العقل لا تثير الغرابة والطرافة ، والإحساس بمتعة الانتقال في التعبير . فالمتلقي عندما يقرأ أو يسمع تعبيراً مثل : ((جنات تجري من تحتها الأنهار)) أو (بنى الأميرُ المدينة) أو (جاء بي الشوقُ إليك) ، سوف لا يحسُّ بمجازية التعبير إلاّ بعد التحقيق والتحري ، وما ذاك إلاّ لأنّ العقل قد أَلِف هذه التجوّزات حتى صارت كالحقيقة ، أو قريبة منها ، أو لجواز حملها عليها وذلك بتوسيع دلالة الفعل المسند وضعاً ، ففي مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [2] ، وقولنا (أنبتَ الربيعُ البقلَ) ، يمكننا أنْ نتقبل مع طول الألفة أنّ البكاء ، والتسبيح موضوعان لما يعمَّ الحي وغيره ، وأنْ نكتفي بذكر الوسائط والأسباب غير الحقيقية ، كالربيع دون السبب الحقيقي ؛ لأنّ كل ذلك أصبح مألوفاً ومقبولاً ، ولذلك يمكن أنّ نعد قسماً من صور المجاز العقلي ، من المجاز النائم التي لا تؤدّي إثارته غالباً إلى مزيد معنى ، أو تجسيد صور بيانية هامة ، ولذلك نجد أنّ شواهد هذا النوع من المجاز لدى البلاغيين محدودة في عدد من الآيات ومكررّةً في كتب البلاغة المختلفة ، في حين وجدنا من يُخرجُ المجازَ العقلي من علم البيان ويضعه في مرتبة علم المعاني الذي يعتمد التركيب والإسناد ، في حين نجد الزركشي (ت : ٧٩٤ هـ) يرى أن المجاز العقلي هو ما يتكلم فيه أهل اللسان ، فيصفه مميزا إياه عن المجاز اللغوي بقوله : ((وهو أن تسند الكلمة إلى غير ما هي له أصالة لضرب من التأويل)) [3].

ولكن وروده في القرآن الكريم مؤكّد وقد أشار البلاغيون والمفسرون إلى شواهده وصوره.

١- سورة الدخان : ٢٩ .
٢- سورة الجمعة : ١ .
١- البرهان : ٢ / ٢٥٦ .

وفي سورة الإسراء ورد ما يمكن أنْ يُعد من المجاز العقلي على بعض الوجوه المحتملة من المعنى كقوله تعالى :

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾[١]

فقد قيل في قوله تعالى ((حجاباً مستوراً)) عدة أقوالٍ منها [٢] :

١ ـ قول الأخفش بأنه أراد : (حجاباً ساتراً) ، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول ، يقال : مشؤوم وميمون ، بمعنى شائم ويامن .

٢ ـ إنه على بناء النسب ، والمعنى : حجاباً ذا ستر ، كما في (سيل مفعَم) أي : ذو إفعام ، ولابن وتامر ، أي : ذو لبنٍ وتمر ، ومرطوب ، أي : ذو رطوبة .

٣ ـ إنّه صفة للحجاب ، أي : حجابٌ مستورٌ عن الأعين لا يراه أحد ، فقد حجب الله سبحانه نبيه (صلّى اللهُ عليه وآله) بحجاب لا يراه المشركون حال تلاوته للقرآن الكريم ، أو حجبهم عن فهم معانيه وتدبرها لعدم الاستحقاق ، وهذا الحجاب أمّا حجاب خارجي حقيقي لا يمكن رؤيته للطافته وخروجه عن حدود إدراكات البصر الطبيعية ، وأمّا حجاب معنوي يحيط بالإنسان فيؤثر على عقله ولبّه وحواسه فيصرفه ويذهله عن رؤية الأشياء على حقيقتها .

وعلى القولين الأوّل والثاني يكون التعبير مجازياً علاقته الفاعلية ، أي : أن الكلام قد بني للمفعول وأسند للفاعل الحقيقي ، ولكن الأوّل منهما الذي قال به الأخفش ، وهو كون (مستوراً) بمعنى (ساتراً) بعيدٌ ، لما يحمله من التكلف في الانتقال بالصيغة ، حملاً على تعبيرات قليلة وردت في اللغة ، وهو مجازفة يحسُنُ تجنبها مع القرآن الكريم .

والقول الثاني يؤدّي المعنى نفسه الذي يؤدّيه الأول وزيادة ، إلاّ أن الفرق بينهما أن الثاني يعطي معنى الفاعلية من دون الحاجة إلى الانتقال بالصيغة إلى (فاعل) ، وإنّما هو مبني على النسب ، أي : ذا ستر ، مثل : مرطوب : ذو رطوبة ، ومفعَم : ذو إفعام ، فصيغة (المفعول) باقية على حالها مع إعطاء معنى الفاعلية ، وهو غاية المبالغة في النسبة ، وكأنَّ الصفة قد تلبست به ونسبت إليه غير مفارقة له بحيث صار الحجابُ مستوراً لشدة تلبسه بالستر ، كما أنّ المرطوب صار كذلك لشدة تلبسه بالرطوبة ، وكذا الأمر في تامر ولابن ، المبنيان للفاعل . وهذا الوجه أكثر مقبوليةَ من الأول مع ما فيه من التكلف الظاهر أيضاً.

والأولى من ذلك كله حمله على القول الثالث الذي يرى أنّ (مستوراً) ما هو إلاّ صفة لـ (حجاب) ، فهو محمول على الحقيقة ولا مجاز في التعبير ، ونحن نؤكد على هذه الأولوية لأمرين:

٢- سورة الإسراء : ٤٥ .

٣- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٩٤ ، و التفسير الكبير : ٢٠ / ٢٢١ -٢٢٢ ، وروح المعاني : ٨ /٨٥ .

الأول : أنَّ الحملَ على الحقيقة هو الأصل في حالات الشك وعدم القرينة الدالة على المجاز .
الثاني : أنّ الذي حمل بعض اللغويين والمفسرين على التكلف في نقل المعنى من المفعولية إلى الفاعلية قد يكون هو انشغالهم وتأكيدهم على غاية هذا الحجاب وفائدته ، وهو ستر النبي(صلّى الله عليه وآله وسلم) عن الأعداء حال قراءة القرآن الكريم ، غير ملتفتين إلى أنّ كلمة (حجاب) كافية لتأدية هذا المعنى ؛ فإن غاية الحجاب هو المنع والستر ، بيد أنّ الأسلوب القرآني أراد أن يضيف أمراً جديداً في وصف الحجاب بأنه خفي ومستور عن الناظرين ، وتلك معجزة وكرامة للنبي (صلّى اللهَ عليه وآله وسلم) ولكتابه العزيز الذي لا يمسّه إلاّ المطهرون ، وربما سرت تلك الكرامة وذلك الحجاب لكل قارئ للقرآن الكريم تحجزه وتمنعه من كيد الأعداء من الأنس والجن ، كلٌّ بحسب شأنه ومنزلته وقربه .ومما جاء في السورة من المجاز ، قوله تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [1]

حيث نجد أنفسنا مأخوذين أمام هذا التعبير ، شاعرين بنوع من الغرابة ، راغبين في التوقف ، وهكذا نكتشف أننا أمام نوع من المجاز في قوله تعالى : ((وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)) .

وهذه الغرابة وذلك التوقف ليس في الدلالة الإجمالية للآية الكريمة فإن الناس عامتهم وخاصتهم يعرفون تلك الدلالة ، ولكن هذه الغرابة وذلك التوقف تكمن في كيفية الدلالة وطريقة الاستعمال ؛ ولذلك يقف المفسرون في تحليل تلك الدلالة على وفق ثلاثة احتمالات [2] .

الأول : أنّ معنى (مبصرةً) : مُضيئة، منيرة .
الثاني : مبصرة ، أي : التي أهلها بُصراءُ فيها ، وتكون الصيغة عندئذٍ من باب (أَفْعَلَ)المراد به غير من أسند إليه ، كأضعفَ الرجلُ إذا كانت دوابّه ضعافاً ، وأجبنَ وأخبثَ ، إذا كان أهله جُبناءَ وخُبثاء ، فأبصرَ النهار هنا ، أي : صار الناس يبصرون فيه .
الثالث : أنّ (مبصرة) مشتقةٌ من (أبصره) ، المتعدي ، أي : جعله مبصراً ناظراً .
وعلى الأول والثالث يكون التعبير مجازياً بالإسناد ، فالأوّل مجاز أمّا بعلاقة السببية ؛ لأنّ النهار لا يُبصِر ، وإنّما هو سببٌ للإبصار ، فيكون معنى مبصرة : مضيئة ((وذلك لأنّ الإضاءة سببٌ لحصول الإبصار ، فأطلق اسم الإبصار على الإضاءة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب)) [3] . وأمّا هو مجاز بعلاقة الزمانية كما في (نهاره صائم وليله قائم) ، فالنهار لا يبصر وإنّما يُبصرُ فيه .

١- سورة الإسراء : ١٢
٢- ينظر : مجمع البيان : ١٦٥ ، والتفسير الكبير: ١٦٥/٢٠ ، وروح المعاني : ٢٦/٨ .
١- التفسير الكبير : ٢٠ / ١٦٥ .

وأمّا الثالث فهو مجاز عقلي أيضاً علاقته السببية ، فإنّ إسناد الإبصار إلى النهار هو إسنادٌ مجازي من باب الإسناد إلى السبب غير الحقيقي ، والفاعل الحقيقي هو اللهُ تعالى ،لأنّ الذي جعل الإنسانَ مبصراً هو الله سبحانه وليس النهار ، وإنّما النهارُ سببٌ لذلك .

وأمّا على الاحتمال الثاني ، وهو كونه من باب أفْعَلَ ، كأخبث الرجل إذا كان أهله خبثاء ، فيكون من (أبصرتِ الآية) أي : صار أهلها بصراء ، وهو معنى حقيقي بالوضع وليس مجازياً ، وهو بعيد وأقربُ للتكلف . والملاحظ أنّ هذه الكيفيات الثلاث كلّها تنتهي إلى المعنى المقصود ، وهذه إحدى القيم الجمالية في الأسلوب القرآني التي تـــوفر للمتلقـــي الفائدة والمتعة والمعاني الدقيقة في آنٍ واحـــد .

وفي مثل هذه الحالة التي يظل فيها المدلول واحداً وواضحاً مهما تعددت طرق الدلالة عليه ، يستطيع المتلقي أنْ يختار الكيفية المناسبة التي يميل إليها وتنسجم مع رؤيته وذوقه .

ونستطيع في هذه الآية الكريمة وبالاستنارة بالسياق الواردة فيه أن نحدّد أن يكون المجاز فيها مجازاً عقلياً علاقته الزمانية وليس السببية ؛ وذلك لأنّ الآية الكريمة في معرض الموازنة بين ظرفين زمانيين ، هما الليل المظلم ، والنهار المبصر ، حيث يقول تعالى : ((فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة)) ، ثم تذكر الآية الغاية من هذا الإبصار وفائدته في قوله تعالى : ((لتبتغوا فضلاً من ربكم ورضواناً)) ، فالآية إذن ناظرةٌ إلى ذلك الظرف الزماني من النهار الذي يتمكن الإنسان فيه من الإبصار الذي يمكّنه من قضاء أعماله وحاجاته المختلفة ، وأمّا كون النهار هو سبب الإبصار ، فالسياق غير ناظر إليه ، واللهُ العالم .

ومثل هذه الآية في المجاز قوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [1]، أي : يبصرها الناس لأنها آية واضحة بيِّنة .

ومن صور المجاز العقلي في السورة أيضاً قوله تعالى :

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾[2]

فإنّ نسبة اللعن إلى الشجرة هو مجاز عقلي علاقته السببيّة ، ((لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعنَ على الحقيقة ، وإنّما وصفت بلعن أصحابها على المجاز)) [3].

فالمراد بلعنها لعنُ أصحابها على أحد الوجوه في دلالتها ، وقد يُراد باللعن هنا معناه اللغوي الحقيقي ، وهو البُعد ، فهي لكونها في أبعد مكان من الرحمة وهو أصلُ الجحيم الذي تنبتُ فيه فهي ملعونةٌ حقيقة ، وقِيل إنّها ملعونة لأنّها ضارّة مكروهة ، والعرب تقول لكل طعامٍ كانت هذه صفته : إنّه ملعون [1] .

١- سورة الإسراء : ٥٩ .
٢- سورة الإسراء : ٦٠
٣- الكشاف : ٢ /٦٤٩ .

وهذا على أحد الوجوه في مدلول (الشجرة الملعونة) ، وسيأتي مزيد بحث في مدلولها إنْ شاء اللهُ تعالى ..

ومما يمكن حمله على المجاز في السورة قوله تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (٢)

فالملاحظ في هذه الآية أنّ الفعل (تسبّحُ) أُسند إلى نوعين من الموجودات ، منها ما هو حي قاصد ذو إرادة كالإنسان ، ومنها ما لا قصد له واختيار كالسموات والأرض ، وقد فهم بعضُ المفسرين ((أنّ التسبيح المضاف إلى الجمادات ليس إلاّ بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى ، وإطلاق لفظ التسبيح على هذا المعنى مجاز ، وأمّا التسبيح الصادر عن المكلّفين وهو قولهم (سبحان الله) فهذا حقيقة ... فيلزم أن يكون قولهم (تسبح) لفظاً واحداً استُعمِل في الحقيقة والمجاز معاً ، وهذا باطلٌ على ما ثبت في علم أُصول الفقه ، فالأولى أنْ يحمل هذا التسبيح على الوجه المجازي في حق الجمادات ، لا في حق العقلاء ، لئلا يلزم المحذور)) (٣).

وقد كان للزمخشري رأيٌ في التخلص من هذا المحذور بحمل التسبيح على المجاز في الجميع مادام ذلك حاصلاً عندهم وهو تنزيه الله تعالى (٤)، تنزيهاً حالياً بحسب الوجود والانقياد .

أمّا صاحب (الميزان) فيرى أنّ الأمرَ مختلفٌ تماماً ، وأنّ الكلامَ هنا حقيقةٌ ، لا مجاز فيه ، لأن التسبيح هو تنزيه قولي كلامي ، وحقيقة الكلام هو الكشف عمّا في الضمير بنوع من الإشارة إليه والدلالة عليه ، وغاية الأمر أنّ الإنسان قد التجأ إلى استعمال الألفاظ وهي الأصوات الموضوعة للمعاني ودَلّ بها على ما في ضميره وجرت على ذلك سنةُ التفهيم والتفهم .

فالتسبيح عنده هو كل ما يكشف عن تنزيه الله تعالى بالقول ، الذي هو بالمعنى الأعم ، وإن لم يكن بصوتٍ مقروع وصوت موضوع ، وفي سلوك هذه الموجودات المشهودة من سماء ، وأرض وما فيها ما يكشف كشفاً صريحاً ويعبّر عن توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل نقص وشين ، فهي بهذا المعنى تسبح الله تعالى . وإنْ قيل إنّ مجرد الكشف عن التنزيه لا يسمى تسبيحاً حتى يُقارنَ القصدَ ، والقصدُ مما يتوقفُ على الحياة ، وإنّ أغلب هذه الموجودات عادمة لها ، فلا مَخلَص من حمل التسبيح على المجاز ؟ ولكنه يجيبُ مدافعاً ، مستفيداً من معطيات قرآنية وروائية : بأنّ كلام الله تعالى مشعرٌ

٤- ينظر : روح المعاني : ٨ / ١٠١ .
٥- سورة الإسراء : ٤٤ .
١- التفسير الكبير : ٢٠ / ٢٢٠ .
٢- ينظر : الكشاف : ٢ / ٦٤٤ .

بأنّ العلمَ سارٍ في الموجودات ، فلكل منها حظٌّ من العلم على مقدار حظّه من الوجود وإنْ اختلفت تسمية الحياة والوجود بين المخلوقات ، يقول تعالى :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [١]

فما من موجودٍ إلاّ وهو يشعر بنفسه بعض الشعور ، وهو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجة الناقصة فهو يحمد ربّه ذا الغنى والكمال .

فالتسبيح هنا في الجميع حقيقي قاليٌّ لا حاليٌّ ، وكونه قالياً لا يستلزم أنْ يكون بألفاظ موضوعة يعرفها البشر بالضرورة [٢].

ولعل في ذلك السّرَ في خفاء تسبيح هذه الموجودات على الإنسان حيث يقول تعالى : ((ولكن لا تفقهون تسبيحهم)) .

ولذلك يظهر أنْ لا وجه ـ بحسب هذا الرأي ـ لحمل التسبيح في هذه الآية على المجاز ، لأن المجاز لا يُصار إليه إذا كان وجهٌ صحيح تُحمل الحقيقةُ عليه وتتم به الفائدة .

ويبدو أنّ هذا المنهج القائم على توسيع الدلالة الوضعية للألفاظ هو المنهجُ الذي اقتفاه السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره ، وقد لمسناه في مواضع أُخرى من التفسير [٣] .

ومنهج توسيع الدلالة عند صاحب الميزان لم يكن أمراً جزافياً ، لا يستند فيه إلى أساس علمي ، فهو يستفيد أولاً من سعة أفقه وثقافته الفلسفية والعرفانية التي خلقت عنده نزوعاً إلى التعلق ومحاولة المعرفة بالمعاني والمفاهيم الكلية للأشياء .

وثانياً : الاستفادة من المعطيات القرآنية والروائية ، فإنّ تفسيره قائم بمحتواه الأساس على فكرة تفسير القرآن بالقرآن ، وهو هنا في مفهوم التسبيح يستفيد أولاً من القرآن الكريم الذي يثبت هذا الأمر لجميع الموجودات ، ويستفيد ثانياً من الروايات التي دلّت على تسبيح كثير من الموجودات تسبيحاً حقيقياً مفهوماً كما جاء ذلك في الروايات من الفريقين [٤] .

ومن خلال هذه النماذج التي عرضناها للمجاز العقلي في هذه السورة يتحققُ ما قلناه من توصيف هذا النوع من المجاز بأنّه في أغلب صوره يتصف أمّا بكونه من المجاز الذي سميناه بالمجاز النائم ، الذي لا يُثير غرابة ولا دهشة للألفة الحاصلة ، أو كونه مما يمكن حمله على الحقيقة وذلك بإمكان فرض توسيع الدلالة الوضعية وإعطائها صفة مفاهيمَ كليةٍ من دون تكلف لا يستند إلى أُسسٍ علمية .

٣- سورة فصلت : ١١ .

٤- ينظر : تفسير الميزان : ١٠٧ وما بعدها .

١- ينظر مثلا : الميزان : ٧ /٣٣٨ .

٢- ينظر مثلا : روح المعاني ٨ / ٨١ -٨٢ ، وتفسير الميزان : ١١٨ -١٢٠ .

ب / المجاز المرسل :

المجاز المرسل ((هو الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة ، مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوضعي))[١] .

وهذا النوع من المجاز يكون في استعمال الكلمة المفردة ونقلها من مجالها الدلالي الوضعي إلى مجال آخر ، وليس في الإسناد كما هو الحال في المجاز العقلي المتقدم . وهذا النقل يجب أنْ يكون بملاحظة إحدى العلاقات التي تربط بين المجالين ، فإذا كانت العلاقة هي التشبيه فتلك هي الاستعارة ، وإذا كانت علاقة أُخرى غير التشبيه فهذا هو المجازُ المرسل .

وقد سمي هذا النوع من المجاز مُرسلاً ، للتمييز بينه وبين الاستعارة التي تندرج معه في ضرب المجاز اللغوي أو المفرد ، فإنّ الاستعارة مقيدةٌ بادّعاء أنّ المشبّه من جنس المشبّه به ، والمجاز المرسل مطلقٌ من هذا القيد ، أو لإرساله ، أي : إطلاقه عن التقييّد بعلاقة مخصوصة ، بل رُدّدَ بين علاقات كثيرة مختلفة ، بخلاف الاستعارة فإنّها بعلاقة واحدة وهي المشابهة [٢] .

ولعلّ الشيخ عبد القاهر الجرجاني أوّل من أشار إلى هذا النوع من المجاز وأشار إلى الفارق الدقيق بينه وبين الاستعارة في معرض حديثه عن المجاز اللغوي حيث يقول : إنّ كلّ استعارة مجاز وليس كلّ مجاز استعارة ، وذلك أنّا نرى كلام العارفين بهذا الشأن .... يجري على أنّ الاستعارة نقلُ الاسم عن أصله إلى غيره ، للتشبيه على حد المبالغة وهذا ما يستحق منّا أنْ نصفه بالاستعارة من طريق المعنى وذلك لأنّ من شأن العارية أنْ تكون عند المستعير على صفة شبيهةٍ بصفتها وهي عند المالك ، ولا تتوفر هذه الصورة إلاّ فيما نُقل نقل التشبيه للمبالغة ، وأمّا ما كان منقولاً لا لأجل التشبيه ، كاليد في نقلها إلى النعمة فلا يوجد ذلك ؛ لأنك لا تثبت للنعمة بإجراء اسم اليد عليها شيئاً من صفات الجارحة المعلومة ولا تروم تشبيها بها البتة ، لا مبالغاً ولا غير مبالغ ، ففي الاستعارة تريد بقولك : رأيتُ أسداً أنْ تثبتَ للرجل الأسدية ، ولست تريد بقولك : لك عندي يدٌ أنْ تثبتَ للنعمة اليدية وهذا واضح جداً [٣] .

والثابت في تاريخ البلاغة العربية أنّ السكاكي هو أوّل من أطلق مصطلح المرسل على هذا النوع من المجاز [٤] . وقد تابعه في ذلك الخطيب القزويني ، حيث عرّفه مستفيداً من جملةِ الآراء التي سبقته بأنّه : ((هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه كاليد إذا استعملت في النعمة لأنّ من شأنها أنْ تصدُر عن الجارحة ومنها تصل إلى المقصود بها ، ويشترط أنْ

٣- جواهر البلاغة : ٢٥٤ .
١- ينظر : البلاغة والتطبيق : ٣٣٣ .
٢- ينظر : أسرار البلاغة : ٣٤٦ -٣٥٢ .
٣- ينظر : البلاغة والتطبيق : ٣٣٢ ، وأصول البيان العربي : ٥٠ .

يكون في الكلام إشارة إلى المولي لها ، فلا يقال : اتسعت اليد في البلد ، أو اقتنيتُ يداً ، كما يقال : اتسعت النعمةُ في البلد أو اقتنيتُ نعمة ، وإنّما يقال : حلّتْ يده عندي ، وكثرتْ أياديه لدي)) [١] .

علاقات المجاز المرسل :

لابد من تحقيق هذا النوع من المجاز والانتقال بالكلمة المفردة إلى غير معناها الأصلي من وجود علاقة بين المعنيين تسوغ هذا الانتقال ، على أن لا تكون هذه العلاقة هي المشابهة .

وعلاقات المجاز المرسل كثيرة وغير محدّدة أو مقيدّة بضوابط معينه ، وإنّما تخضع لميزان الذوق وعرف الاستعمال العربي الأصيل ، ولذلك صار هذا الفن متسعاً رحباً بين الأديب والمتكلم للتعبير عن مدلولات وأفكار مختلفة .((والمجاز المرسل ، وإن كان مدار الحديث في الصلة بين النفس والإرادة الاستعمالية ، ورمز التطور اللغوي في الانتقال من معنى إلى معنى إلاّ أننا يجب أن لا نتطرف فيه وفي ادّعاء انطباقه على صنوف التعبيرات اللغوية حتى وإنْ أُريد معناها الأصلي ، لأنّ ذلك مّما يشوّه حقيقة البيان ودلالته البلاغية ومّما يحمّل الكلام أكثر من طاقته التي تنهض به إلى مستوى التعبير الأدبي فيعود ذلك تكلفاً مقيتاً وتمحّلاً مذموماً ترفضهما طبيعة النصوص الأدبية الراقية)) [٢].

وقد رصد بعض الدارسين جانباً من هذا الغلو والتكلف في تصيّد موارد التعبير المجازي في القرآن الكريم ورفَضَه ، لانه تحميلٌ للألفاظ غير ما أُريد بها[٣].

ويبدو أنّ السبب في هذا التكلف هو شغف هؤلاء به وقولهم بأفضليته على الحقيقة وأنه موطن الجمال والأسرار ، ناسين أنَّ للحقيقة موقعها وأصالتها وأسرارها أيضاً .

وقد ذكر البلاغيون علاقات كثيرة للمجاز المرسل ، منها :

السببية والمسببية ، والكلية والجزئية ، والآلية ، واللازمية والملزومية ، واعتبار ما يكون ، والعموم والخصوص ، وما إلى ذلك ......

المجاز المرسل في السورة :

ومن صور المجاز في سورة الإسراء قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [٤]

فقد ورد في هذه الآية الكريمة أكثر من موضع للمجاز ، أحدها : أنْ يكون المراد بقوله تعالى

٤- الإيضاح : ١٥٤ .
١- أصول البيان العربي : ٥١ -٥٢ .
٢- ينظر : من بلاغة القرآن : ٢٢٤ وما بعدها .
٣- سورة الإسراء : ٦٤ .

((بصوتك)) ، أصواتَ المغاني والملاهي ، وجعل ذلك صوتاً له من حيث كان الداعيَ إليه والحاملَ عليه [1] .

وعلى هذا الفهم فإنَّ كلَّ ما يدعو إلى الغواية ، من أصوات الغناء والدعاية الإعلامية التي تنشر الرذيلة والتحلل ، صوتٌ من أصوات الشيطان وصورة من صور غوايته .

ويقابل هذا الفهم رأيٌ آخر يقول إنَّ المراد بالصوت . الدعاءُ إلى معصية الله عن طريق الوسوسة ، وعبّر عن الدعاء بالصوت تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له كصوت الحمار [2] ، وكناية عن استخفافهم بالوسوسة الباطلة ، وتمثيلاً بما يُساق من الغنم وغيره بالنعيق والزجر [3] .

والموضع الآخر هو قوله تعالى :

﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾

فالخيلُ يُطلق على (الأفراس) حقيقة ، ولا واحد له من لفظة ، وقيل : إنّ واحده ، خائل ؛ لاختياله في مشيه ، ويطلق على الفرسان مجازاً وهو المراد هنا ، ومنه قوله (صلى الله عليه وآله وسلّم) ، في بعض غزواته لأصحابه : ((يا خيل اللهِ اركبي)) [4] ، وهذا المجاز المرسل علاقته المحلّية ، وتكون بذكر لفظ المحل ويراد به الحالّ ، فذكرت هاهنا الخيل وهي المحل وأريد بها الحالّ وهم الفرسان ، كقوله تعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾[5] ، والمراد من يحلُّ بالنادي ، كقوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [6] أي : ألسنتهم ، لأنّ القول لا يكون عادةً إلاّ بها .

والرَجِل ، بكسر الجيم : فَعِل بمعنى فاعل ، فهو صفة كحذِر بمعنى حاذر ، يُقال : فلان يمشي رجِلاً ، أي : غير راكب [7].

والتعبير عن أعوان إبليس بالخيل والرجِل يدل على كثرتهم وتنوعهم ، فمنهم من يعمل بسرعة وقوّة كما هو شأن الفرسان في المعركة ، ومنهم دون ذلك كالرَّجالة التي تُناط بهم مهمات تختلف عن مهمة الفرسان .

فهذا التعبير المجازي مضافاً إلى هذا التمثيل والتصوير لحركة إبليس وأعوانه ، وهذه الألفاظ الحربية المخيفة ، ينبغي أنْ توقظ الإنسان وتنبهه إلى جدّية ما يعمله الشيطان في سبيل إغوائه وتضليله وإهلاكه بهذه الجيوش المنظمة الجّرارة التي لا تني في بثّ الرذائل والشكوك التي تنخر في جسد الإنسان وروحه .

١- ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : ١١٨ .
٢- ينظر: روح المعاني : ٨ /١٠٥ .
٣- ينظر : تفسير الميزان : ١٤٣ .
٤- ينظر : روح المعاني : ٨ / ١٠٦ .
٥- سورة العلق : ١٧ .
٦- سورة آل عمران : ١٦٧ .
٧- ينظر : روح المعاني : ١٠٦/٨ .

والمجاز الثالث في هذه الآية هو قوله تعالى :

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ ﴾ [١]

فإنّ مشاركة الشيطان للإنسان في أمواله وأولاده لا يمكن حملها على الحقيقة ، وإنّما شركته بما هو سببٌ في حملهم على كسبها مما لا ينبغي ، وصرفها فيما هو غير شرعي ، على وجه التمرد والعصيان اللذين هما من طبائع الشيطان ، ولذلك نرى المفسرين يذكرون وجوهاً لهذه الشركة كلّها يمكن أنْ تكون صحيحة ، فللمشاركة في الأموال تذكر عدّة وجوهٍ منها [٢] :

الأول : أنّ المراد : ما ينفقون من أموالهم في المعاصي وفي ما يدعوهم إليه الشيطان من الغوايات .

الثاني : أنْ يكون المراد هو ما كان يوسوس به الشيطان للإنسان بأنْ يجعل في أمواله شيئاً لغير الله سبحانه كما قال اللهَ تعالى حكايةً عنهم :

﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [٣]

وللمشاركة تُذكر وجوهٌ منها : [٤]

الأوّل : أنّ إبليس يدعوهم إلى العلاقات غير الشرعية المحرمة ، فيكون ما ينتج من ذلك من أولاد وكأنّه قد شارك فيهم ؛ لأنّه الداعي إلى سبب هذه العلاقة المحرّمة .

الثاني : أنْ يكون المراد تسمية أولادهم : عبد الحارث ، وهو إبليس عندهم ، وعبد العزى وعبد يغوث ، وعبد مناف ، وما يجري هذا المجرى من أسماء الأصنام .

الثالث : أنْ يستعملوا أولادهم فيما يكرهه اللهُ ، ويرضاه الشيطان أو يربّوهم على مِلَلٍ ومعتقداتٍ فاسدة هي من صنع الشيطان وغواياته ، فمشاركته إياهم في الأولاد بأنّهم هوّدوهم ، ونصّروهم ، ومجّسوهم .

وفي كل هذه الوجوه فإن مشاركة الشيطان ، هاهنا ، هي مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأنه الداعي إلى كل ذلك وهذا وجهُ شركته مع الإنسان الغافل أو المتغافل عن حِيَل الشيطان وخططه للنيل من شرفه وكرامته والعبث بمقدراته وأفكاره وممتلكاته الخاصة ، والتدخل السافر في تحديد نمط حياته وحاضره ومستقبله ، وهذا المجاز إشارةٌ إلى هذه الإهانة الموجهة للإنسان الحر ، العاقل ، المفكر ، الذي كرّمه الله تعالى على كثيرٍ ممن خلق وهداه إلى ما يصلحه في حياته ، ونبهه إلى أشد أعدائه وهو الشيطان وطرق مكره وحيَله ...

ومن موارد المجاز المرسل في هذه السورة قوله تعالى :

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [١]

١- سورة الإسراء : ٦٤ .
٢- ينظر : تلخيص البيان : ١١٩ ، وتفسير الميزان : ١٢ / ١٤٣ .
٣- سورة الأنعام : ١٣٦ .
٤- ينظر : تلخيص البيان :١١٩، وتفسير الميزان :١٢/ ١٤٣ .

فقد عبر عن صلاة الفجر (بالقرآن) ، وهو تسمية الشيء بأحد أجزائه الهامة المعبرة عن خصوصية ذلك الجزء ، وفي ذلك إشارة إلى الاعتناء بالقراءة في هذه الصلاة والجهر بها ، وتحسينها ، وتطويلها ، ويزيد من شدة ذلك الاهتمام قوله تعالى : ((إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً)) ، أي : تشهده ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار ، ولو التفت الإنسان إلى ذلك الشهود ، كيف يكون اهتمامه وعنايته وقراءته في تلك الصلاة ، التي رغَّب اللهُ سبحانه إليها بهذا الأمر المهيب؟!

ومن صور المجاز المرسل في السورة أيضاً قوله تعالى :

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ [٢]

فهذه الآية الكريمة تصفُ كيفية استماع المشركين للنبيّ ، (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، عند تلاوة القرآن الكريم ، بأنهم (نجوى) وهو مصدر ، والأصل : متناجون ، والعدول إلى المصدر يوحي بأنهم قد تلبسوا بهذه الصفة حال استماعهم القرآنَ الكريم ، وفي ذلك مبالغة في التوصيف حتى كأنّهم قد تحوّلوا إلى الصفة نفسها وهي النجوى . وهذا العدول إلى المصدر قد يُلجأ إليه في مثل هذه المواضع عندما يراد المبالغة في الوصف واستغراق الذات وشدّة تلبسها في الصفة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [٣]. وهذا العدول بالصيغة ، وإقامة صيغة مقام أُخرى لمورد بياني يُعدّ من صور المجاز المرسل كما في الآية المباركة ، التي يُشعر فيها المجاز بشدّة تسترهم واستخفائهم خوفاً من أن يحسّ النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنون بموقفهم فيفتضحوا ، وحفاظاً على موقفهم العدائي ورفضهم المبدئي لما يستمعون يواسي بعضهم بعضاً بهذه المنجاة وهي قولهم ((إنْ تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً)) ، ويقيمون عليها تثبيتاً لموقفهم المهزوز الذي لا يصمد أمام حقيقة القرآن الكريم ، ومن خلال هذه النماذج من سورة الإسراء ، نجد أن المجاز قد أسهم في تسليط الضوء على الجوانب المركزية للصورة التي يرسمها التعبير القرآني بالاعتماد على ملاحظة إحدى هذه العلاقات التي تربط بين المعاني دون التفريط بالمعنى الأصلي للتعبير ، وهذه هي السمة البارزة والقيمة الجمالية لهذا النوع من المجاز ، فعندما نقول : بأن (قرآن الفجر) هي صلاته ، وأن معنى (وإذ هم نجوى) أي : متناجين ، وأن معنى (هزم القائدُ العدوَ) أي : جنوده ، ليس معنى دقيقاً ؛ لأنّ هذه التعبيرات تدل على هذه المعاني مع ملاحظةِ خصوصيةٍ زائدةٍ تؤدّيها هذه العلاقة المذكورة ، وهذه هي الغاية من الانحراف في التعبير إلى صيغته الجديدة .

١- سورة الإسراء : ٧٨ .
٢- سورة الإسراء : ٤٧ .
٣- سورة الحج :٣٧ .

ج / الاستعارة :

وهي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنيين مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي [١] وتعريفها مأخوذٌ من المعنى اللغوي للكلمة، فهو من قولهم : ((استعار المال طلبه عارية)) [٢]

وقد مر تعريف المصطلح قبل استقراره على يد علماء البلاغة المتأخرين بانتقالات كثيرة على أيدي اللغويين والمصنفين وعلماء البيان ، بين السعة لتشمل المجاز اللغوي دون التمييز بين الاستعارة والمجاز المرسل ، وبين القصور وعدم الدقة في التعريف [٣] ، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني ومن بعده ، حيث أعطوا المصطلح صيغته العلمية في حدٍ راسخ لم يخرج البلاغيون عن مداه حتى أيامنا هذه ، حيث يعرفها الجرجاني بقوله : ((أنْ تريد تشبيه الشيء بالشيء وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه)) [٤] .

أمّا السكاكي فقد كان أكثر دقة في تعريفه من حيث إشارته إلى الاستعارة بضربيها : التصريحية والمكنّية ، حيث يقول في تعريفها : ((هي أنْ تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مدّعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخصُّ المشبه به)) [٥] .

والاستعارة في جوهرها ليست إلاّ تشبيهاً مختصراً ولكنها أبلغ منه ، لأنّ أصلها تشبيه حذف أحدُ طرفيه ووجه الشبه وأداته ، كقولنا : (رأيتُ أسداً) ، و (رنتْ لنا ظبيةٌ) ، ونحن نعني الرجل الشجاع والمرأة الحسناء ، وكقولنا : (أبديتَ نوراً) ونعني به هدىً وبياناً وحجةً ، وما شاكل ذلك . والتشبيه مهما تناهى في المبالغة فلابد فيه من ذكر المشبه والمشبه به وهذا اعتراف بتباينهما وأنّ العلاقة ليست إلاّ التشابه فلا تصل إلى حدّ الاتحاد .أمّا الاستعارة ففيها دعوى الاتحاد وأنّ المشبّه والمشبّه به صارا معنىً واحداً يصدق عليهما لفظٌ واحد .

فالاستعارة إذن تقومُ على عنصرين متميزين هما : التشبيه ، والمبالغة التي تصل إلى حدّ الادعاء بأنّ المشبه هو عينُ المشبّه به ، فمن أراد تشبيه الرجل بالأسد ((ألقى صورة الشجاعة بين عينيه وألقى ما عداها فلم ينظر إليه فإنْ هو قال : زيدٌ كالأسد كان قد أثبتَ له حظاً ظاهراً في الشجاعة ولم يخرج

١- ينظر : جواهر البلاغة : ٢٦٤ .
٢- البلاغة والتطبيق : ٢٤٣ .
٣- ينظر : أقوال العلماء في تعريف الاستعارة : التصوير البياني :١٩٢ وما بعدها ، والبلاغة والتطبيق : ٣٤٣ ، و أصول البيان العربي :٩٠ وما بعدها
٤-. دلائل الإعجاز : ١٠٦ .
١- مفتاح العلوم : ١٧٤ .

عن الاقتصاد ، وإذا قال : هو الأسد ، تناهى في الدعوى أمّا قريباً من المحق لفرط بسالة الرجل ، وأمّا متجوّزاً في القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً)) [١].

وعلى هذا تكون كل استعارة هي تشبيه مختصر وليس كل تشبيه هو استعارة ، فالنسبة بينهما هي نسبة العموم والخصوص المطلق .

بلاغة الاستعارة وحسنها في الاستعمال القرآني :

تميّز الأسلوب القرآني باعتماد التنوع في الاستعمال لأدوات وقنوات التعبير المختلفة التي كانت سائدة في الكلام العربي، وأربى عليها، سواء أكان ذلك بإضافة أساليب جديدة لم تستعمل سابقا، أم بتحسينها وتجديدها وإضافة عناصر جديدة إليها ، وتنوع صورها ، كما نلمس ذلك واضحا في تنوع وتجدد الصور البيانية التي جاء بها القرآن الكريم في موارد التشبيه والاستعارة والمجاز وغيرها من الفنون الأخرى التي تحمل معها كثيرا من الصور الطريفة والمعبرة والمجسّدة للمعاني بطريقة تثير الإحساس والشعور لدى المتلقي وتهيجه مهما كان مستواه الثقافي واستعداده الفكري ، وهذا سر آخر من أسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم .

والاستعارة ذلك الفن الساحر الذي ألفه الإنسان في لغته وأصغى إليه ، وترصد مواضعه الخفية ، كان أداة هامة من أدوات التعبير في القرآن الكريم ، حيث وُظِفَ توظيفا حسنا ومفيدا في المواضع التي تكون صالحة لمورد الاستعارة ، بحيث تكون سهلة منقادة ، لا متكلفة ولا مقحمة في التعبير ، فليس كل تشبيه صالحا للمبالغة وادعاء الاتحاد بطريق الاستعارة ، كما قد يغالي بعضٌ في هذا المذهب وهذا ما يؤدي بالتعبير إلى الرمز الذي يصعب فهمه والمقاربة بين أجزائه، فمثلا لو قلنا بدل قوله تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ)[٢] ، : إنما مثل الحياة الدنيا ماء أنزلناه من السماء ، لم يكن للكلام وجه إلا أن تقدّر (مثل) ، وذلك لأنه لا يتصور بين الماء والدنيا شبه يصح قصده . [٣]

وكذلك في قوله تعالى : (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ) [٤]، فيما لو قلنا : (هم صيّبٌ) ، لأنه لا معنى لجعلهم (صيّبا) في هذا الموضع وإنْ كان لا يمتنع ذلك الاستعمال على وجه المبالغة أو الاستعارة في موضع آخر ، كقولنا : فاض صيّبٌ منه ، ونريد جوده ، فكلما كان الشبه وصفا

٢- أسرار البلاغة : ٢١٨ .
١- سورة يونس : ٢٤ .
٢- ينظر : أسرار البلاغة : ٢١٥ -٢١٦ .
٣- سورة البقرة : ١٩ .

معروفا في الشيء بأن يشبه من أجله به وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه فالاستعارة تكون حسنة ومعتادة ، ومتى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح وطريقها أوضح .[١]

ومتى كانت الاستعارة بهذه الدقة التي تلائم بين الأشياء ، وتفرق بين وجوهها المتماثلة كانت ((أشد افتتانا ، وأكثر جريانا ، وأعجب حسنا وإحسانا ، وأوسع سعة ، وأبعد غورا وأذهب نجدا في الصناعة وغورا من أنْ تجمع شعبها وشعوبها وتحصر فنونها وضروبها ، نعم وأسحر سحرا ، وأملأ بكل ما يملأ صدرا ، ويمتع عقلا ، ويؤنس نفسا ، ويوفر أنسا)) [٢] .

وقيمة الاستعارة فنيا وجماليا تكمن في عدد من الخصائص التي تُكسب النص طابع الحيوية والإثارة والجمال ، فهي تنتقل بالنص من الجمود اللفظي المحدد له ، إلى المرونة في الاستعمال وعدم التقيد بقوالب جاهزة للتعبير ، وكذلك تتميز بإعطاء صفة الفعل لمن لا يفعل والحركة والتصرف لكل الممكنات في هذا العالم ، فليس هناك شيء لا يتكلم أو جماد لا يعقل ولا يسبّح ولا يعي ما حوله، فضلا عما توفره الاستعارة من تهويل الأمر ودقة المبالغة وشدة الوقع [٣] .

وهذا ما نص عليه عبد القاهر الجرجاني إذ يصفها بأحسن وصف وأدقه ، حيث يقول : ((من الفضيلة الجامعة فيها : أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة ، تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا ... فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية ، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها اعز منها ولا رونق لها ما لم تزنها ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها ، وإنْ شئت أرتكَ المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإنْ شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون)) [٤]

بلاغة الاستعارة في سورة الإسراء :

سورة الإسراء من السور التي توشحت وتزينت بأنواع مختلفة من الأساليب البيانية التي من أهمها الاستعارة التي شكلت ظاهرة متميزة وأكسبت هذه السورة مسحة جمالية في الأسلوب وطرافة في التصوير ، وقدرة في تجسيد المعاني الذهنية والحقائق الغيبية بقوالب محسوسة ومؤثرة يتفاعل معها القارئ والمستمع بما توفره من متعة الأسلوب وغزارة الصور الحية التي تبعثه على كثير من التأمل والتفكر وبما لها من قوة الإيحاء على الترغيب والترهيب لدى الإنسان.

٤- ينظر : أسرار البلاغة : ٢١٧ .
٥- أسرار البلاغة : ٣٢ .
١- ينظر : أصول البيان العربي : ٩٤ -٩٥ .
٢- أسرار البلاغة : ٣٣ .

ومن هذه الصور التي بنيت على الاستعارة قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) [١] ، حيث استعير (المحو) لآية الليل ، و(الإبصار) لآية النهار ، وقد يفهم المقصود بأية الليل ، أنه الليل نفسه ، وبآية النهار أنه النهار نفسه ، كما يقال نفس الشيء ، وعين الشيء ، وعلى هذا تكون الإضافة هنا بيانية ..

والذي يدل على ذلك أنّ الليل والنهار آيتان من آيات الله سبحانه، وقد صرح القرآن الكريم بذلك بقوله تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين) .

وقيل : إنّ الآيتين هنا هما الشمس والقمر ، فمحونا آية الليل وهي القمر ، أي: طمسنا نوره بما جعلنا فيه من السواد ، وجعلنا آية النهار، وهي الشمس ، أي: نيرة ومضيئة ، والذي يساعد على ذلك أنّ الشمس والقمر ، آيتين من آيات الله تعالى أيضا .

وقيل على فهم ثالث : إنّ آية الليل ظلمته ، وآية النهار ضوؤه [٢].

وفي جميع الآراء والأفهام تجري استعارة (المحو والإبصار) في هذا الموضع وتصلح كأداة تصويرية دقيقة لهذه المشاهد المتعاقبة من الظلمة والنور ، وتنسجم معها . فالتعبير بأنّ الليل آية ممحاة ، والنهار آية مبصرة ، وبعد الوقوف على حقيقة المحو الذي هو ((طمس أثر الشيء ، من قولهم : محوت الكتاب إذا طمست سطوره حتى يشكل على القاري ويخفى على الرائي)) [٣] ، يُشعر بأنّ الله سبحانه خلق هاتين الآيتين ، وهما الليل والنهار، إحداهما مظلمة خافية ، والأخرى مبصرة مضيئة ، والجعل ها هنا فعل تكويني بمعنى الخلق ، أي: خلقهما سبحانه بهذه الكيفية يوم خلقهما ، واستعارة (المحو) هنا لليل توحي بالمقايسة بين الليل والنهار ، وكأن الليل هو نهار قد محي أثره واندرس بعد سطره ، فبعد أنْ كان النور والإبصار وما يرى ويشاهد من صفحات الوجود وما يتبعه من التوقف والسكون والراحة ، وكأن الوجود أصبح مختفيا ومعطلا عن مقارنة الأعمال ، ولاشك في أنّ هذا التصوير ينطوي على كثير من الإيحاء والمبالغة وهذا هو سر جمال الاستعارة وقدرتها على التوصيل .

أما من قال بأنّ آية الليل هي القمر وآية النهار هي الشمس فهو وإنْ كان ينسجم مع هذه الاستعارة ، حيث يمكن القول بأنه تعبير عن ذلك الكلف في صفحته حتى يقصر نوره عن نور الشمس [٤] ، وقد يطمح بنا الخيال فنصور أنّ القمر عندما يأخذ مواقعه من صفحة الوجود يُمسح شيئا فشيئا بعد ذلك

٣- سورة الإسراء : ١٢ .

١- ينظر تلخيص البيان : ١١٣ ، مجمع البيان : ٢٦٠

٢- تلخيص البيان : ١١٣ .

٣- ينظر : المصدر نفسه : ١١٣ .

ويُمحى أثره ، فهو وإنْ كان كذلك ، إلاّ أنه ، من خلال سياق الآية الكريمة ، يتضح لنا أنّ الكلام كان في الآيتين أنفسهما ، وهما الليل والنهار ، لا في آيتي الآيتين ، والذي يدل عليه هو قوله تعالى : (لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ)[1] ، الذي هو متفرع عن ضوء النهار وظلمة الليل وتابع لهما ، لا على ما يُرى في وجه القمر أو حركته في صفحة الوجود ، وخلو قرص الشمس من ذلك ، فضلا عن أنّ الليل لا يرتبط ارتباطا ذاتيا بالقمر ، فقد يكون قمر ٌ ولا يكون ليل ٌ ، وقد يكون ليل ٌ ولا قمر ، فالليل هو آية بنفسه ، كما أنّ القمر آية بنفسه أيضا ، والمقصود من المحو ها هنا اندراسه وحفاؤه وسكونه إذا ما قيس بنور النهار وضوئه وحركته ونشاطه ، وتشبيهه بالمحو بجامع الاندراس والخفاء في كل منهما .

ومما جاء أيضا من حسن الاستعارة في هذه السورة ، قوله تعالى : (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)[2] .

ففي هذه الآية تواجهنا صورة فنية جديدة مبنية على استعارة طريفة موروثة من خبرات الناس وثقافتهم في زمن صدور النص ، حيث تعبر هذه الصورة عن عمل الإنسان، خيره وشره وسوء عاقبته أو حسنها ، بالطائر ، وهي استعارة تصريحية لعمل العبد، لأنه سبب الخير والشر ، فمن الخبرات المأثورة عند العرب وقتذاك أنهم كانوا يزجرون الطير فيتفائلون أو يتشائمون منه ، وأصل ذلك أنّ الطائر يجعل ميامنه إلى مياسرك فيكون (سانحا) ، وقد يجعل مياسره إلى ميامنك فيكون (بارحا) ، وفي حالة كونه سانحا أمكن رميه وهو مبدأ التفاؤل ، وإذا كان (بارحا) لم يمكنه ذلك وهو مصدر التشاؤم عندهم [3] .

هذه الموروثة الاجتماعية النفسية وظفها النص القرآني في صور رمزية تجسد مصير الإنسان الذي سيواجه يوم القيامة فيتفاءل به إذا كان خيرا ، أو يتشاءم إذا كان شرا ، حسب ما قدمه من الطاعات أو المعاصي .

وهذه الصورة تكتمل بإضافة عنصر رمزي آخر وهو (العنق) الذي يعلق عليه عمل الإنسان ، وهو تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط وعدم المفارقة بحال ، كما تلازم القلادة ذلك الموقع ، أو لأنّ العنق هو العضو الذي يصلح أنْ يكون دالاً على هوية صاحبه ومشخصا لها ، لأنه لا يمكن أنْ يفارق الإنسان بخلاف الأطراف الأخرى ، كاليد ، والأرجل ، فهو العضو الذي يوصل الرأس بالصدر فيشاهد ما يعلق عليه بوضوح .

٤- سورة الإسراء : ١٢ .
١- سورة الإسراء : ١٨ .
٢- ينظر : تلخيص البيان : ١١٤ ، وتفسير البيان : ٥٣ – ٥٤ ، و دراسات فنية في صور القرآن : ٣١٤ .

كل هذا التصوير من أجل إبراز المعنى واضحا لدى الإنسان الذي اعتاد هذه الصور المحسوسة وتفاعل معها وبنى عليها الآثار ، وألزم نفسه نتائجها .

ومن الصور الرائعة التي جاءت عن طريق الاستعارة في السورة قوله تعالى : (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)[1] .

فبعد التعبيرات المباشرة بضرورة احترام الوالدين وطاعتهما بعد طاعة الله سبحانه ، والتأكيد على ذلك تأتي هذه العبارة اللطيفة المعبرة عن بعض التوجيهات الأخلاقية والمعنوية التي لا تستطيع العبارة المباشرة تأديتها تامة ، فكانت هذه الصورة المستعارة من غير واقع الإنسان ومن لغة غير لغته للتعبير عن مشاعر وعلاقة خاصة تجاه والديه ، قائمة على الأدب الرفيع والتواضع الجم ، والرحمة المتناهية .

والهامّ لدينا هنا هو كيف تم هذا التصوير ، وما هو سر الانتخاب الدقيق لهذه الاستعارة اللطيفة ؟

لقد أوضح الأمام الصادق (عليه السلام) أنّ المقصود من خفض الجناح هو أنْ ((لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلاّ برحمة ورقة ، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يديك فوق أيديهما ولا تتقدم قدامهما)) [2] .

والقرآن يختصر ويصور هذه الآداب بعبارة فنية وصورة رمزية ، حيث يستعير عبارة (جناح الذل) وهي استعارة مكنية تخيلية ، حيث يشبه (الذل) بطائر حط من علٍ تشبيها مضمرا ويثبت له الجناح تخييلا، ثم يذكر ملائما له وهو (الخفض) على حد الاستعارة المرشحة ، وذلك لأنّ الطائر إذا أراد الطيران والعلو نشر جناحيه ورفعهما فإذا ترك ذلك خفضهما [3] .

والصورة تكون أكثر وضوحا عندما نرى الطائر وهو يحنو بجناحيه على أفراخه الصغار ، وها هنا صورتان متضادتان يصعب على البشر غالبا التوفيق بينهما ، وهما صورة الشعور بالقوة والتفوق والعلو ، في مقابل صورة اللين والشفقة والرحمة ، ولكن الصورة الأصعب عندما يطلب من الإنسان القوي الخضوع والتواضع الشديدين للآخر الضعيف ، وذلك لا يكون إلاّ لمن تتوفر فيه سمة الفوقية والحاجة معا [4] ، فالوالدان من جانب لهما إحسان وفضل لا يمكن وصفه تجاه الولد، مع ما يتمتعان به من ميزة الأبوة ، وهي صفة فوقية جليلة القدر ، كما أنهما من جانب آخر قد جعلهما كبر السن والفارق الزمني والثقافي والنفسي شخصين ضعيفين يحتاجان إلى الرعاية والتلطف ، ومن هنا جاءت هذه الاستعارة مناسبة ودقيقة لتصوير هاتين الحالتين المتضادتين (الخضوع والشفقة) من خلال خفض الجناح الذي يعني أولاً : الهبوط وعدم التعالي والتواضع وترك الاستعلاء ، والانكسار أمام الأبوين ،

١- سورة الإسراء : ٢٤ .
٢- بحار الأنوار:١٦ / ٤٢ .
٣- ينظر : روح المعاني : ٨ / ٥٥ .
٤- ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : ٣١٧ .

وثانيا : شملهم بحنانه وعطفه ورعايته ، كما يهبط الطائر المحلق ليلف أفراخه بدفء وتلطف ومحافظة .

ولكي يحافظ المشهد على هذين الخُلقين الإنسانيين العظيمين اللذين صورتهما هذه الاستعارة (جناح الذل) ، ولكي لا يخرجا عن الحد الإنساني المألوف ، برز في هذا المشهد عنصر آخر متمم للصورة وهو (من الرحمة) ، فهو ذل وتواضع كريم مصدره القوة والرحمة ، وليس ذل الضعف والهوان الذي مصدره الخوار والفشل والتبعية مما لا ينسجم مع شخصية الإنسان المؤمن العزيز .

ومن الاستعارات الأخرى المؤثرة في السورة ، قوله تعالى على لسان إبليس: (لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً)[1] وهي استعارة على أحد تأويلات المعنى ، وهو أن يكون (الاحتناك) ها هنا (افتعالا) من الحَنَك ، ومن قولهم : حَنَك الدابة واحتَنَكها ، إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به . والمعنى : لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحنكها غير ممتنعة على قائدها ، وهو عبارة عن شدة التمكن والاستيلاء [2] .

ولهذه العبارة التي اختيرت لوسوسة الشيطان واستيلائه على إرادة الإنسان بجامع الانقياد والإتباع في كل منهما ، وقع شديد، لإبرازه بصورة مخجلة مضحكة مؤلمة وهي تظهر الإنسان الذي كرمه الله تعالى وخلقه بأحسن صورة وهو يعبث به الشيطان ويجره إلى الردى كما تجر الدابة من حنكها إلى حيث مهلكها ، صاغرا ذليلا مطيعا محتقرا بين يدي عدوه اللدود إبليس الذي ناجزه العداوة وقطع وعدا بوحدة المصير .

وقد يذكر تأويل آخر لكلمة (الاحتناك) ، حيث يقول بعضهم : ((معنى لاحتنكن ذريته ، أي: لألقين في أحناكهم حلاوة المعاصي حتى يستلذوا بها ويرغبوا فيها ويطلبوها))[3] ، وعلى ذلك يكون التعبير حقيقيا .

وذكر آخرون أن معناه : لأستأصلن ذريته ولأستقصين إهلاكهم بالإضلال ، من قولهم احتنك الجراد الأرض إذا أهلك نباتها وجرد ما عليها ، واحتنك فلان مال فلان إذا أخذه وأكله [4] .

والذي يظهر من السياق أن المعنى الأول القائم على الاستعارة هو الأصل في هذا الباب وإليه ترجع المعاني الأخرى ، ومما يبعث على الاستئناس بهذا المعنى المصور ، ما يذكر في الآية بعد ذلك من

١- سورة الإسراء : ٦٢ .
٢- ينظر : تلخيص البيان : ١١٧ ، وروح المعاني : ٨ / ١٠٤ .
٣- تخليص البيان : ١١٧ .
١- ينظر : المصدر نفسه : ١١٧ . ، وروح المعاني : ١٠٤/٨.

مشهد الانقياد والإتباع حيث يقول تعالى :(قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً) [١] .

هذه هي أهم ما جاء في هذه السورة من المعاني المجازية القائمة على الاستعارة ، إذ طبعت مفرداتها وتراكيبها بطابع التصوير والتجسيم والمبالغة التي تعطي للمعاني غير المألوفة وغير المشاهدة بعدا حقيقيا يتأثر به المتلقي ويتفاعل معه ، لاندراج هذا الفن في مسلك المحسوسات ، ولغرابة وطرفة الربط بين المعاني التي تضيف للمتلقي ثقافة ومعرفة ومتعة .

لقد ألمحنا سابقا إلى أن ميزان التعرف على الكلمة المستعارة في البحث الأدبي هو الشعور بغرابتها وطرافتها وتأثيرها في الاستعمال ، وقد يحلو لبعض أن يستقصي كثيراً من الكلمات التي تطورت دلالتها واستقرت وشاع استعمالها في زمن صدور النص استعمالا حقيقيا ، وإن كان لها أصلٌ موضوع تعود إليه ، ولكنه أما تنوسي أو هجر ، أو توسعت دلالته ليشمل أفرادا أخرى ، وهي في جميع الأحوال ، لا تؤدي مزيد فائدة في استعمالها المجازي المهجور ، ولا يمكن التعرف عليها ، إلاّ بعد التدقيق والبحث المعجمي عن الأصل الأول وتكلف قصرها على مصداق واحد ، وهذا ما أسميناه بالمجاز النائم أو الميت ، ومما جاء في هذه السورة قوله تعالى : (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) [٢] ، فإنّ استعمال (المجيء والزهوق) قد يعد استعمالا مجازيا تشبيها لهما بمجيء الإنسان وموته ، ولكن هذه الاستعارة تحولت إلى ما يشبه الحقيقة وأصبح التعبير بهما مألوفا ، وذلك لتوسع دلالتيهما ، وانطباقهما على كل شيء آتٍ أو هالك ، يقول الشريف الرضي (رحمه الله تعالى) في هذه الآية : ((وهذه استعارة ، لأنهم يقولون : زهقت نفس فلان إذا خرجت ، ومنه قوله تعالى : (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) [٣] ، فالمراد والله اعلم ، وهلك الباطل إنّ الباطل كان هالكا ، تشبيها له بمن فاضت نفسه وانتقضت بنيته ، لأنّ الباطل لامساك ولا سماك لبنائه)) [٤].

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾[٥] ، يقول الشريف الرضي (رحمه الله تعالى) : ((وهذه استعارة ، والمراد بالخزائن ههنا : المواضع التي جعلها الله تعالى جهات لدرور رزقه ومنافع الخلق))[٦] ، ولكنها كما نرى استعارة – لو قلنا بها – باهتة ، لا تقدم لنا صورة موحية أو تشبيها يثير فينا معاني التعظيم أو التهويل أو المبالغة أو الاستغراب أو

٢- سورة الإسراء : ١٣ .
٣- سورة الإسراء : ٨١ .
١- سورة التوبة : ٥٥ .
٢- تلخيص البيان : ١١٩ .
٣- سورة الإسراء : ١٠٠ .
٤- تلخيص البيان : ١٢٠ .

الطرافة أو التشويق والمتعة ، كما لمسنا بعضا من هذه المعاني إنْ لم تكن كلها في صورة كل من (الطائر ، و الاحتناك ، والمحو ، وجناح الذل) .

ولعل السبب في ذلك أنّ تشبيه الكامل الواسع الذي لا نفاد له ، بالمحدود الناقص هو أمر غير مألوف وغير منتج – غالبا – للمعاني التي من أجلها تستعار الألفاظ .

فأي جمال هذا الذي نستشعره بوصف مُلك السموات والأرض بخزائن الإنسان المحدودة الذي يعتريها النقص والنفاد ؟ ولكن الصورة نراها تكون أجمل وأطرف وأملى لو حُملت على الحقيقة وذلك بتوسيع المفهوم ، فكما أن ههنا خزائن الإنسان المحدودة ، فكذلك هنالك خزائن الله التي لا تفنى ولا تنفد أبدا ، ومابين الصورتين هو ما يثير معاني التعظيم والتكثير والتهويل ، لا الاستعارة التي تقوم على تشبيه تلك بهذه .

ومما جاء على هذا النمط ، قوله تعالى :

(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ) [1] ، حيث يقول الشريف الرضي (رحمه الله تعالى) : إنّ هذه استعارة ومعنى (فرقناه) بالتخفيف: بيناه للناس حتى صار كمفرق الرأس في وضوح مخطّه أو كفرق الصبح في بيان منبلجه ، وقد قال بعضهم : فرقناه أي : فصلناه سورا وآيات فذلك بمنزلة فرق الشعر ، وهو تمييز بعضه من بعض حتى يزول التباسه ويتخلص التفافه.[2]

وواضح أنّ هذا الفهم ناشئ من النظر إلى تصنيف المفهوم وقصره على فرد واحد من أفراده ، فإنّ مفهوم (الفَرْق) واسع يصدق على أفراد كثيرة منها : فرق الشعر ، وفرق الصبح ، وفرق البحر ، وفرق القرآن ... الخ .

وقال في مجمع البيان : ((معنى فرقناه فصلناه ونزلناه آية آية وسورة سورة ويدل عليه قوله "على مكث ")) [3] .

ومهما حاولنا في هذا السياق أنْ نرجع الكلمة إلى احد هذه الأفراد أو إلى أي أصل آخر وضعت له ابتداءً بداعي الاستعارة ، فإنها لا تعطي أفقاً جديدا أو بعداً أوسع ، أو قدرة على الإيحاء والتصوير أكثر ، وذلك لأنّ هذه الكلمة قد أصبحت واضحة الدلالة بنفسها وإنّ استعمالها قد صار حقيقيا .

٥- سورة الإسراء : ١٠٦ .
٦- تلخيص البيان : ١٢٠ .
١- مجمع البيان : ٣٤٧ .

ثانيا : المعاني الكنائية :

الكناية لغة : هي أنْ تتكلم بشيء وتريد غيره ، وهي مصدر من كني يكني ، أو كني يكنو ، أي: تكلم بما يستدل به عليه ، ومعناها مشتق من الستر ، تقول : كنوتُ بكذا كذا ، وبذلك تدخل الكنية في الكناية ، كقول الإمام علي ﷺ : (أنا أبو حسن القِرم) ، إخفاء لاسمه وعدم التصريح به ، وكأنها تورية للتعظيم [١].

((والكناية عند نحاة الكوفيين الضمير ، وعند الأصوليين والفقهاء مقابل للصريح ، وعند علماء البيان ، هي أنْ يعبر عن شيء لفظا ومعنى بلفظ غير صريح في الدلالة عليه لغرض من الأغراض)) [٢].

وتعرّف أيضا بأنها لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته ، نحو : زيد طويل النجاد ، تريد أنه شجاع ، لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول صاحبه ، ويلزم من طول الجسم الشجاعة عادة [٣].

١- ينظر : لسان العرب : (كني) ، ١٢ /١٧٤ .
٢- محيط المحيط : (كنى) ، ٧٩٥ .
٣- ينظر : جواهر البلاغة : ٢٩٧ .

ومصطلح الكناية كغيره من المصطلحات البيانية مر بادوار مختلفة على أيدي البلاغيين الذين أسهموا جميعا في إيضاح فكرة المصطلح وتحديده وبيان أقسامه فيما بعد .(١)

ومن المراحل الهامة التي وصل إليها البيان العربي عموما ، ومصطلح الكناية بصورة خاصة ، مرحلة القرن الخامس الهجري ، ممثلة بالشيخ عبد القاهر الجرجاني ، حيث يتعرض إلى تعريفها ، وأسرار قوتها وبلاغتها فيقول : ((والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه ، ومثال ذلك قولهم : هو طويل النجاد ، يريدون طويل القامة ، وكثير رماد القدر ، يعنون كثير القرى ، وفي المرأة : نؤوم الضحى ، والمراد أنها مترفة مخدومة)) (٢)، ثم يفسر بعد ذلك القول الشائع بأنّ (الكناية أبلغ من التصريح) ، ويبين السر في هذا الترجيح ، وسكون النفس إلى مثل هذه العبارات فيقول : ((ليس المعنى إذا قلنا : " إن الكناية أبلغ من التصريح " أنك لمّا كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأوكد وأشد ... لأنّ كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه – أنّ إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ، آكد وأبلغ في الدعوى من أنْ تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غُفلا)) (٣) .

أما السكاكي فيعرّفها بأنها : ((ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك)) (٤) .

والكناية تلتقي مع المجاز بأن كلا منهما استعمال للكلمة في غير ما وضعت لها ، ولكنها تفترق عن المجاز بأمرين هما :

أولاً : إنّ الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها ، فالخنساء مثلا عندما ترثي أخاها (صخرا) بأنه كثير رماد القدر كناية عن جوده وكرمه ، فإنّ هذه الكناية لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي ، بأنّ أخاها كثير رماد القدر حقيقة ومن غير تأويل ، أما المجاز فإنّ المعنى الحقيقي غير مراد . (٥)

الثاني : إنّ الكناية مبنية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، وأما المجاز فهو مبني على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .

ومن هنا يبدو أنّ الكناية تقع وسطا بين الحقيقة والمجاز فهي من جهة ينظر إليها كونها مجازا ، لأنها قد استعلمت في غير ما وضعت له ، وبكونها حقيقة ، لأنها استعلمت فيما وضعت له وأريد بها الدلالة على غيرها .

٤- ينظر تطور المصطلح تأريخياً : أساليب البيان في القرآن :٦٩٠-٧٢٦.
٥- دلائل الإعجاز : ١٠٥ .
١- دلائل الإعجاز : ١١٠ -١١١ .
٢- مفتاح العلوم : ١٨٩ .
٣- ينظر : مفتاح العلوم : ١٩٠ .

والحقيقة أنّ الكناية هي استعمال حقيقي ولكنه غير مقصود لذاته ، بل أريد بـه الدلالـة والانتقـال إلـى معنى آخر ، كدلالة (كثرة الرماد) – وهو استعمال حقيقي ولكنه غير مقصود لذاته – على الكرم .

أما الاستعارة فهي تشبيه قائم على ادعاء الاتحاد والمبالغة بين أمرين ، وهي من المجاز ، لأنها استعمال في غير ما وضعت له الكلمة ، ففي قولنا (رأيت أسدا) ونحن نريد به الرجل الشجاع ، لا وجود للحيوان المفترس واقعاً ، بينما يكون الأمر مختلفا في الكناية ، فإنّ قولنا " هو كثير رماد القدر " يعني وجود ذلك الرماد وتحققه واقعا ، لأنه الأثر الدال والحجة والدليل على إثبات الكرم لصاحبه ، وقد لا تكون الحجة دليلا وإنما تكون طريقا مفضيا ، أو أحد الأجزاء أو المصاديق الهامة للمكنّى عنه ، كما إذا كانت الكناية غرضها التنزه عن ذكر الألفاظ الفاحشة والقبيحة كقوله تعالى : ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [1] ، كناية عن المواقعة ، أو كقوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [2] ، فإنّ الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة [3] ، وإذا كنّى بها عن الجماع فإنما كنّى بلفظ الكل عن مصاديقه أو عن غايته .

الكناية في القرآن الكريم :

لقد كثر استعمال القرآن الكريم للكناية، جريا على طريقة العرب في كلامهم ، ولكنه ابتدع فيها كنايات جديدة لم تكن مسموعة عندهم ، سواء فيما يتصل بإيجاد ملازمات خفية بين المعاني المختلفة ، أو بالإشارة والإيحاء لإحداث دلالات مختلفة ومتفاوتة ، أو بتجلية المعاني وتشخيصها وتفخيمها وإظهارها بصورة مؤثرة .

والكناية في القرآن الكريم أغراضها مختلفة وصورها متنوعة ، فمنها ما يكون لغرض تهذيب الكلام والتنزه عن الألفاظ البذيئة غير اللائقة بكرامة الإنسان ، كقوله تعالى : (أو لامستم النساء) وقوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وقوله تعالى (كانا يأكلان الطعام) ، وهو كناية عما يخلفه الإنسان إثر أكل الطعام ، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في بيان هذه الكناية : ((يعني أن من أكل الطعام كان له ثفل وما كان له ثفل فهو بعيد ممّا ادعته النصارى لابن مريم)) [4] ، وكذلك قوله تعالى : (فالآن باشروهن) [5] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾[6] ، وفي

٤– سورة النساء : ٤٣ .
١– سورة البقرة : ١٨٧ .
٢– ينظر : لسان العرب : (رفث) ،٥ /٢٦٣–٢٦٤.
٣– بحار الأنوار : ١٩ / ٢٥ .
٤– سورة البقرة :١٨٧.
٥– سورة الأعراف : ١٨٩ .

هذا الأسلوب حثّ للإنسان على اقتفاء اثر القرآن الكريم في التأدب وتجنب الكلمات غير اللائقة التي تسبب إحداث صور ذهنية لمعانٍ يحسن عدم تصويرها تصويرا مباشرا .

ومن أغراض الكناية أيضا تهويل المعنى وإبرازه في صورة مجسمة ، كقوله تعالى كناية عن الغيبة : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ (١) .

ومنها ما يكون إشارة ورمزا لمعنى غير مصرح به ، يهتدي المخاطب إليه عن طريق هذه الإشارة وتعويلا على قدرته على الاستدلال والاستنباط ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٢) ، إشارة إلى الصلوات الخمس .

ومنها ما يكون لأجل التغطية والتعمية على المخاطبين الذين يخشى منهم على القرآن والإسلام والسعي إلى تحريفه ، ولذلك نرى أنّ القرآن الكريم لم يذكر أسماء من قريش ذمهم الله تعالى ، وإنما أشار إليهم إشارة بصفاتهم وأفعالهم ، ولم يذكر صريحا في القرآن من هذه الأمة غير اسم أبي لهب عم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، الذي اجتمعت الكلمة على رفضه ، وكذلك لم يذكر القرآن الكريم مَن مدحهم وأوصى بتقديمهم وتكريمهم ، وإنما كنّى عنهم وأشار إليهم ، كقوله تعالى على سبيل المثال لا الحصر ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٣) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٤) ، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في ذلك :((وإنما جعل الله تبارك وتعالى في كتابة الرموز التي لا يعلمها غيره وغير أنبيائه وحججه في أرضه ، لعلمه بما يُحدثه في كتابه المبدّلون من إسقاط حجة منهم وتلبيسهم ذلك على الأمة ليعينوهم على باطلهم ، فاثبت فيه الرموز وأعمى قلوبهم وأبصارهم ، لما عليهم في تركها وترك غيرها من الخطاب الدال على ما أحدثوه فيه ، وجعل أهل الكتاب القائمين به ، العالمين بظاهره وباطنه من شجرة " أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها " أي: يظهر مثل هذا العلم لمحتمليه في الوقت بعد الوقت ، وجعل أعداءها أهل الشجرة الملعونة في القرآن الذين حاولوا إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أنْ يتمّ نوره))(٥).

ومنها ما يكون تعبيرا عن المستويات المختلفة للمخاطبين ، ومديات الاستفادة من القرآن الكريم ، حسب الاستعداد وقبول الفيوضات الإلهية ، يقول الإمام الحسين بن علي عليه السلام في ذلك : ((كتاب الله عزّ

١- سورة الحجرات : ١٢ .
٢- سورة هود : ١٢ .
٣- سورة المائدة : ٥٥ .
٤- سورة آل عمران : ٦١ .
١- بحار الأنوار : ١٩ / ٢٦ .

وجلّ على أربعة أشياء : على العبارة ، والإشارة ، واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام ، والإشارة للخواص ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء))[1] .

ومنها ما يكون للتعبير عن المعاني المجردة والغيبية التي لا يمكن إيصالها بالألفاظ والصور المباشرة ، كإثبات معاني التوحيد ، ونفي الشريك والولد كقوله تعالى مثلا : ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[٢] ، كناية عن البنات التي نسبوها إلى الله تعالى عمّا يصفون.

وكذلك فإنّ كثيرا من الملاحم والفتن ، وأخبار الزمان ، من آيات وروايات وردت مورد الرمز الكنائي في دلالتها على المقصود الواقعي ، كما في قوله تعالى مثلا : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ [٣] .

وكلّ ذلك يؤدى أما بالإيحاء ، أو الإشارة ، أو الرمز، أو التلويح أو التعريض ، وفي القول المأثور : ((إنّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب)) [٤] ، وعن الإمام الصادق عليه السلام : ((ولا يكون الرجل منكم فقيها حتى يعرف معاريض كلامنا ، وإنّ الكلمة من كلامنا لتنصرف على سبعين وجهاً ، لنا من جميعها المخرج)) [٥].

المعاني الكنائية في سورة الإسراء :

وممّا ورد في هذه السورة من المعاني الكنائية ، قوله تعالى ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ [٦] .

فجعل اليد مغلولة إلى العنق كناية عن البخل والشح ، كمن لا يهب ولا يعطي شيئا لشدة إمساكه وشح نفسه ، وبسط اليد كناية عن التبذير والإسراف ، وإنفاق الإنسان كلّ ما يملكه بحيث لا يبقي شيئا في يده .

٢- بحار الأنوار : ١٩ / ١٥ .
٣- سورة الزخرف : ١٨ .
٤- سورة النمل : ٨٢ .
٥- صحيح البخاري : ٥٧/٨ .
٦- معاني الأخبار : ٢ .
١- سورة الإسراء : ٢٩ .

وهاتـان العمليتـان تمـثلان حـالتي الإفراط في والتفريط في الجانـب الاقتصادي للإنسان فـي مقابـل حالتي الوسط في ذلك، وهما السخاء والاقتصاد ، وقد حبّب الله تعالى هذه الوسطية في كل شيء ، ونهى عن الإفراط والتفريط ، وفي الآية الكريمة يبين الأسلوب الأمثل في المنع والإعطاء ، وفي طريقة تدبير الإنسان لمعيشته وتعامله مع الوسط الاجتماعي ، ولكن الأسلوب القرآنـي لـم يعبر عن ذلك تعبيرا صريحا مباشرا ، وإنما عمد إلى استعمال التصوير الكنائي ، بخلق صورة حسية متخيلة للإنسان البخيل الشحيح ، وهو مقيد اليدين إلى عنقه بحيث تعطله عن الحركة تماما وتشل قدرته عن التصرف بأي نوع من التصرفات التـي يمكن أن تصدر عن يديه ، فكأنه قيد نفسه وأحاطها بأشد الموانع حيث لا سبيل للعطاء ، ولا أمل للمحتاجين بقصده للسؤال، وهم يرونه بهذه الصورة التـي تبعث علـى اليأس والقنوط من خيره ، وانقباض النفس من التوجه إليه ، وهذه الصورة تمثيل ربما يكون مبالغا فيه علـى المستوى الظاهري للواقع ، ولكن الله سبحانه اللطيف الخبير بعباده قد يكون أعطى لهذا الإنسان صورته الواقعية التي يعيشها مع نفسه ، فهو تصوير من داخل أعماق النفس الشحيحة التي لو قدر لها أنْ تتجسد و تتشكل لكانت هذه صورتها . وهذا التهويل لصورة الإنسان البخيل يدل على النهي البالغ عن التفريط والإفراط في الإنفاق الذي أبُرز بذكر لوازمه وآثاره ، فكما كانت كثرة الرماد تدل علـى كثرة الطبخ وكثرته تدل على كثرة الضيوف ، وكثرتهم تدل على أنه كريم ، فكذلك صـورة قيد اليدين إلـى العنق لازم يقود إلـى تعطيل الحركة وشلها ، وهذا لازم أيضا لعدم القدرة على التصرف بالعطاء وهو ما يقود إلى نفرة الناس واشمئزازهم من حاله ، وهذا ما يوصل إلى الملزوم وهو وصف مثل هذا الإنسان بالبخل والشح .

أما الصورة الثانية وهي صورة اليد المبسوطة ، التي هي كناية ورمز للإنسان المبذر الذي لا يفتأ فاتحا يده حتى لا يستقر فيها شيء وهي صورة مفخمة أيضا لتجسيد هذا المعنى الذي أشير إليه بلوازمه الممثلة في بسط اليد الذي يلزم منه عدم قدرتها على الامتلاك والاحتفاظ بكل شيء ، بسبب العطاء غير المحسوب ، وهو ما يقود إلـى الإفلاس السريع ، وعدم القدرة علـى تدبير العيش الكريم المتوازن و بدوره يقود إلى الملزوم وهو الفقر والاحتياج وعدم القدرة على مساعدة الآخرين وقضاء حوائجهم ، ثم الوقوف في نار الملامة ، من النفس والناس والانقطاع عن الاستمرار في العيش الحر الكريم .

ومن الصور الكنائية الأخرى في السورة ، قوله تعالى : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [1] .

فالمرح هو شدة الفرح بالباطل ، وهو الفرح الخارج عن حد الاعتدال ، لأنّ الفرح قد يكون بـأمر حقيقي كالذي يكون ابتهاجا بنعمة من نعم الله سبحانه، شكرا لـه، ولا يتعدى الاعتدال ، وأما إذا كـان الفرح بالشيء من أجل قيمة ذاتية كالفرح بالوضع الاجتماعي أو المالي أو العلمي الذي يوصل الإنسان

١- سورة الإسراء : ٣٧ .

إلى الشعور بالتميز بحيث يكسبه طبعا شاذا في التصرف في أحواله المختلفة وأقواله ، وقيامه وقعوده ، ومشيه ، فهو من الباطل (١) ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٢) ، وهذا النوع من الفرح يعبر عن عدم توازن الشخصية ، ويقابله في عدم التوازن الاكتئاب أو الانقباض الشديد وكلاهما سلوك شاذ ومرض نفسي يجب معالجته والتخلص منه (٣).

والأسلوب القرآني يشير إلى هذا السلوك وظاهرة استعظام الإنسان نفسه بأكثر ممّا هو عليه بواسطة الرمز وهو هنا (المشي المرح) وهو أحد لوازم ذلك الخلق لظهوره فيه ظهوراً بيّناً ، ثم يزداد الاعتناء بذلك المشهد المألوف وتكتمل صورته بإضافة لوازم جديدة تتمثل برسم جزئيات لمشية الإنسان المتكبر وهو يطأ بقدميه الأرض بطريقة معينة تدل على الكِبَر والخيلاء والبطر ، ويرفع نفسه شامخا، متطاولا، سادراً ،لا يدري بوهمه وجهله وخفة عقله ، حيث يأتيه النداء (إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) وهو كناية بالرمز عن وهم المتكبر وهو يريد إظهار عظمته وقدرته وتميّزه ، ليقول له : إنّ هناك ما هو أقوى منك لا تخرقه قدماك مهما كان وطؤك شديدا ، وهي هذا الأرض التي تحملك وتغذوك ثمّ بعد ذلك تضمك ، وهناك ما هو أطول منك وأعلى ، وهي الجبال الشامخة التي تحفظ توازنك عن السقوط والمَيَدان ، فأعدِ النظر بنفسك وقوتك وعظمتك ، لترى كم أنت مهين ووضيع وصغير أمام الأشياء ، عندما تتطاول عليها ، واعترف صاغرا بعظمة ما خلق الله تعالى كما خلقك عظيما بفطرتك وروحك وتواضعك وتآلفك مع مخلوقات الله ، ودع الكبرياء فإنه رداء الله ولا يحلّ لك أنْ تنازع الله رداءه .

ومن الكنايات اللطيفة القائمة على الإشارة والإيماء قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾(٤) ، ففيها إشارة إلى جواز جمع الصلاتين : (الظهرين ، والعشاءين) في الوقت المشترك بينهما ، حيث يفسر دلوك الشمس بزوالها ، وغسق الليل بظلمته ، ((وعلى هذا التقدير يكون المذكور في الآية ثلاثة أوقات ، وقت الزوال ، ووقت أول المغرب ، ووقت الفجر ، وهذا يقتضي أن يكون الزوال وقتا للظهر والعصر فيكون الوقت مشتركا بين هاتين الصلاتين ، وأن يكون أول المغرب وقتا للمغرب والعشاء ، فيكون هذا الوقت مشتركا أيضا بين هاتين الصلاتين ، وهذا يقتضي جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقا)) (٥) .

وقد اختاره علماء الشيعة واستدلوا على أنّ وقت الظهر موسّع إلى غروب الشمس ، ووقت المغرب موسّع إلى انتصاف الليل ، وهذه الآية ((هي احد أدلة الجمع في الحضر بلا عذر ، للذين ذهبوا إليه

٢- ينظر : تفسير الميزان : ١٣ / ٩٤ .
٣- سورة القصص : ٧٦ .
٤- ينظر : دراسات فنية في صور القرآن الكريم : ٣٢١ .
١- سورة الإسراء: ٧٨ .
٢- التفسير الكبير : ٢١ /٢٧ .

وأيّدوا ذلك بما رواه العياشي بإسناده عن عبيدة وزرارة عن أبي عبد الله (الصادق) أنه قال في هذه الآية : إنّ الله تعالى افترض أربع صلوات أول وقتها من زوال الشمس إلى انتصاف الليل ، منها صلاتان أول وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروبها ، إلاّ أنّ هذه قبل هذه ، ومنها صلاتان أول وقتهما من غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلاّ أنّ هذه قبل هذه))[1] .

وكذلك ممّا يؤيد صحة هذه الإشارة بعض الأحاديث الصحيحة عن أهل السنة ((كحديث ابن عباس ، وهو في " صحيح مسلم " : صلى رسول الله الظهر والعصر جمعا بالمدينة ، وفي رواية أنه (صلى الله عليه وسلم) ، صلى ثمانيا جمعا ، وسبعا جميعا من غير خوف ولا سفر))[2] ، وبذلك يندفع ما ذكره الفخر الرازي – بعد استدلاله المتقدم على جواز الجمع – من أنه دلّ الدليل على أنّ الجمع في الحضر من غير عذر غير جائز . [3]

والذي نريد أنْ نقرره هنا أنّ الاستدلال بهذه الآية الكريمة بطريق الإشارة استدلال لا قيمة له ؛ لأنه صِرْف إشارة وإيماء لم يبلغ درجة الظهور عند علمائنا ، وإنما الاعتماد عند الشيعة في جواز الجمع بين الصلاتين هو ظهور هذه الإشارة ورقيّها إلى مستوى الدليل عند الإمام المعصوم المستنبط من هذه الآية كما تقدم في رواية عن الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام وغيره من الأئمة عليهم السلام العارفين بلغة الإيماءات والإشارات والرموز واللطائف والحقائق القرآنية ، وكذلك اعتمادهم على صحيح السنة الشريفة الواردة في مصادر الحديث لدى الفريقين التي نقلت لنا صلاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الكيفية دون خوف أو عذر ، والتي ذكرنا بعضا منها [4] ، وأما الإشارة في هذه الآية بالنسبة لعلماء الفقه والاستنباط فهي للاستئناس وعضد الدليل .

ومثل هذه الآية في الإشارة قوله تعالى :

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلُفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ [5] .

حيث الإيماء إلى الصلوات النهارية وهي صلاة الصبح والظهرين ، والليلية وتشمل المغرب والعشاء .

ومن الكنايات الأخرى التي اعتمدت الرمزية لأجل التعمية والتغطية للمعنى ، وعدم التصريح بالأمور بمسمياتها ، لأنّ ذلك يشكل خطرا مستقبليا على القرآن الكريم والإسلام عموما ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ ﴾ [6] .

٣-روح المعاني : ٨ /١٢٧ .
٤- روح المعاني : المصدر نفسه.
١- ينظر : التفسير الكبير : ٢١ / ٢٧ .
٢- للتوسع ينظر : مسائل فقهية :٩ــ٢٠.
٣- سورة هود : ١١٤ .
٤- سورة الإسراء : ٦٠ .

فإنّ الأسلوب القرآني عمد إلى توظيف (الشجرة الملعونة) كرمز كنائي لتوصيل فكرة لابد منها لهذه الأمة عن طريق القرآن الكريم ، دون المساس بمشاعر الآخرين وإغاضتهم وحملهم على اتخاذ المواقف المعادية الصريحة للإسلام والقرآن ، وهذه الرمزية هي خير ما يحقق هذه الغاية ، لما يحمله الرمز من تعدد الاحتمالات وانطباقه على مصاديق ووجوه متعددة ، ولذلك نرى اختلاف آراء المفسرين في توجيه الرمز والإشارة إلى مصداقه الحقيقي ، ونجد ذلك واضحا في توجيه الرمز في هذه الآية الكريمة .

ونحن هنا أمام صورة رمزية لا يمكن التوصل إلى معرفة دلالتها اعتمادا على اللوازم المذكورة في النص ، وذلك لأنّ هذه اللوازم من البعد والعمومية التي تجعل من الرمز يغضي عن الدلالة التفصيلية للمعنى ، فالشجرة الملعونة في القرآن ، والرؤيا التي رآها النبي (صلى الله عليه واله وسلم) لا يمكن إدراكها تفصيلا اعتمادا على معطيات النص الظاهر ، وإنما يكون بالرجوع إلى القول المأثور عن النبي (صلى الله عليه وآله) ، وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام) .

ولذلك نرى أنّ المفسرين قد أعطوا عدة احتمالات في تفسير هذا الرمز فقالوا في الشجرة الملعونة ثلاثة أقوال هي :

١- إنها كناية عن اليهود .

٢- إنها شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم .

٣- ولكن الرأي المأثور المسند بالروايات الدالة هو أنّ الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أميّة [(١)] ، حيث أخبر الله تعالى نبيّه الكريم بتغلبهم على مقامه الشريف وقتلهم ذريته ، قال سعيد بن المسيب : ((رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله) بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء)) [(٢)] ، ((وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : رأيت بني أمية ينزون على منابر الأرض وسيملكونها فتجدونهم أرباب سوء واهتم (عليه الصلاة والسلام) لذلك ، فأنزل الله سبحانه (وما جعلنا ..... الآية) [(٣)] ، وأخرج ابن عمر أنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله تعالى في ذلك " وما جعلنا .... " الخ ، والشجرة الملعونة ، الحكم وولده)) [(٤)] . ((وأخرج ابن

١- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٣٠٥ ، والتفسير الكبير : ٢٠ / ٢٣٦ .
٢- التفسير الكبير : ٢٠ / ٢٣٦ .
٣- روح المعاني : ٨ / ١٠٢ .
٤- المصدر نفسه .

مردويه عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت لمروان بن الحكم : " سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول لأبيك وجدك إنكم الشجرة الملعونة في القرآن ")) [1] .
والملاحظ على هذه الأقوال الثلاثة أنها لا تنسجم جميعها مع الرمز بصورته الفنية للعبارة ، لأنّ أهمية معرفة تلك الشجرة كونها فتنة للناس ومحكّا للثبات على الإيمان والإسلام والحق ، وشجرة الزقوم لا تصلح هنا كرمز فني لهذه الظاهرة الاجتماعية ، ويبقى الأمر الأخير متأرجحا بين كل من اليهود وبني أمية ، لأنّ كل منهما يمثل الشجرة المتنامية التي كانت لهذه الأرض مصدر فساد وتلوث ، ولم تقطف للبشرية يوما ثمرة جنيّة طيبة ، بل أذاقتها من أصناف المرارة والعذاب والقتل والاستعباد والإذلال ، والذي يبدو من ظاهر النص أنّ هذه الفتنة فتنة داخليّة وهي إشارة إلى عدو الإسلام من هذه الأمة ، وليس عدوا خارجيا كاليهود ، وهذا ما أشارت إليه الرؤيا التي رآها النبي (صلى الله عليه وآله) ، فيتبين عند ذاك أنّ المراد بهذا الرمز هم بنو أمية الذين حكموا هذه الأمة سنين عجاف .

ومن صور الكناية في السورة أيضا ما يعرضه الله سبحانه من حجج وبراهين وصور من التبكيت لمنكري البعث والإعادة في اليوم الآخر من الذين قالوا : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ [2] ، فيجيبهم النص القرآني ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ [3] .

فنحن هنا أمام رموز ثلاثة هي (الحجارة و (الحديد) و (الخلق الذي يكبر في الصدور) ، وكل واحد من هذه الرموز يشير إلى دلالة خاصة ، فالحجارة ترمز إلى القوة ، والحديد إلى الشدة ، والخلق الذي يكبر في الصدور يرمز إلى مطلق الأشياء المتميزة بالمنعة والقوة ، وهذا ما ذهب إليه بعض المعنيين بشؤون التفسير . [4]

فالنص القرآني بهذه الرموز الثلاثة ، يريد أنْ يبين للمنكرين الذين يظنون أنّ سبب استحالة الإعادة من جديد هو هشاشة أجسادهم وتفرقها وتحللها بعد الموت ، أنهم لو كانوا بقوة وصلابة الحجارة أو شدة الحديد أو أي خلق آخر يستبعد أنْ يبلى أو يفنى كالموت نفسه ، لَبَعثهم الله تعالى من جديد .

فالنص هنا يوظف هذه الرموز للكناية عن حتمية البعث ، وأنه لا فرق في فهم فلسفة البعث بين ما هو ضعيف ولين ، وبين ما هو قوي وشديد .

---

٥ – المصدر نفسه .
١– سورة الإسراء : ٤٩ .
٢– سورة الإسراء : ٥٠ – ٥١ .
٣– ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : ٣٢٤ .

ومن الكنايات التي تؤدى بتصوير لوازم المكنى عنه ، وعرضها مشخّصة تأكيدا لـه ومبالغة ، قولـه تعالى ، : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ (١) .

فـالمراد بــ (أعـرض) : ((أظهـر عرضـه، أي: ناحيتـه ، فـإذا قيـل : أعـرض لـي كـذا ، أي: بـدا عرضه فأمكن تناوله ، وإذا قيل: أعرض عنى فمعناه : ولّى مبديا عرضه))(٢).

والنأي هو البعد ، ونأى بجانبه ، أي: اتخذ لنفسه جهة بعيدة عنا ، ومجموع قوله تعالى (أعرض ونأى بجانبه) ، صورة لحال الإنسان في تباعده وانقطاعه ، وهو كناية عن الاستكبار ، والاستعلاء ، لأنّ ثنـي العطـف والإعراض عن الآخرين ، من أفعال ، المستكبرين الملازمـة لهم ، ((فصورة نـأى بجانبه ، وهي حركة جسمية إنما تشكل رمزا لحركة داخلية نفسية هي عدم الشكر لله تعالى على نعمه ، أو عدم التواصل مع الله سبحانه)) (٣) ، وهي صورة مأخوذة من واقع الإنسان ، كما لو حدثك شخص فلويت جانبك عنه وابتعدت به عن مواجهته ، إنكارا وتجاهلا لوجوده وأثره .

وهذا يكشف أنّ الإنسان لا يتلفت كثيرا إلى نعم الله سبحانه التي لا تعد ولا تحصى ، في حين أنه يتحسس لفقدانها ، ويكون أكثر تحسسا ، للآلام والشرور التي قد تصيبه باليأس والقنوط سريعا (٤) .

وهذه الكناية أيضا تكشف عن حالة التناقض النفسي ، التي يعيشها الإنسان في داخلـه فـي علاقتـه مـع الله تعالى ، حيث يقول سبحانه في وصف هذه العلاقة : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ ، والمعنى : ((أنا إذا أنعمنا على الإنسان هذا الموجود الواقع في مجرى الأسباب اشتغل بظواهر الأسباب وأخلد إليها فنسينا ولم يذكرنا ، وإذا نالـه شـيء يسير مـن الشر فسُلب منه الخير وزالت عنه أسبابه ، ورأى ذلك ، كان شديد اليأس من الخير، كونه متعلقا بأسبابه، وهو يرى بطلان أسبابه ، ولا يرى لربه في ذلك صنعا))(٥)

الفصل الثالث

المعاني الدلالية في سورة الإسراء

مفهوم المعاني الدلالية:

الدلالة لغة : بمعنى الهداية والافتخار والمنّة ، وهي مصدر من الفعل دلّ يدلُّ ، وله لغات ثلاثة ، يقال : دَلالة ، ودِلالة ، ودُلالة ، بفتح الدال وضمها وكسرها ،إلا أنّ الفتح أعلى (٦) .

١- سورة الإسراء : ٨٣ .
٢- المفردات : ٣٣٠.
٣- دراسات فنية في صور القرآن : ٣٩٤ .
٤- ينظر : المصدر نفسه .
٥- تفسير الميزان : ١٣ / ١٨٢ .
١- ينظر : لسان العرب : (دلل) ٣٩٤/٤ ، وتاج لعروس : (دلل) ٧/ ٣٤٣ .

((وأصل الدلالة مصدرٌ كالكناية والإمارة ، والدال مَنْ حصل منه ذلك ، والدليل في المبالغة كعالم، وعليم ،وقدير ، ثم يسمى الدال والدليل كتسمية الشيء بمصدره))[١] .
أما الدلالة في الاصطلاح فهي : ((كون الشيء بحاله يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول)) [٢] . وبعبارة أخرى هي ((ما يُتوصل به إلى معرفة الشيء كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالة الإشارات والرموز والكتابة والعقود في الحساب ، وسواء أكان ذلك بقصد ممن يجعله دلالة أم لم يكن ، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنّه حي ، قال تعالى: ((مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ)))) [٣] .

وأصل الدلالة حسيٌ يراد به الاهتداء إلى الطريق ، فيقال ((دلّه على الطريق، وهو دليل المفازة، وهم أدلاؤها ، وأدللتُ الطريق : اهتديت إليه)) [٤] ، ثم اُستعمل بعد ذلك استعمالا مجازيا للدلالة على الأمور المعنوية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . [٥]

ولقد كان لهذا المصطلح بعد عقلي في ظهوره ونشأته في تحديد وبيان علاقة اللفظ بالمعنى ، ولذلك ارتبط استعماله وشيوعه ارتباطا وثيقا في الدراسات المنطقية والفلسفية والأصولية ، التي كانت تهدف إلى الوصول إلى المعنى عن طريق الدلالات العقلية . وقد تابعهم بعد ذلك في استعمال هذا المصطلح أو الإشارة إليه ، المتأخرون من اللغويين الذين تأثروا بالمدارس الكلامية ، ويظهر ذلك جليا عند عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم ، ومن جاء بعده من علماء اللغة والبلاغة ، ولا يعني ذلك أنّ علماء اللغة الأوائل كانوا في غنى عن البحث الدلالي ، وكيف يكون ذلك والغاية من دراسة اللغة هي الوصول إلى المعنى الذي تدل عليه الألفاظ ، ولا يتأتى ذلك إلاّ بالنظر في دلالة تلك الألفاظ ؟ . ولكن الفارق الجوهري بين الدلالة عند المناطقة والأصوليين ، وبين علماء اللغة هو في رتبة الدلالة ومنشئها وطريق ارتباط اللفظ بالمعنى .

فقد نظر أصحاب المنطق إلى العقل أوالذهن على أنه القاسم المشترك بين اللفظ والمعنى والشيء[٦] ، ولذلك قسموا الدلالة إلى ثلاثة أقسام : المطابقية ، والتضمنية ، والالتزامية ، وأشاروا إلى مراتب الدلالات في الوجود ووضعوا الدلالة اللفظية في الرتبة الثالثة وقالوا : ((إن للشيء وجودا في الأعيان ثم في الأذهان ، ثم في الألفاظ ، ثم في الكتابة ، فالكتابة دالة على اللفظ واللفظ دال على المعنى الذي فيه

٢- المفردات في غريب القرآن : ١٧١ .
٣- التعريفات : ٦١ ، وينظر : المنطق : ١/ ٣٦ ، وكشاف اصطلاحات الفنون : ٢/٢٨٤ .
٤- المفردات : ١٧١ .
٥- أساس البلاغة : ٢٨٠ .
٦- ينظر : الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى : ٦٤ .
١- ينظر : الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى : ٦٧ .

النفس، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان))[١] . وكذلك ميزوا في دراساتهم بين مفاهيم متعددة ، كالجزئي والكلي، والمفهوم والمصداق ، والنسب الأربعة ، واجتهدوا في الوصول إلى تعريف الأشياء تعريفا جامعاً مانعاً.

أما الفقهاء فقد اهتموا بتحديد الدلالة اهتماما كبيرا ، وذلك بدافع الحرص الشديد على فهم النصوص الشرعية فهما صحيحا يمكنهم من استنباط الأحكام الشرعية، وكثيرا ما كان الاختلاف بينهم بسبب تحديد تلك الدلالة تحديدا دقيقا ، ولذلك دعت الحاجة شيئا فشيئا ، إلى الاعتماد على أصول مشتركة ينطلق منها الفقيه في تحديد الدلالة، فظهر بفعل هذه الحاجة الملحة (علم الأصول) الذي نشأ وترعرع في أحضان الفقهاء إلى أنْ أصبح اليوم علما شامخا ، وحقلا هاماً من حقول المعرفة .

فكان الجانب اللغوي الدلالي من أهم الجوانب التي يقوم عليها علم الأصول الذي أسس على منطق اللغة العربية [٢] ، حيث إنّ الأصوليين اعتمدوا في فهم نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية على استقراء الأساليب والمفردات العربية ودراستها بالاستعانة بالنتائج التي توصل إليها البلاغيون واللغويون [٣] . ولكنهم لم يتعاملوا مع هذه الأساليب بالأداة نفسها التي اعتمدها البلاغيون واللغويون ، وهي الذوق غالباً ، وإنما كان ميزانهم في تحديد الدلالات هو العقل مما لا يتيح مجالا كثيرا للاختلاف ، ولذلك ترى أنّ نظراتهم ونظرياتهم قد امتازت بالدقة والتشعب والإتقان وتوصلوا إلى نتائج قد تختلف مع النتائج التي توصل إليها البلاغيون واللغويون بصورة عامة في دراساتهم الدلالية التي تعد مقدمة هامة وضرورية في علم الأصول .

فقد كانت المصنفات الأصولية تبدأ بما يعرف بـ (المقدمات اللغوية) ، أو(أبواب الخطاب)[٤] ، أو (مباحث الألفاظ) [٥] . وقد تناولوا في هذه المقدمات موضوعات دلالية مختلفة مثل : العام والخاص ، والمشتق، ودلالة الأمر والنهي ، والحقيقة والمجاز ، والمشترك والمترادف ، ونشأة اللغة ، وطبيعة الصلة بين اللفظ والمعنى ، والإطلاق والتقييد ، والمفصّل والمبين ، وما إلى ذلك من الاتجاهات الدلالية التي درست بنظرات عقلية صارمة ، وذلك اعتقادا منهم بأن النظر العقلي هو أقرب إلى الإقناع ، وخاصة في المسائل الشرعية التي يراد منها تحديد الحكم الشرعي وتوضيحه للمكلف .

أمّا علماء اللغة فهم وإن كان لهم فضل السبق في إثارة كثير من المسائل الدلالية في جوانب متعددة بغية الوصول إلى فهم المعنى وتحديده على مستويات متعددة ، إلاّ أنهم نظروا إلى البحث الدلالي ضمن النطاق الداخلي للغة ، أي: أنهم عمدوا إلى دراسة اللغة في ذاتها ، وأبعدوا الجانب العقلي

٢– معيار العلم : ٤١ –٤٢ ، وينظر المنطق : ١/ ٣٢ .
٣– ينظر : التصور اللغوي عند الأصوليين : ٩ .
٤– ينظر : دراسة المعنى عند الأصوليين : ١١ .
١– ينظر : الذريعة إلى أصول الشريعة : ١/ ٧ – ٢٠ ، والمعتمد في أصول الفقه : ١٤ – ٢٤ ، وإرشاد الفحول : ١٢ – ٢٩ .
٢– ينظر : أصول الفقه : ١ / ٤٧ وما بعدها ، دروس في علم الأصول ، الحلقة الثالثة : ١ / ٨٣ وما بعدها .

الصرف من نطاق دراساتهم ، ولذا تضافرت جهودهم على مستوى الدلالة الوضعية للألفاظ وما يحوطها من دلالات تابعة أخرى كالدلالة الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، ثم بعد ذلك إلى الدلالات الالتزامية والسياقية ، وكل ذلك بنظر ذوقي على وفق معطيات اللغة ، وما توصل علماؤها إلى قواعد وقوانين وضعية تراكمت وتطورت وتشعبت عبر مسيرة طويلة من البحث والتجديد ، وهذا ما أرسى القاعدة إلى أنْ تصبح هذه الدراسات علما مستقلا يجمع بين هذه الدراسات المختلفة التي تبحث في المعنى بمصطلح جديد هو (علم الدلالة) ، الذي يعرّفه بعضهم بأنه (دراسة المعنى) أو (العلم الذي يدرس المعنى) أو (ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى) [١] .

وقد ظهر هذا المصطلح بين علماء اللغة الغربيين ، ومن ثم ، بصورة محددة في نهاية القرن التاسع عشر على يد الفرنسي ميشال بريال عام ١٨٨٣ م قاصدا علم المعنى [٢] . وأطلقوا عليه عدة أسماء في اللغة الانجليزية أشهرها الآن كلمة (Semantics) ، أما في اللغة العربية فيسميه بعضٌ : (علم الدلالة) بفتح الدال وكسرها ، وبعضهم يسميه (علم المعنى) ، وبعضهم يطلق عليه اسم (السيمانتيك) ، أخذا من الكلمة الانجليزية أو الفرنسية [٣] .

والموضوع الأساس لهذا العلم هو المعنى [٤] ، فهو علم لغوي يقوم على تحليل معنى الكلمة أو العبارة وعلى اكتشاف أوسع العلاقات بين الوحدات اللغوية المختلفة[٥] .

وحقيقة الأمر أنه لا يمكن فصل علم الدلالة عن غيره من فروع اللغة ، فكما أنّ علوم اللغة تستعين بالدلالة للقيام بتحليلاتها ، يحتاج علم الدلالة لأداء وظيفته إلى الاستعانة بهذه العلوم ، فلتحديد معنى الحدث الكلامي نحتاج إلى ملاحظة عدة جوانب منها :

١- الجانب الصوتي الذي قد يؤثر في المعنى .
٢- دراسة التركيب الصرفي للكلمة .
٣- مراعاة الجانب اللغوي .
٤- بيان المعنى المعجمي للكلمة .
٥- معرفة المعاني الالتزامية .
٦- معرفة ومتابعة التطور الدلالي للكلمات .
٧- وما إلى ذلك مما يعد رمزا يشار به إلى المعنى . [٦]

٣- علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١١ .
٤- ينظر : علم الدلالة السلوكي : ٩ - ١٠ ، وعلم الدلالة العربي ، فايز الداية : ٦ ، وعلم الدلالة ، بالمر : ٤ .
٥- ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١١ .
١- ينظر المصدر نفسه : ٥ .
٢- ينظر : علم الدلالة السلوكي : ٧ .
٣- ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١٥ .

ولابد لنا من التنويه هنا إلى أنّ هذا المصطلح ، وإنْ كان جديدا في تسميته واستقلاله وطريقة طرحه إلاّ أنه يرجع في مضمونه ومحتواه إلى جذور سابقة وجهود كبيرة لعلماء العرب والمسلمين الذين وضعوا ركائز هذا العلم حيث التفتوا إلى كثير من قضايا البحث الدلالي ، وكشفوا عن سماته فكوّنوا بذلك ركائزه الضخمة وحققوا مزية الاكتشاف العلمي [١]. فقد كان البحث اللغوي عند العرب في دلالات الكلمات من الأعمال المبكرة في البحث الدلالي ، كالبحث في معاني الغريب في القرآن الكريم ، والبحث في مجاز القرآن الكريم ، وتأليف معاجم الألفاظ ، والوجوه والنظائر ، وما إلى ذلك ، ثم تنوعت اهتماماتهم بعد ذلك فغطت جوانب كثيرة من الدراسات الدلالية[٢] .

وبذلك يتضح أنّ مباحث هذا العلم ليست بجديدة ، فقد أثيرت وطرحت وعولجت ولكن ليس بإطار العلم المستقل المميز عن فروع علوم اللغة الأخرى ، وبذلك نستطيع القول بأن ((معالجة القضايا الدلالية بمفهوم العلم ومناهج بحثه الخاصة وعلى أيدي لغويين متخصصين إنما تعد ثمرة من ثمرات الدراسات اللغوية الحديثة وواحدة من أهم نتائجها))[٣].

وعلم الدلالة اليوم يعد من أهم الوسائل العلمية في تحديد المعاني ودراسة النصوص ، لأنه يعتمد الشمولية والمرونة في دراسة النص ولا يتقيد بمجموعة من القوانين والقواعد الجامدة ، وإنما يسعى إلى تسخير هذه العلوم التي من شأنها أن توصله إلى المعنى بما في ذلك علوم الصرف ، والنحو ، والبلاغة ، والمعجم ، وعلم الأصوات ، مضافا إلى دراسة السياق والمفهوم ، وتعدد المعنى ، ودراسة الظواهر الاجتماعية والسلوكية المرتبطة باللغة ، لأنه ينظر إلى اللغة ككائن حي متطور ، فهو مرتبط بالإنسان الذي تحكمه قوانين الزمان والمكان والبيئة وما إلى ذلك ، فيتغير ويتطور تبعا لها ، ((ورغم اهتمام علم الدلالة بدراسة الرموز وأنظمتها حتى ما كان خارج نطاق اللغة ، فإنه يركز على اللغة من بين أنظمة الرموز باعتبارها ذات أهمية خاصة بالنسبة للإنسان)) [٤] .

وفي هذا الفصل من هذه الدراسة سنحاول الكشف عن دلالات أخرى في السورة ، وقد سميناها بالمعاني الدلالية ، وهي المعاني التي تثيرها أدوات هذا العلم الواسع . وهو القسم الثاني من عنوان هذه الدراسة ، لتشكل مع قسمها الأول وهو الجانب البلاغي نظرة متكاملة للنص ضمن هذا المستوى الدلالي ، تُسهم في إعطاء صورة أكثر وضوحا ، وأقرب إلى الدلالة الحقيقية .

أولاً : الدلالة الصوتية :

---

٤ – ينظر : جهود العلماء في هذا المجال : تطور البحث الدلالي : ٣٣ وما بعدها .
٥– ينظر علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ٢٠
١– علم الدلالة ، أحمد مختار : ٢٢ .
٢– المصدر نفسه : ١٢ .

ونقصد بالدلالة الصوتية : هو ذلك الإيحاء الصوتي النابع من ذات الكلمة أو تركيبها ، أو المصاحب للجملة في أدائها ، الدال على جانب من المعنى أو المؤثر فيه .

كدلالة بعض الألفاظ الحاكية للأصوات الطبيعية ، مثل : (ريحٌ صرصر) ، ومثل: (دَمْدم) الذي يعني العذاب التام [1].

وهذه الدلالة مأخوذة من تكرار مقطع صوتي محاكي لصوت الفعل، ليحدث الشدة والقوة والمبالغة والاستمرار .

وكالدلالة الصوتية المطّردة التي تعتمد تغيّر مواقع الفونيمات [٢] ، والتي تعتبر مقابلات استبدالية بين الألفاظ بحيث إنّ كل تغيير في أي مقابل استبدالي[٣] ينتج عنه تغيّر في المعنى ، وهكذا نجد أنّ القيم الخلافية من أهم مقومات التنظيم الصوتي في اللغة [٤] . ومثال تلك الدلالة نجدها في مثل الكلمات : طاب – ناب – شاب – ذاب – ثاب [٥].... الخ .

ويسمي ابن جني هذه الدلالة بالدلالة اللفظية ، وهي عنده من أقوى الدلالات[٦] ، في حين هي دلالة قاصرة عند بعض علماء اللغة [٧] .

وقد تكون هذه الدلالة المطردة بواسطة حرف من حروف الكلمة كما مثلنا، وكمثل (الرجز والرجس) فالرجز:ِ هو ((العذاب في لغة أهل الحجاز وهو غير الرجس ، لأنّ الرجس: النتن ، وقال النبي "صلى الله عليه واله " في الطاعون : إنه رجز ٌ عذب الله به بعض الأمم قبلكم)) [٨] .

وقد تكون بواسطة تغيّر الحركات في بنية الكلمة مثل : (البِر والبَر والبُر) ومثل (الجُنة والجَنة والجِنة) [٩] ، ومثل (مُرسِل ومُرسَل) .

ومن أنواع الدلالة الصوتية الأخرى ، الدلالة التي تسمى بالدلالة الصوتية فوق التركيبية التي تتشكل من فونيمات ثانوية لا تكون جزءً من تركيب الكلمة – بعكس الفونيمات التركيبية – وإنما تظهر

٣- ينظر : مجمع البيان : ١٠ / ٤١٧ .
١- الفونيم : يعرف بعدة تعريفات منها ، إنه اصغر وحدة صوتية يمكن التفريق بها بين الكلمات ، ينظر : الكلمة ، دراسة لغوية ومعجمية : ٤٣ .
٢- المقابل الاستبدالي : هو الحرف الذي يحل محل الآخر وبحلوله يتغير معنى الكلمة .
٣- ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ٧٥ – ٧٨ .
٤- ينظر : الدلالة اللغوية عند العرب : ١٦٦ ، واللغة العربية معناها ومبناها : ٧٥ .
٥- ينظر : الخصائص : ٣ / ١٠٠ .
٦- ينظر الدلالة اللغوية عند العرب : ١/ ٢٣٥ .
٧- مجمع البيان : ١ / ٢٣٥ .
٨- البر بالكسر : هو الإحسان ، والبر بالفتح : هو خلاف البحر ، والبر بالضم : هو القمح ، والجنة بالضم : هي الستر ، والجنة بالفتح : هي البستان الذي يجنه الشجر ، والجنة بالكسر هو الجنون الذي يستر العقل . ينظر : مجمع البيان : ١٠ / ١٦ .

وتُلاحظ حين تضم كلمة إلى أخرى أو حين تستعمل الكلمة كجملة وباستعمال خاص ، ولذا يطلق عليها ، بالفونيمات فوق أو غير التركيبية [١] .

ويمثل هذه الدلالة كل من (النَّبر) و (التنغيم) .

أما النبرُ فهو ((علوٌّ في بعض مقاطع الكلمة " بالقياس إلى المقاطع الأخرى " ، يكون مصحوبا أحيانا بارتفاع في درجة الصوت ، وينتج هذا العلو من زيادة اندفاع الهواء الخارج من الرئتين حين يشتد تقلص عضلات القفص الصدري))[٢] ، وهو ما أسماه الدكتور محمود السعران : (الارتكاز) ، وعرفه بأنه : ((درجة قوة النَفَس التي يُنطق بها الصوت أو المقطع))[٣] .

وأمّا التنغيم : ((فهو تغييرات تنتاب صوت المتكلم من صعود إلى هبوط ، ومن هبوط إلى صعود لبيان مشاعر الفرح ، والنفي والغضب ، والإثبات ، والتهكّم ، والاستهزاء ، والاستغراب))[٤].

(والتنغيم في الكلام يقوم مقام الترقيم في الكتابة ، غير أنّ التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة)) [٥] .

والنغمات في نظام التنغيم الصوتي نوعان هما : النغمة الهابطة ، وهي التي يكون نزولها من أعلى إلى أسفل ، والنغمة الصاعدة : وهي التي يكون صعودها من أسفل إلى أعلى ، على المقطع الذي وقع عليه النبر .[٦]

وقد استغرقت بعض الدراسات الحديثة في تصنيفه إلى أقسام فرعية متعددة[٧].

ولا يخفى أنّ للتنغيم وظيفة دلالية هامة ، وهو من الخطورة والضرورة بمكان يلزمنا معهما الحذر والترقب الشديدان ، وخاصة في تعاملنا مع النص القرآني .

أمّا الخطورة ، فلأن الاعتماد على هذا النوع من الدلالة هو ضرب من المجازفة كما يقرر أحد علماء العربية [٨] ، ولكن ليس للسبب الذي ذكره من أن العربية لم تعرف في قديمها ، وتسجّل لنا شيئا من ذلك ، لأن القدماء وإن لم يعرفوا بالمصطلح ، قد أشاروا إليه ، وبنوا عليه في توضيح الدلالة [٩] . ولكن قد يكون السبب هو أن لغة العرب ، ومنها القرآن الكريم قد وصلتنا مكتوبة لا منطوقة ، وأن

٩- ينظر : الأصوات العربية : ١٦١ – ١٦٢ .
١٠- في البحث الصوتي عند العرب : ٦٢ .
١- علم اللغة : ١٥٧ .
٢- في البحث الصوتي عند العرب : ٦٣ .
٣- اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٢٦ .
٤- ينظر في البحث الصوتي عند العرب : ٦٣ .
٥- ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٢٩ ، والكلمة دراسة لغوية ومعجمية : ٥٦ .
٦- ينظر : مناهج البحث في اللغة : ١٦٣ .
٧- ينظر جهود العلماء في ذلك : البحث الدلالي في تفسير مجمع البيان : ٤٩ .

التنغيم هو عملية صوتية بحتة ، وقد يسهل علينا إجراء التنغيم فيما نعرفه من دلالة التراكيب ، ولكننا قد نجازف كثيرا في إجرائه على ما نجهله من تراكيب خفية الدلالة .

وأمّا الضرورة ، فلأنّ النص القرآني يكاد يخلو من علامات الترقيم الدالة على المعاني ، كالتهكم والاستغراب ، أو التعجب ، والاستفهام ، والتقرير ، وغير ذلك ، إلاّ ما تؤديه علامات التجويد التي هي بمثابة النقطة أو الفاصلة ، ولذلك إنّ الحاجة ماسة لإبراز دور التنغيم في النص القرآني في كثير من تراكيبه لتوضيح الدلالة الدقيقة ، ومثلا على ذلك ، ((استمع إلى قوله تعالى في سورة يوسف بعد فقد صواع الملك : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾[١] ، فلا شك في أنّ تنغيم جملة (قالوا جزاؤه) بنغمة الاستفهام ، وجملة (من وجد في رحله فهو جزاؤه) بنغمة التقرير سيقرب معنى الآيات إلى الأذهان ويكشف عن مضمونها))[٢].

وملخص القول في الدلالة الصوتية أنها يمكن تقسيمها إلى قسمين :

أ – الدلالة الصوتية التركيبية التي تكون في بنية الكلمة وتركيبها ، وهي على نوعين :

١- دلالة صوتية سماعية ، وهي دلالة غير مطرّدة ، وهي المحاكية لأصوات الطبيعة .

٢- دلالة صوتية مطردة وهي الناشئة من بنية الكلمة .

ب- الدلالة الصوتية ، فوق التركيبية وتضم نوعين أيضا :

١- النبر .

٢- التنغيم . [٣]

وفي سورة الإسراء نجد لهذا النوع من الدلالة أثرا قد يسهم في تجلية المعنى وترسيخه ، كما نلمس ذلك مثلا في قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[٤].

فالمراد بالعمى في الموضعين هو عمى البصيرة بدليل أنّ الآية مسوقة لبيان التطابق بين الدنيا والآخرة [٥] ، يقول تعالى ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٦] ، ((والعمى الأول موجب للثاني وهو في الموضوعين مستعار من آفة البصر))[٧] ، ولكن جوّز بعضهم أنْ يكون (أعمى) أفعل تفضيل من عمى البصيرة ، وهو من العيوب الباطنة التي يجوز أنْ يُصاغ منها أفعل التفضيل ، كالأحمق ، والأبله ، ولذلك قرأ بعضهم (أعمى) الأولى بالإمالة ، والثانية بالتفخيم [٨]

١- سورة يوسف : ١٣ .
٢- علم الدلالة : ١٣ .
٣- ينظر : البحث الدلالي في تفسير مجمع البيان : ٢٧ .
٤- سورة الإسراء : ٧٥ .
٥- ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٦٥ .
٦- سورة الحج : ٤٦ .
٧- روح المعاني : ٨ / ١١٧ .
١- ينظر : مجمع البيان : ٣١٤/٦ ، والكشاف : ٢ / ٤٦٠ .

، حيث ((قال بعض المحققين : إنه لما أريد افتراق معنى " الأعمى " في الموضعين ، افترق اللفظان إمالة وتفخيما ، وفخم الثاني ، لأنّ ما يدل على زيادة المعنى أولى بالتفخيم مع عدم حسن الإمالة فيه حسنها في الأول)) [1] وذلك لأن من لم يُمل الثانية لم يرد بها الجارحة المؤوف ، فجعلها من أفعل التفضيل ولا يجوز ذلك في المصاب ببصره ، فإذا جعله كذلك لم يقع الألف في آخر الكلمة ، لأن آخرها هو من (كذا) ، وإنما تحسن الإمالة في الأواخر نحو الياء ليكون أظهر لها وأبين ، وكلمة (أعمى) الثانية لم تقع في الآخر ، لأنه قد حذف من أفعل التفضيل الجار والمجرور ، وهما مرادان في المعنى مع الحذف [2] .

ويكون المعنى، حينئذ ، أنه في الآخرة يكون أعمى منه في الدنيا ، ويؤكد ذلك ظاهر ما عطف عليه من قوله تعالى بأفعل التفضيل : (وأضلّ سبيلا) .

ومن المظاهر الصوتية الأخرى التي لها أثر في الدلالة هو التغير الحركي في الكلمة ، كقوله تعالى : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾[3] بضم الذال ، وقرأ سعيد بن جبير (من الذِل) بكسر الذال ، وهو الانقياد ، وأصله في الدواب والنعت منه ذلول ، وهو ضد الصعوبة في الدواب ، وفي نهج البلاغة : ((فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم وإنْ أسلس لها تقحم))[4] ، أي: ليست بذليلة منقادة .

وأما (الذُل) بالضم وهو القراءة المعتمدة في المصحف الشريف فأصله في الإنسان وهو ضد العز ، والنعتُ منه ذليل [5].

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[6] .

حيث إنّ كلمة (وقرا) ، تقرأ بصوتين متقاربين : بفتح الواو وكسرها ، وقد وردت في القرآن الكريم بهذين الصوتين ، فوردت في هذه الآية (وَقراً) بفتح الواو ، وبآية أخرى بكسرها في قوله تعالى : (فالحاملات وِقرا) [7] ، والوَقر بالفتح : ((الثقل في الأذن ، وبالكسر الحمل ، والأصل فيه الثقل إلاّ أنّه خولف بين البنائين للفرق))[8] . والى هذا الفرق يشير ابن فارس ، وابن منظور [9] ، وكذلك ابن السّكيت الذي يوضح أنّ (الوقر) بالكسر هو الثقل الذي يحمل على الرأس ، أو على الظهر ، مستدلا بقوله تعالى : (فالحاملات وقرا) [10] .

٢- روح المعاني : ٨ / ١١٧ .
٣- ينظر : مجمع البيان : المصدر نفسه .
٤- سورة الإسراء : ٢٤ .
٥- نهج البلاغة : ١ / ٣٣
٦- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٧٤ ، وروح المعاني : ٨ / ٥٦ .
٧- سورة الإسراء : ٤٦ .
٨- سورة الداريات : ٢ .
١- مجمع البيان : ٦ / ٢٩٣ .
٢- ينظر : معجم مقاييس اللغة : (وقر) ٦ / ٣٢ . ، ولسان العرب : (وقر) :١٥ / ٣٦٤ .
٣- ينظر : إصلاح المنطق : ٤٠١ .

أمّا ظاهرة التنغيم في السورة فنجدها ، في مواضع كثيرة من تراكيبها المتفرعة الأساليب التي ينبغي أنْ تؤدى على وفق صيغ تنغيمية خاصة ، فلكل أسلوب نمط تنغيمي خاص ، بعضها مرتفع وبعضها منخفض ، وبعضها يتفق مع النبر وبعضها لا يتفق ، وبعضها صاعد من مستوى أسفل ، وبعضها هابط من مستوى أعلى ، فالهيكل التنغيمي للجملة الاستفهامية مثلا هو غير الهيكل التنغيمي الذي تأتي به جملة الإثبات ، وكذلك تختلف الجمل المؤكدة عن غير المؤكدة [١] ، وكذلك تتميز بها معاني التوبيخ ، والاستنكار ، والاستبعاد ، والتحقير وغير ذلك .

ففي قوله تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾[٢] ، يمكن فهم عبارة (كل يعمل على شاكلته) على وفق مستوى التنغيم فيها ، حيث إنها تحتمل أنْ تكون عبارة إنشائية أو خبرية ، والتنغيم يؤدي دورا في إبراز هذا المعنى ، ولذلك نرى بعض المفسرين يحاول إعطاء وجهين للعبارة ، فيكون المعنى : أنّ ((كل واحد من المؤمن والكافر يعمل على طبيعته وخليقته التي تخلق بها)) [٣] ، فهو إخبار عن أحوال الناس ، والله سبحانه هو الحاكم بينهم . أو أن يكون بمعنى الإنشاء ، حيث إنّ الله سبحانه يأمر الإنسان أنْ يسير على وفق سجيته وجِبِلّته ((على ما هو أشكل بالصواب وأولى بالحق عنده)) [٤] . ولاشك في أنّ لدرجة التنغيم ونوعه أثراً في توجيه أحد الفهمين .

وكذلك نجد الأثر في قوله تعالى : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾[٥] ، إذ إنّ نبرة الخطاب ودرجة التنغيم يسهم إسهاما فاعلا في تعيين الغرض الحقيقي من هذا الأسلوب ، فلو أتيح لنا سماع هذه الآية وطريقة تنغيمها من مصادرها الأولى ، لأمكننا الحكم بغرضها دون التحير في كونها دالة على التسوية ، أو على تفويض الاختيار ، أو التهديد والوعيد ، أو غير ذلك .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾[٦] ، حيث يؤدي التنغيم هنا دور الوصل والفصل بين الجمل الثلاث في هذه الآية الكريمة ، إذ يلزم الاستمرار في تنغيم الجملتين الأوليتين (فأصفاكم ربكم بالبنين) و (واتخذ من الملائكة إناثا) بنغمة الاستفهام الاستنكاري ، وأن أي إخلال في شمول الجملة الثانية بنغمة الاستفهام والإنكار سيؤدي إلى فصلها وتحولها إلى جملة خبرية ، وهو ما يلزم منه فساد المعنى وبطلانه ، في حين تنفصل الجملة الثالثة تلقائيا بنهاية التنغيم الاستنكاري ، وتبدأ بتنغيم مغاير يدل على الخبر والإثبات والتأكيد .

٤- ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٢٦ .
٥- سورة الإسراء : ٨٤ .
٦- مجمع البيان : ٦ / ٣٣٠ .
٧- المصدر نفسه .
٨- الإسراء : ١٠٧ .
١- الإسراء : ٤٠ .

ويتجلى التنغيم كذلك في قوله تعالى : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)[1] ، في إظهار معاني التعجيب والإنكار والاستغراب من هؤلاء الذين يقترحون على النبي " صلى الله عليه واله " الآيات المعجزة التي تناسب أهوائهم بكل سخرية وتهكم ، ومثل هؤلاء لا جواب لهم إلاّ بمثل هذه العبارة المشحونة بالمعاني والدلالات ، التي يؤدي التنغيم دورا واضحا في الإيحاء بها .
وهكذا يجب دائما ، المناسبة بين الأغراض الحقيقية أو المجازية للأساليب ، وبين مستوى التنغيم ونوعه الموافق لهذه الأساليب ، فمن اجل أنْ نميّز بين (كم الخبرية و كم الاستفهامية) مثلا ، لابد من تنغيم العبارة بالنغمة المناسبة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ [2] ، حيث يسهم التنغيم مع معطيات أخرى في النص على تعيين هذه الدلالة .

ثانيا : الدّلالة الصرفية :

وهي الدلالة المبتنية على موضوعات علم الصرف الذي يبحث في أحكام بنية الكلمة وما يطرأ عليها من تغيير [3]، وتقوم هذه الدلالة على ما تؤديه الصيغ الصرفية وأبنيتها من معان [4]، حيث إنّ لبناء الكلمة زيادة، ونقصا ،وأصالة، أثرا في تحقيق المعنى وتوجيهه ، وتوفر هذه الميزة مرونة، وسعة ،وثراءً للغة العربية التي تميزت بقبولها للتغيير ، والتشكل المنتج للمعاني المتكثرة .

فللاسم دلالته ، والفعل وصيغه معانٍ ودلالاتٍ ، بل إنّ للصيغة الواحدة معاني متعددة تتحدد على وفق السياق الذي ترد فيه .

وكذلك للمشتقات من اسم الفاعل ، واسم المفعول ، وصيغ المبالغة ، والصفة المشبهة وغيرها من المشتقات الأخرى ، دلالاتها المختلفة .

ونحن هنا ليس بصدد الدراسة التنظيرية لهذه الدلالة بفروعها المتعددة ، وإنما سنركز الحديث على ما جاء في هذه السورة من دلالات تبرزها هذه المعاني الصرفية ، التي لها دور في إغناء النص بنوع جديد من المعاني الدلالية .

٢- سورة الإسراء : ٩٣ .
٣- سورة الإسراء : ١٧ .
١- ينظر تعريف علم الصرف : شرح ابن عقيل : ٥٩٢/٢ . والنحو الوافي : ٤ / ٦٨٧ .
٢- ينظر : دلالة الألفاظ : ٤٧ .

وسورة الإسراء – كما هو شأن النص القرآني – غنية بهذا النوع من المعاني ففي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[١] ، يقف المفسرون طويلا في بيان دلالة هذه الآية ، مستفيدين من تقلبات بنية الفعل (أمرنا) . والقراءة المعروفة لهذا الفعل هو (أَمَرنا) بفتح الهمزة ثم الميم مخففة ، بمعنى الطلب ، وقد مرت دلالة الآية حسب هذا المبنى في الفصل الثاني .

ولهذا الفعل في داخل هذا النص أبنية أخرى ، لُجأ إليها تخلصا من المعنى الظاهر والتباسه ، فقد قُرئ : (آمرنا) بالمد ، ونسب ذلك إلى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وآخرين [٢] ، فيكون من أمِر القومُ إذا كثروا ، وآمرهم الله : كثّرهم ، فيكون المعنى : أنّ الله سبحانه إذا أراد بقوم هلاكا كثّر مترفيهم ففسقوا فاستحقوا الإهلاك ، ويقوي حمل الفعل على هذا البناء على (أَمَرْنا) من الأمر الذي هو خلاف النهي ، أنّ الأمر بالطاعة على هذا يكون مقصورا على المترفين ، في حين أنّ الأمر بالطاعة متوجه إلى جميع الخلق من مترف وغيره [٣].

وقد قُرئ أيضا بتشديد الميم (أمّرنا) ، عن علي والحسن والباقر (عليهم السلام) ، وعن ابن عباس وغيرهم [٤]. ولهذا البناء دلالتان ، فقد يكون بمعنى (كثرنا) أيضاً ، كالبناء السابق ، أو قد يكون من التأمير ، أي : جعلناهم أمراء [٥] ، أي : جعلنا مترفيهم أمراء ففسقوا فاستحقوا الهلاك .

وقد يكون للبناء الأول المعروف في المصحف (أَمَرنا) – مضافا إلى دلالته الظاهرة على الأمر بمعنى الطلب – دلالة أخرى تنسجم مع الأبنية الأخرى الدالة على الكثرة ، فقد يكون مأخوذا من الفعل (أمِر) بالكسر ، يقال : أمِر الله ماله وأمَرَه [٦] ، بمعنى أكثره ، كما جاء في قول زهير :

والإثمُ من شرِّ ما يصال به ... والبِرّ كالغيث نبته أمِرُ [٧]

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾ [٨] ، نستطيع أنْ نلحظ متغيرا دلاليا دقيقا من خلال المقارنة والتمييز بين قوله تعالى في هذه الآية : (كَانَ خِطْئاً كَبِيراً) بكسر الخاء ، وسكون الطاء ، وبين قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[٩] ، بفتح الخاء والطاء .

٣- الإسراء : ١٦ .
٤- ينظر:الحجة في القراءات السبع: ١٢٤ ،ومعجم القراءات القرآنية:٣١٣.
١ – ينظر مجمع البيان : ٢٦٧ .
٢- ينظر :الحجة في القراءات السبع١٢٤ ،ومعجم القراءات القرآنية:٣١٣.
٣- ينظر مجمع البيان : ٢٦٧/٦ ، والكشاف : ٤٢٢/٢ ، والميزان : ٦٢/١٣ .
٤- ينظر : مجمع البيان : المصدر نفسه .
٥ _ديوانه:٢٠، وفي مجمع البيان:٢٦٧/٦.
٦ – سورة الإسراء : ٣١ .
٧- سورة النساء : ٩٢ .

فالخَطأ هو ما لم يُتعمد ، وكان المأثم فيه موضوعا عن صاحبه [1] ، فهو مخطئ ، من أخطأ يخطئ ، وأما (الخِطأ) فهو المأثم المأخوذ به الإنسان ، وهو أنْ يريد الإنسان ما لا يحسن إرادته وفعله ، فهو خاطئ ، مأخوذ من الثلاثي خطئ يخْطأ ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [2] .

وفي هذه الآية الكريمة التي ورد فيها هذا اللفظ تمييز واضح ين هذين النوعين من الخطأ ، عن طريق التمييز في بنية الكلمة التي توحي في سياق هذه الآية أنه خَطَأ لا يمكن التسامح معه أو الاعتذار منه ، لأنه خطأ لا كالأخطاء التي تصدر من الإنسان الذي يقع منه خلاف ما يريد ، أو الأخطاء التي ورد العفو عنها.

وكذلك نجد هذا النوع من الدلالة في قوله تعالى : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾[3] ، حيث إنّ(مَرَحا) بفتح الراء مصدر وضع موضع الحال ، وكان ممكنا أنْ يكون بكسر الراء (مَرِحا) ، فيكون حالا من الإنسان المخاطب ، أي: لا تمشِ مختالا فخورا ، ((قال الأخفش : ولو قرئ مَرِحا بالكسر كان أحسن في القراءة)) [4] .

ولكن لما كان السياق يقتضي التأكيد في النهي وتسليطه على ذات الفعل ، وهو المشي بهذه الطريقة، جيء بالمصدر ليدل على ذلك بتمامه ، في حين لو كان التعبير باسم الفاعل (مرحا) بالكسر ، لما كان المعنى المراد تاما ، لأنّ الإنسان قد يكون مرحا في صور متعددة ، ومنها المشي بطريقة معينة ، وحيث إنّ المقام يقتضي تأكيد الفعل ، لا وصف الذات ، حسُنت هذه القراءة ، يقول الزجاج : ((مَرَحا مصدر ، ومَرِحا اسم فاعل ، وكلاهما جائز ، إلا أنّ المصدر أحسن ها هنا وأوكد ، تقول : جاء زيدٌ ركضا وراكضا ، فركضا أوكد ، لأنه يدل على توكيد الفعل))[5] .

وفي قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً)[6] ، يرد الفعل (يذّكّروا) بفتح الذال والكاف وتشديدهما ، والأصل فيه : (ليتذكروا)، فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما ، وهو هنا يراد به (الذّكر) ، بمعنى التدبر ، وليس الذكر الذي هو ضد النسيان، وقد قرأ أهل الكوفة غير عاصم (ليذْكروا) ساكنة الذال مضمومة الكاف،[7]

وهو وإن كان يدل على الذكر الذي يحصل بعد النسيان ، إلاّ أنه يدل كذلك على التذكر بمعنى التفكر والتدبر ، ولكنه يختلف عن المبنى الأول في الشدة والتوكيد ، وقدر ورد في القرآن الكريم مخففا ، بهذا

٨- ينظر مجمع البيان : ٦/ ٢٨١ .
٩- سورة يوسف : ٩١ .
١- سورة الإسراء : ٣٧ .
٢- التفسير الكبير : ٢٠ / ٢١١ .
٣- المصدر نفسه .
٤- سورة الإسراء : ٤١ .
٥- ينظر : التفسير الكبير : ٢٠ / ٢١٦ .

المعنى أيضا في قوله تعالى : (مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ) [1] ، أي:(تدبروه بعقولكم ، وليس المراد لا تنسوه . [2]

وبذلك يتبين من زيادة المباني في (وليتذكروا) ، التأكيد على هذا الأمر بعد حصول دواعيه ، وتعدد طرقه وتنوعها الحاصلة في هذا القرآن العظيم .

وكذلك في قوله تعالى : (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ)[3].

فإن (رجِل) بكسر الجيم هو الراجل ، يقال : رجلٌ راجِلٌ ، للراجل الذي يمشي على رجليه ، ويقال : جاءنا حافيا رجِلا .[4] وهذه هي القراءة المشهورة في المصحف ، وأما الباقون فقرؤوها : (رَجْـلِك) ، بسكون الجيم [5] ، والمعنى حسب هذا البناء هو نفسه في البناء الأول ، إلاّ أن معنى (رجْلك) بالسكون جمع راجل ، مثل : راكب وركْب ، وصاحب وصحْب [6] ، و روى ابن جني عن قطرب أنه قال: الرجْل : الرجال ، ويؤيد هذا المعنى قراءة عكرمة وقتادة : ورجالك،[7] قال زهير في الرجْل :

هم ضربوا عن فرجها بكتيبة كبيضاء حَرْسٍ في جوانبها الرّجْلُ [8]

إلاّ أن الدلالة الأولى ، أي : بمعنى الراجل ، أليق بالمعنى للمقابلة بين (خيلك) و (رجلك) ، الدالة على التنوع في جيش إبليس ، وحزبه ، ما بين راكب وراجل ، ولا معنى للمقابلة بين الخيل من جهة والرجال من جهة أخرى ، لأن الخيل في الحرب إنما هي براكبها ، وتصنيف القوة في المواجهة والحرب باعتبار المحاربين بين فارس وراجل ، وكذلك نجد أثرا لهذه الدلالة الصرفية في هذا النص القرآني في قوله تعالى : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً) [9] .

فقد ورد الفعل (تفجُر) في الجزء الأول من الآية مخففا بفتح التاء وضم الجيم ، وذلك لأن الينبوع واحدٌ ، ولا يناسبه التكثير ، وقد قرأه آخرون (تُفَجِّر) بضم التاء وتشديد الجيم ، فيكون المعنى ناظرا ، إلى تكثير الانفجار من الينبوع . والبناء الأول أكثر دقة في ملائمة المعنى في السياق .

١- سورة البقرة : ٦٣ .
٢- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٩١ .
٣- سورة الإسراء : ٦٤ .
٤- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٣٠٧ .
٥- ينظر : المصدر نفسه .
٦- ينظر : المصدر نفسه ، و **المفردات**:١٩٠.
٧- ينظر : مجمع البيان :٣٠٧/٦ .
٨- البيت في ديوانه : ٢٠ ، وفيه :(في طوائفها) بدل(جوانبها)، وفي اللسان: (حرس) ، ٣ / ١٢٢ ، وفيه :عن (قرحها) بدل(فرجها) و (في طرائقها) بدل (في جوانبها) ، والحرس : الجبل ، والبيضاء هضبة في الجبل ، والفرج ، موضع المخافة من العدو ، والمعنى : هم ضربوا موضع المخافة بكتيبة كأنها هضبة الجبل .
٩- سورة الإسراء : ٩٠ – ٩١ .

أما في الجزء الثاني من الآية فقد ورد الفعل (تُفجّر) ، وقد اتفق الجميع على التشديد فيه لمناسبته التكثير والجمع ، كقوله تعالى : (وغلّقت الأبواب) [١] . والتفجير ، هو التشقيق ، وتفجرُ لنا ينبوعا ، أي : تشق لنا من أرض مكة وهي قليلة الماء عينا ، ينبع منها الماء ، (وتفجير الأنهار) ، أي : تشقيقها حتى يجري الماء من تحت الأشجار [٢] .

وفي قوله تعالى : (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً) [٣] . حيث جاءت كملة (الشياطين) أولاً بصيغة الجمع ، وبصيغة المفرد في الجزء الآخر ، وذلك للتفريق بين الأمرين ، حيث إن كل مبذر أخو شيطانه الخاص ، إذ إن لكل إنسان قريناً ، إذا وافقه فهو أخوه ، فجميع المبذرين أخوان لشياطينهم ، أما الإفراد فلإبليس الذي هو أبو الشياطين . [٤]

وهناك مبحث دلالي صرفي في قوله تعالى :

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً)[٥].

فإنه كثيرا ما يواجهنا في القرآن الكريم هذان البناءان : الإنزال، والتنزيل ، ويتكرر التناوب بين الفعل (أنزل) والفعل (نزّل) ومشتقاتهما في سياقات مختلفة.

وقد يفهم من صيغة (فَعّلَ) معان غير ما تدل عليه صيغة (أفْعَلَ) [٦] ، وقد تستعمل (فعّل) بمعنى (أفْعَل) في مواضع مثل : أكمل وكمّل [٧] .

وقد يساعد السياق على إبراز فوارق دلالية بين الصيغتين ، فكثيرا ما ترد صيغة (نزّل) في موارد تدل على النزول التدريجي للقرآن الكريم ، وأنه نزل منجما مفرقا ، بينما تدل صيغة (أنزل) على نزوله دفعة واحدة ، أو ترد في الموارد التي لا يُلحظ فيها معنى التدرج أو التكرار ، كما في الآية الأولى : (وبالحق أنزلناه) ، فهي ناظرة إلى إنزال القرآن الكريم كاملا دون ملاحظة أيّ خصوصيات زائدة أخرى سوى وصفه بأن إنزاله كان حقا وبالحق .

بينما في الآية الثانية نجد أنها وردت في سياق يلحظ هذه الخصوصية وهي نزول القرآن الكريم مفرقا منجما ، في فترة زمنية استغرقت ثلاث وعشرين سنة . ودلالة التنزيل هنا تتناغم مع دلالة السياق الصريحة في هذا المعنى في قوله تعالى: (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً)

١- سورة يوسف : ٢٣ .
٢- ينظر : مجمع البيان :٣٣٧/٦ ، والتفسير الكبير : ٢١ / ٥٧ .
٣- سورة الإسراء : ٢٧ .
٤- ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ٢ / ٢٩ .
٥- سورة الإسراء : ١٠٥ – ١٠٦ .
٦- ينظر : شذا العرف في فن الصرف : ٢٩ وما بعدها .
٧- ينظر : مجمع البيان : ٢ / ٢٩ .

[١]، حيث إن معنى (فرقناه) ، بتخفيف الراء : فصلناه ونزلناه آية آية ، وسورة سورة ، ويدل عليه قوله تعالى (على مكث) وقد قرأت (فرّقناه) بالتشديد . [٢]

((قال أبو عبيدة : التخفيف أعجب إلي ، لأنّ تفسيره : بيّناه ، ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى إلاّ أنه أنزل متفرقا ، فالفرق يتضمن التبيين ، ويؤكده ما روى الثعلبي عن ابن الأعرابي أنه قال : فرَقتُ أفْرقُ بين الكلام ، وفرّقت بين الأجسام ، ويدل عليه قوله(صلى الله عليه واله وسلم) : (البَيّعان بالخيار ما لم يَتَفَرّقا ، ولم يقل يَفْترقا)) [٣] .

كما نلحظ ذلك الفرق بين الإنزال والتنزيل ، والإشارة إلى ميزتين مختلفتين فيه ، في آيات كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى في سورة آل عمران : (نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ)[٤] .

حيث ميز النص بين مادتي الإنزال والتنزيل مع الكتب السماوية الثلاثة ، والإشارة إلى طريقة نزولها .

ثالثاً: الدلالة النحوية :

وهي الدلالة القائمة على طريقة نسق الجملة ، وترتيب كلماتها على وفق ما يقتضيه المعنى في النفس ، أو هي : ((الدلالة التي تحصل من العلاقات النحوية بين الكلمات التي تتخذ منها موقعا معينا في الجملة بحسب قوانين اللغة)) [٥] ، حيث ((يحتم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيبا خاصا لو اختل أصبح من العسير أن يفهم المراد منها)) [٦] .

فالجملة ليست محض رصف للألفاظ على الصورة المعهودة ، كأن يؤتى بالجملة الاسمية مبدوءا فيها بالمبتدأ ، يليه الخبر ، أو بالجملة الفعلية بأن يؤتى بالفعل يتلوه فاعله ثم تكمل بما يسمى بالفضلة[٧] ، بل ((إن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس))[٨].

١- سورة الإسراء: ١٠٦
٢- ينظر : مجمع البيان : ٦/ ٣٤٧ .
٣- التفسير الكبير : ٢١/ ٦٨ .
٤-- سورة آل عمران : ٣ .
١- الدلالة اللغوية عند العرب : ١٩٤ .
٢- دلالة الألفاظ : ٤٨ .
٣- ينظر : نحو المعاني : ٢٥ .
٤- دلالة الإعجاز : ٥٣ .

وهذه هي الفكرة التي انطلق منها عبد القاهر الجرجاني بتأسيس نظريته المعروفة بـ (نظرية النظم)
.

بينما لم يعتن النحاة العناية اللازمة بهذا النوع من الدلالة واقتصروا على ركنين ، أساسيين في الجملة هما المسند والمسند إليه ، وظنوا أنّ السامع محتاج إليهما وحدهما في إفادة المعنى ، لذلك يؤخذ عليهم في دراستهم للجملة ، أنهم لم يولوا المعاني العناية الكافية وإنما اقتصروا فقط على معرفة آثار الألفاظ بعضها ببعض ، وانصرفوا عن المعنى انصرافا مخلا ، حتى صارت طبيعة الجمل وأداؤها المعاني ليس من وظيفة النحو ولا من اختصاصه ، وإنما من اختصاص علم المعاني وهو فرع من فروع البلاغة . [١]

ولذلك استقصينا جانبا كبيرا من هذه المعاني النحوية في الفصل الأول من هذه الدراسة ، وقد سميناه بالمعاني الثانية ، أما في هذا الفصل فسوف نتطرق إلى المعاني الأخرى للجملة وثيقة الصلة بالدراسات النحوية ، وكذلك دلالات حروف المعاني الرابطة للجملة .

أما الجملة : فتقسم باعتبار طرفي الإسناد إلى نوعين أساسيين هما : الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، ويقسمهما ابن هشام إلى اسمية وفعلية وظرفية ، وأضاف الزمخشري قسما رابعا هو الجملة الشرطية ، في حين يرى ابن هشام أنها من قبيل الجملة الفعلية ، وهو رأي ابن يعيش أيضاً [٢] .

والحقيقة أنّ مردّ هذه الأقسام إلى نوعين اثنين هما الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، لأن الجملة الظرفية ترجع إلى الجملة الاسمية ، أو الفعلية بحسب التقدير ، والجملة الشرطية ترد إلى الفعلية [٣] .

أما المقياس في التمييز بين الجملتين الاسمية والفعلية ، فهو تقدم المسند ، أو المسند أليه ، أو تأخرهما ، يقول ابن هشام : فالاسمية هي التي صدرها اسم ، وأما الفعلية فهي التي صدرها فعل [٤]. ومعنى ذلك أنّ جملة (قام زيدٌ) ، فعلية ، وجملة (زيدٌ قام) ، اسمية.

أما المحدثون المجددون فيرون أنّ التفريق لا يتمّ على أساس الصدارة ، لأنّ ذلك تفريق لفظي ، وإنما يكون على أساس ما يؤديه المسند من وظيفة [٥] ، فقد نظروا إلى حقيقة المسند ، فإنْ كان فعلا ، فهي جملة فعلية ، بما يتمثل به الفعل من التجدد والتغير والزمن .

أما الاسمية ((فهي الجملة التي لا يكون المسند فيها(فعلا) ، أو التي يكون المسند فيها دالاً على دوام انتسابه إلى المسند إليه ، وبعبارة أخرى : إنّ مبنى الجملة اعتمد على حالة المسند إليه)) [٦] .

٥- ينظر : نحو التيسير : ١٢٣ -١٢٥ .
٦- ينظر : مغنى اللبيب : ٢ / ٣٧ ، ورأي الزمخشري في المفصل : ١٦ ، ورأي ابن يعيش في شرح المفصل : ١ / ١٨ .
١- ينظر : العلامة الإعرابية : ٣٠ .
٢- ينظر : مغنى اللبيب : ٢ / ٣٧ .
٣- ينظر : في النحو العربي: ٣٩ .
٤- سورة هود ، دراسة لغوية ودلالية : ١٠٦ .

وعلى ذلك فإنّ قولنا: (قال محمد) و (ومحمد قال) جملتان خبريتان ، وإنّ (محمد) هو فاعل كلتا الجملتين على رأي بعض المحدثين المجددين ، كالدكتور مهدي المخزومي [1] ، والدكتور إبراهيم السامرائي الذي عدّ الجملتين فعليتين مادام المسند(فعلا)[2] ، وكذلك الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ، الذي يعد جملة (زيدٌ حضر) جملة فعلية لا مراء ، لانّ الإسناد فيها للفعل ، ولا اعتداد بما يزعمون بأن الجملة الفعلية هي كلها خبر للمبتدأ)) [3] . وهو رأي تبناه قبلهم أصحاب المدرسة الكوفية .

ويبدو أنّ الاختلاف بين القدامى والمحدثين الذين انتصروا للمذهب الكوفي هو نزاع لفظي في التسمية والاصطلاح ، فالقدماء لا ينكرون أنّ للجملة التي يكون فيها المسند(فعلا) ، معاني التجدد والتغير والزمن ، وكذلك فإنهم يعدّون الاسم الواقع مبتدأ في الجملة الاسمية التي يكون المسند فيها (فعلا) في مثل (زيد حضر) ، يعدونه فاعلاً ، في المعنى ، بدليل تقديرهم للضمير العائد عليه . وبذلك يظهر أنّ الجميع متفقون على مفهوم وصفات الجملتين في كيفية الدلالة ، ولكنه لما أراد الكوفيون مخالفة قواعد المدرسة البصرية ، وأراد المحدثون التجديد في النحو والخروج على النمط السائد من القواعد ، ونظروا إلى المسند إليه في مثل (محمد قام) ، فقرروا فاعليته ، من حيث معنى الجملة وغايتها إجمالا ، دون أي اعتبار للسياق والمقام الذي تقال فيه ، فلم يروا فرقا بين (محمدٌ حضر) و (وحضر محمدٌ) ، لأنهم قصروا النظر على معنى الفاعلية التي يؤديها المسند إليه ، وهي نظرة صحيحة في نهاية الأمر ، لأن النتيجة واحدة على كل حال .

ولكن القدامى فيما يبدو كانوا أكثر دقة حينما فرّقوا في الاصطلاح بين الجملتين ، لافتراق وظيفتهما في مراعاة مقام التخاطب ، إذ إن جملة (محمد حضر) تبدأ بالمسند إليه ، وهو أول ما يخبر به المتكلمُ المخاطبَ الذي يبقى متشوقا للمسند وجاهلا به ، متسائلا عن أحوال المسند إليه التي لا حصر لها ، فالمجهول هنا هو الحال الخاصة بالمسند إليه ، التي يريد المتكلم الإخبار عنها ، فقد يكون نائما ، أو قاعدا ، أو ميتا ، أو صادقا ، أو يكتبُ أو يزرع ، أو قام ، أو يقوم ، أو حضر .... الخ ، فالجملة الاسمية يكون فيها المخاطب جاهلا بأحوال المسند إليه التي يراد الإخبار بها .

أما الجملة الفعلية نحو (حضر محمدٌ) ، فإنّ المسند إليه ، وهو الفاعل هنا ، مجهول للمخاطب حال إلقاء الجزء الأول من هذه العبارة ، فيبقى المخاطب متسمّعا للجزء المكمل وهو الفاعل ، فقد يكون زيدا ، أو عمرا ، أو خالدا ..... الخ ، فالفاعل هنا هو المجهول بالنسبة للمخاطب .

٥- ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ٤٤ .
٦- ينظر :الفعل زمانه وأبنيته : ٢٠٤ .
٧- نحو المعاني : ١٠٩ .

والنتيجة أنّ المتكلم في الجملة الاسمية ، يتحكم في تحديد أحوال المسند إليه التي يجهلها المخاطب ، بينما يكون التحكم في الجملة الفعلية بتحديد هوية الفاعل عند المخاطب .

ولكنه قد يُصار في بعض الأحوال إلى التقديم والتأخير بين المسند والمسند إليه لأمور بلاغية كالاهتمام، والعناية، والتشويق، وغير ذلك .

والجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت [١] نحو قوله تعالى (الله نور السموات والأرض)[٢] ، مضافا إلى أنها تعبر عن نسبة صفة إلى شيء ، بينما تعبر الجملة الفعلية عن حدث مسند إلى زمن منسوب إلى فاعل . [٣]

والجملة الاسمية في اللغة العربية لا تشتمل على الزمن بذاتها ، وإنما من خلال القرائن الأخرى ، ((فإذا أردنا أن نضيف عنصراً زمنيا طارئا إلى معنى هذه الجملة ، جئنا بالأدوات المنقولة عن الأفعال وهي الأفعال الناسخة ، فأدخلناها على الجملة الاسمية ، فيصبح وصف المسند إليه بالمسند منظورا إليه من وجهة نظر زمنية معينة))[٤] .

أما حروف المعاني فيتمثل أثرها الدلالي في ربط الكلام بعضه ببعض ، كما في حروف العطف ، وبتجديد معنى الكلام ، كما هو في أغلب حروف المعاني [٥] ، وهي كثيرة ومتنوعة وتؤدي معاني وظيفية في داخل النص، كحروف العطف، وحروف الجر ، وحروف النصب ، وحروف الجزم ، وحروف الشرط ، وغير ذلك [٦] ، وحدّ حروف المعاني عند أغلب النحاة ، هو أنّ الحرف ما دل على معنى في غيره ، كـ (مِنْ) التي تدل على تبعيض غيرها ،لا تبعيض نفسها ، وكذلك (إلى) تدل على انتهاء غيرها ، وهكذا في سائر حروف المعاني [٧] . ولسنا في هذه الرسالة بصدد التفصيل في بيان هذا النوع من الدلالة وذكر تفصيلاتها ، وإنما هدفنا هو استكشاف أكبر قدر من المعاني غير المباشرة ، في هذا النص القرآني الكريم ، مما يتجلى عن طريق هذه المباني النحوية التي تحمل قيمة وظيفية غير اعتيادية ذات بعد دلالي فاعل ، والتي من شأنها أن تثير معنى طريفا أو إضافيا داخل النص.

ويبدو هذا النوع من الدلالة واضحا في النص القرآني ، ويمكن ملاحظة ذلك في سورة الإسراء في مواضع كثيرة ، ففي قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

١- ينظر: دلائل الإعجاز : ١٢٤ ، و في النحو العربي قواعد وتطبيق : ٨٦ ، و معا ني النحو : ١ / ١٥ .
٢- سورة النور : ٥٣ .
٣- ينظر : البحث النحوي عن الأصوليين : ٢٥٠
١- اللغة العربية معناها ومبناها : ١٨٣ .
٢- ينظر : اثر الدلالة اللغوية والنحوية في استنباط أحكام آيات القرآن الكريم التشريعية : ٤٥ .
٣- ينظر:مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: الجزء الأول و بداية الجزء الثاني.
٤- ينظر : الإيضاح في علل النحو : ٥٤ ، والجنى الداني في حروف المعاني : ٢- ٢٢ .

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) [1] ، نلاحظ الحركة والاستمرار والتجدد والانبعاث المستمر في هذا النص المتعلق بوصف اثر من آثار القرآن الكريم ، وهو الهداية ، والتبشير والإنذار .

وقد جاء هذا النص مركبا من هذه الجمل الفعلية – بحسب المحدثين – أو الجمل الاسمية التي يكون فيها المسند فعلا – بحسب القدامى - ، للدلالة على هذه المعاني من الحركة والاستمرار والتجدد ، ونرى ذلك واضحا ، في الأفعال (يهدي – يبشر – يعملون) ، فالقرآن الكريم هو طريق هداية البشر المستمر الذي لا يتوقف ، وهو مصدر البشارة للمؤمنين كلما دب في نفوسهم يأس أو تراجع ، ولذلك فهم دائبون في عمل الصالحات من أجل الحفاظ على استحقاقاتهم لهذه البشارة العظيمة .

ومنها أيضا قوله تعالى (وإن عدتم عدنا) [2] ، فهذه الجملة خطاب لبني إسرائيل ، بعد إخبارهم بالإفسادتين العظيمتين اللتين يحدثونهما عبر التاريخ ، ومعاقبتهم على كل إفسادة ، بحيث يتوعدهم سبحانه وتعالى في هذه الآية ، محذرا إياهم بان ذلك ليس نهاية المطاف وأنها سنة إلهية مقدّرة ، ((وإن عدتم إلى الفساد عدنا بكم إلى العقاب والتسليط عليكم كما فعلنا فيما مضى))[3] .

ولاشك في أنّ مجيء الجملة فعليةً بصيغة الشرط تؤدي معنى التجدد والحدوث في المعاقبة كلما تجدد الفساد منهم .

ولهذه العبارة دلالة أخرى نستوحيها من مجيء الجملة الفعلية بصيغة الماضي في هذا الموضع ، إذ إنّ معنى التجدد والحدوث مستفاد من فعلية الجملة وشرطيتها حتى لو كانت بصيغة المضارع كما في قوله تعالى في سورة الأنفال : (وإن تعودوا نـَعُد) [4] ، إذ فيه تهديد للمشركين بتكرار العودة إلى قتالهم والنصر عليهم إذا عادوا إلى القتال مرة أخرى [5] ، ولكن لما جاء التعبير بصيغة المضارع ، وجاء مع اليهود بصيغة الماضي ، لعلنا نستدل بذلك على أنّ اليهود هم أسرع إلى الغدر والعود إلى الفساد والإفساد ،المرة تلو الأخرى ، وعدم الاتعاظ بالوعيد الإلهي ، لما في الفعل الماضي من معنى التحقق والوقوع ، وإن جاء هنا بصيغة الشرط ، الدال على المستقبل ، ولكن بجمع الدلالتين : الاستقبال والمضي يتحقق هذا المعنى ، وهو كون عودة اليهود إلى الإفساد المتكرر هو من النوع المتحقق ، ولذلك إنّ معاقبتهم وإذلالهم ستكون متحققة أيضاً .

وقد فهم أحد المفسرين الكبار وهو الفخر الرازي ، أنّ هذه العودة قد تحققت بالماضي ، وأن هذه الجملة هي تأكيد للعودة الثانية لليهود ومعاقبتهم ، وبيان أنّ ذلك كان مقتضى السنة الإلهية ، حيث يقول في تفسيره لقوله تعالى : ((أي: وإنهم قد عادوا ، وهو التكذيب لمحمد المصطفى " صلى الله عليه وسلم

٥- سورة الإسراء : ٩ .
١- سورة الإسراء : ٨ .
٢- مجمع البيان : ٦/ ٢٥٦ .
٣- سورة الأنفال : ١٩ .
٤- ينظر : مجمع البيان : ٤ / ٤٨٦ .

" ، وكتمان ما ورد في التوراة والإنجيل ، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب)) [١] ، وربما كان لدلالة المضي اثر في تقدير الرازي ، وعدها جملة حالية .

وكذلك نجد في سورة الإسراء نوعاً من التناسب في التعبير في الآية الواحدة ، من خلال وجود التناوب في الاستعمال بين الجملتين ، الاسمية التي تدل على الثبوت ، والفعلية ، التي تدل على التجدد والحدوث ، وهذا التناوب يكشف عن كثير من المعاني الدلالية التي يمكن تصنيفها تبعا للإطار الذي ترد فيه العبارة ، فنلاحظ أنّ التعبير عن القوانين ، والحقائق ، والصفات الثابتة ، وما يجري مجراها ، يكون في إطار الجملة الاسمية ، وأنّ التعبير عن المعاني المتحركة ، والصفات المتغيرة والمتجددة يتم في إطار الجملة الفعلية .

ونلمس ، أيضاً ، هذا التناوب والتناسب كثيرا في سياق الآية الواحدة ، كقوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)[٢] ، فلما كانت صفة الخبير ، والبصير ، من الصفات الذاتية لله سبحانه وتعالى ، وهي غير قابلة للنقصان والزيادة والتغيّر ، لأنها عينُ ذاته سبحانه ، وكون ذلك حقيقة لا تغيّر فيها ورد التعبير عن ذلك بالجملة الاسمية المعبّرة عن ذلك .

ولما كان الأمر متعلقا بالرزق والمشيئة وهما صفتان من صفات الفعل ، لا الذات ، وهما محط التغيّر والتبدّل حسب الحكمة الإلهية ، والمصلحة الكونية ، جاء التعبير عنهما بالفعلين (يبسط ، ويشاء) ، المعبرين عن التجدد والحدوث والاستمرار .

وكذلك قوله تعالى : (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً)[٣] ، فقد جاء التعبير بطريق الجملة الفعلية حينما يتعلق الأمر بحركة الإنسان وفعله المتكرر لهذا الخطأ الكبير ، وكذلك حينما يتعلق بعملية الرزق التي تتطلب التكرار والاستمرار ، ولكن التعبير سرعان ما ينتقل إلى الجملة الاسمية لنقل حقيقة ثابتة وتقريرها وهي ، أنّ قتل الأولاد خطأ كبيرٌ لا يمكن أن يكون في زمن ما ، أو في ظرف ما ، مباحا .

وكذلك نجد ذلك التناوب والانتقال من الحركة والاستمرار إلى الثبوت عندما ينتقل النص من التعبير عن فعل الإنسان وحركته إلى ذكر الأساس أو القانون الثابت ، في قوله تعالى : (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[٤] ، فقد عبّر عن المتحرك أو المستمر بصيغة الجملة الفعلية : (لا تقربوا) ، وعن الأساس الثابت بصيغة الجملة الاسمية : (إنه كان فاحشة) ومثله قوله تعالى : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا

٥- التفسير الكبير : ٢ / ١٦٠ .
١- سورة الإسراء : ٣٠ .
٢- سورة الإسراء ٣١ .
٣- سورة الإسراء : ٣٢ .

الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً)[1] ، حيث إنّ التعبير عن القول الحسن بالجملة الاسمية يدل على أنّ هذا الفعل ينبغي أن يكون مستمرا ومتجددا من قبل الإنسان ، ولا يخص مقاما دون مقام ، ولأنّ أية غفلة أو تهاون في ذلك سيؤدي إلى تدخل الشيطان السريع الذي من صفاته النزوغ بين البشر .

وقد عبّر النص عن صفة الشيطان بالجملة الفعلية أيضا (ينزغ) ، للدلالة على أنّ هذا الفعل الصادر من الشيطان هو عملية مستمرة ومتجددة ، وحادثة حسبما يجد من ثغرات في تصرفات الإنسان وأقواله .

في حين أنّ التعبير عن عداوة الشيطان قد جاء بواسطة الجملة الاسمية ، وهو ما يدل على أنّ هذه العداوة ثابتة ودائمة .

وكذلك قوه تعالى : (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ)[2] ، فإن فيه ما يعزز ما قلناه آنفا من تبعية المعاني المتغيرة والمتحركة لدلالة الجملة الفعلية ، وتبعية المعاني والصفات الثابتة لدلالة الجملة الاسمية ، حيث إنّ علم الله سبحانه وتعالى ، من الصفات الثابتة ، ولا يضر ذلك ما نجده في القرآن الكريم حيث يعبر عن صفة العلم بالجملة الفعلية في مواضع أخرى ، وذلك عندما يتعلق العلم بحركة الإنسان ، أو الكون ، أو المخلوقات الأخرى ، التي من شأنها التغير ، والحدوث والتجدد ، لأنّ ذلك ناظر إلى تغيّر المعلوم وتجدده ، لا إلى تغير وحدوث علم الله تعالى الأزلي .

وفي هذه الآية الكريمة تعبير عن العلم الإلهي الثابت والشامل للإنسان ، فهو وصف لعلم الله تعالى وليس لمتعلق العلم ، ولكن عندما تنتقل الآية إلى صفة المشيئة ، ينتقل التعبير إلى الجملة الفعلية المعبرة عن تغير المشيئة الإلهية على وفق للحكمة الأزلية .

أمّا حروف المعاني في السورة ، فيحمل كثير منها معاني دلالية تسهم في إثراء النص وإغنائه بالمعاني غير المباشرة ، التي هي من سمات النصوص المتميزة ، ومن ذلك قوله تعالى : (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)[3] ، فكلمة (مِنْ) تدل على عظمة آيات الله التي اختص سبحانه بمعرفتها ، فمعنى التبعيض في هذا الحرف يشير إلى أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ، على علو مقامه الشريف واستعداده ، وقربه من الله سبحانه ، لم ير في رحلته الإعجازية ليلة الإسراء والمعراج التي شاهد فيها من عجائب الآيات والأسرار والتشريعات ، والأنبياء ، وحقائق الملكوت ، إلاّ جزءا منها ، على الرغم من وصوله إلى أدنى درجات القرب الإلهي ، حيث (قاب قوسين أو أدنى) ، مما يدل على عظمة الله سبحانه وعظمة آياته .

١- سورة الإسراء : ٥٣ .
٢- سورة الإسراء : ٥٤ .
٣- سورة الإسراء : ١ .

ومنها قوله تعالى : (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[1] ، فـ (مِنْ) هنا بيانية ، لأنّ الشفاء والرحمة لا تخصان قسما من القرآن ، بل إنّ جميع آياته هي شفاء ورحمة ، ومَنْ عدها للتبعيض ، فهو محمول على ملاحظة النزول التدريجي ،للآيات ، أي: إننا ننزل القرآن ، وكل قسم ينزل منه هو بحد ذاته يعدّ شفاء ورحمة .[2]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)[3] ، إذ إن المعروف في التعبير القرآني أنّ متعلق الفعل (كفر) ، وكذلك الفعل (آمن) ، مجرور بحر الجر (الباء) نحو قوله تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)[4]، وقوله تعالى : (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن .....) [5] وقوله تعالى :(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله) [6] ، ولعل النص القرآني في هذه الآية الكريمة يومئ إلى أمر ما حينما عبّر بحرف اللام بدلاً من الباء في قوله تعالى (ولربه كفورا) ولم يقل (بربه) ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الشيطان جاحد لنعمة الله وفضله ، لأنه كافر بذات الله سبحانه ، وذلك لأنّ الشيطان ، يعرف عظمة الله سبحانه بدليل أنه يخشاه ويحذره ويرجوه ، كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك على لسانه بعدما فتن المشركين وأغواهم : (وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[7] ، على العكس من الإنسان الكافر بالله فإنه لا يخافه ولا يحذره ولا يرجوه .

فالتعبير باللام هنا يشير إلى أنّ الشيطان كفر بنعمة الله كفر جحود ونكران لصنيع الله وفضله ، وعدم مجازاة ذلك الصنيع والفضل بالشكر والامتنان والطاعة . وبذلك يكون المعنى بتضمين الكفر معنى النكران ، أي: وكان الشيطان منكرا لنعمة ربه ، والله العالم .

وكذلك ينحرف التعبير مع الفعل (آ من) في قوله تعالى : (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) [8] ، وقوله تعالى : (وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ)[9] ، وهذا الانحراف في الاستعمال ينتج معنى دلاليا آخر للفعل (آمن) ، حيث إنّ معنى (لن نؤمن لرقيك) ، أي: لن نصدقك في ذلك الرّقي[10] ، والذي يدل على ذلك ، أنّ المقام هنا هو مقام تصديق النبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) أو تكذيبه من قبل هؤلاء المشركين عن طريق هذه المظاهر المادية المقترحة من

١- سورة الإسراء : ٨٢ .
٢- ينظر : الأمثل : ٩ / ٦٦ .
٣- سورة الإسراء : ٢٧ .
٤- سورة البقرة : ٢٨٥ .
٥- سورة الزخرف : ٣٣ .
٦- سورة البقرة : ٢٥٦ .
٧- سورة الأنفال : ٤٨ .
١- سورة الإسراء ٩٠ .
٢- سورة الإسراء : ٩٣ .
٣- مجمع البيان : ٦ / ٣٣٧

قبلهم ، وليس مقام الاعتقاد والإيمان في مقابل الكفر ، الذي هو مقام قلبي وشعور داخلي مبعثه الاطمئنان واليقين ، والتصديق مرحلة سابقة ومقدمة للإيمان ، كما إنّ التكذيب سابق للكفر ، فبعد أن يصدق الإنسان بالأمر يستطيع أن يقول : آمنتُ به . فالتعبير باللام هنا بدل (الباء) يدلّ على أنّ مشكلة هؤلاء مازالت في مرحلة التصديق بالنبي ((صلى الله عليه وآله وسلم)) التي هي مقدمة للإيمان به ، وبما جاء به ، ولكنهم فشلوا في هذه المرحلة ، فكشف عن بعدهم عن الإيمان ، ولذلك لم يجبهم الرسول ((صلى الله عليه وآله وسلم)) إلاّ بالإعراض ، وبالقول (سبحان ربي هل كنتُ إلاّ بشرا رسولا) .

وهناك دلالة أخرى لأحد هذه الحروف نتلمسها في قوله تعالى : (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) [١] ، حيث يقال : أحسن لنفسه وأساء إليها ، وإنما قال : (وإن أساء فلها) للتقابل ، والمعنى : فإليها ، فلذلك وضع اللام موضع إلى ، أو يكون المعنى فعليها ، لأنّ حروف الإضافة يقوم بعضها مقام بعض ، كقوله تعالى : (لهم اللعنة) [٢] ، أي : عليهم اللعنة [٣]. في حين يرى بعض المفسرين أنّ اللام هنا في (لأنفسكم) و (فلها) ، للاختصاص ، أي: إنّ كلاً من إحسانكم وإساءتكم يختص بأنفسكم دون أن يلحق غيركم ، فالمقام مقام بيان أنّ اثر العمل لصاحبه ، خيرا كان أو شرا ، وليس مقام بيان أنّ الإحسان ينفع صاحبه ، والإساءة تضره حتى يقال : (فعليها) ، كمثل قوله تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) [٤] ، فلا حاجة عندئذ إلى التكلف وادّعاء المقابلة ، أو تضمين المعاني[٥].

وهذا الرأي ينسجم مع ما نحن فيه من أنّ لهذه الحروف قيم دلالية بحسب السياق الذي ترد فيه ، كما أنّ للتراكيب الأخرى قيمها الدلالية دون اللجوء إلى تكلفات تتطلب مؤونة زائدة .

ومما يرتبط بالدلالة النحوية ، دلالة المصادر التي أعطت النص ، ولاسيما المصادر المنصوبة ، مع المنصوبات الأخرى ، شكلاً متميزا ، وطابعاً موسيقيا منسجماً ، امتد من الآية الثانية إلى آخر السورة ، حيث إنّ سورة الإسراء ، تنتهي جميع آياتها – ماعدا اثنتين منها – بأحد المنصوبات ، كالمصدر ، أو المفعول به ، أو الحال ، أو التمييز ، أو الصفات المنصوبة ، أو الأخبار المنصوبة ، وغير ذلك ، وهذا أحد الأسباب التي جعلت من السورة ذات نبرة منسجمة متميزة مع مالها من خصائص الموسيقى الداخلية الأخرى .

وفي سورة الإسراء مورد فريد في القرآن الكريم ، حيث تتكرر الكلمة الواحدة في ثلاث آيات متتالية لتشكل نهايات هذه الآيات بنغمة موسيقية واحدة ، مع ما يتضمنه التكرار من دلالات إضافية ، وهو قوله تعالى : (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا

٤- سورة الإسراء : ٧ .
٥- سورة الرعد : ٢٥ .
٦ – ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٥٥ ، و التفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٨ .
١- سورة البقرة : ٢٨٦ .
٢- ينظر الميزان في تفسير القرآن : ١٣ / ٤٠ .

كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً)(١) وقوله تعالى : (قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً)(٢) ، وقوله تعالى : (لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً) (٣) ،
((وهو المورد الوحيد في القرآن الذي وردت فيه ثلاث آيات متوالية في سجع واحد))(٤) .

وقد كان للمصدر المنصوب باعتبار دلالته ، دور هام ، حيث ورد أكثر من عشرين مرة في السورة .

ولا يخفى أنّ المصدر لفظ واسع كثير التداول في الكلام ، (٥) فهو تارة يأتي لتأكيد الفعل ، نحو قوله تعالى : (فدمرناها تدميرا) (٦) ، وفائدته الدلالة على الوصف الكامل في التدمير ، أي: تدميرا كاملا .

وكذلك قوله تعالى : (ولا تبذر تبذيرا) (٧) ، وفائدته تأكيد النهي الوارد في التبذير والإمعان فيه ، ومثله قوله تعالى : (وكبّره تكبيرا) (٨) .

وتارة يأتي لبيان نوع الفعل مع فائدة التوكيد ، نحو قوله تعالى : (وقلْ لهما قولا كريما) (٩) ، وفائدته الاحتراز عن الأقوال الأخرى ، ومثله قوله تعالى : (سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوا كبيرا) (١٠) ، وقد جاء المصدر لبيان عدد مرات الفعل في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) (١١) ، ودلالته: أنكم يابني إسرائيل – أي أخلافكم – ستفسدون في البلاد التي تسكنونها إفسادتين اثنتين ، وذلك حقٌ لا شك فيه (١٢) .

رابعا : الدلالة اللفظية :

٣– سورة الإسراء : ٩٣ .
٤– سورة الإسراء : ٩٤ .
٥– سورة الإسراء : ٩٥ .
٦– الميزان في تفسير القرآن : ١٣ / ٢٠٥ .
١– ينظر : نحو القرآن : ٦٨ .
٢– سورة الإسراء : ١٦ .
٣– سورة الإسراء : ٢٦ .
٤– سورة الإسراء : ١١١ .
٥– سورة الإسراء : ٢٣ .
٦ – سورة الإسراء : ٤٣ .
٧— سورة الإسراء : ٤ .
٨– ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٥٤ .

وهي الدلالة التي تعرف بالدلالة المعجمية ، أو الاجتماعية [١] ، ونقصد بهذا النوع من الدلالة هو ما كان المعنى فيها مستمدا من النص المنطوق به . ((فكل كلمة من كلمات اللغة العربية لها دلالة معجمية اجتماعية تستقل عمّا يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمات ، أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الأساسية التي يطلق عليها الدلالة الاجتماعية)) [٢] .

فكلمة (الكذاب) مثلا ، تدل على شخص يتصف بالكذب ، وتلك هي دلالتها الاجتماعية ، ولكنها اكتسبت عن طريق صيغتها ، نوعا آخر من الدلالة يسمى بالدلالة الصرفية .[٣]

وهكذا ، فإنّ لكل كلمة معنى معجميا ، وهو يمثل المعنى الأساسي ، لتلك الكلمة ، ولكن هناك معاني إضافية كثيرة ، وهي صفات غير معيارية ، وقابلة للتغيير من زمن لآخر ، ومن مجتمع لآخر ، هذه المعاني تُبدي بعض الخصائص العضوية والاجتماعية ، وتظهر بعض الصفات التي ترتبط في أذهان الناس بالكلمة ، فمثلا كلمة (يهودي) تملك معنى أساسيا وهو الشخص الذي ينتمي إلى الديانة اليهودية ، ولكنها بعد ذلك انتقلت إليها معان دلالية أخرى انطبعت في أذهان الناس ، تتمثل في الطمع ، والبخل ، والمكر والخديعة [٤].

وفي سورة الإسراء هناك كثير من الألفاظ التي تدل على هذا النوع من المعنى ، وإنّ لمعرفة مستوى الدلالة التي تؤديه هذه الألفاظ أثراً كبيرا في فهم النص من جوانبه المتعددة ، فقد تكون بعض الألفاظ متوقفة عند حدود معانيها المعجمية ، وقد تكون قد انتقلت إلى معان إضافية أخرى،تبعاً لأبعاد ها النفسية والاجتماعية.

وقد تم استقراء الكلمات الواردة في السورة ، ذات البعد الدلالي المعجمي أو الاجتماعي ، وتوقفنا عند الألفاظ الآتية :

١ـ أُفٍّ :

وذلك في قوله تعالى : (لا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ) [٥] .

حيث قُرأت (أُفِّ) خفضا بدون تنوين ، وقرأها الباقون (أفٍّ) بالخفض والتنوين[٦]. والذين قرؤوا بالخفض والتنوين ذهبوا إلى أنها صوت لا يعرف معناه إلاّ بالنطق به فخفضوه كما تخفض الأصوات ،

١- ينظر : دلالة الألفاظ : ٤٨ .
٢- ينظر : المصدر نفسه : ٥١ .
٣- ينظر : المصدر نفسه: ٤٨ .
٤- ينظر : علم الدلالة، أحمد مختار : ٣٦ – ٣٧ .
٥- سورة الإسراء : ٢٣ .
١- ينظر : الحجة في القراءات السبع:١٢٤ ـ١٢٥،و تقريب النشر في القراءات العشر:٢١٣.

ومن ذلك قول العرب : سمعتُ طاقٍ طاقٍ ، لصوت الضرب ، [1] ((ومن قرأ (أفٍ) جعله معرفة فلم ينون ، كما أنّ من قال : صه ، وغاق ، فلم ينون ، أراد به المعرفة)) [2] .

وذكر الزجاج سبع لغات لها : أفّ و أفُّ ، بالضم منونا وغير منون ، وأفٍ وأفِّ ، بالكسر منونا وغير منون ، وأفَ وأفاً بالفتح منوناً وغير منونّ ، وأفّى ، ممالة [3] .

وهو اسم لأتضجر ، وأتكرّه ، ونحو ذلك . [4]

وقد ذُكر لمدلول هذه الكلمة معانٍ معجمية واجتماعية أخرى منها : [5]

١- قال الأصمعي : الأفّ : وسخ الأذن ، والتّفّ ، وسخ الظفر ، يقال ذلك عند استقذار الشيء ، ثم كثر حتى استعملوه عند كل ما يتأذون به .

١- قال بعضهم : إنّ معناه : الشيء القليل ، مأخوذ من الأفيف ، وهو الشيء القليل ، أماّ (تُفٍّ) ، فهو إتباع له ، كقولهم : شيطان ليطان ، وخبيث نبيث .

٢- روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنّ (الأفّ) هو الضجر .

٣- يقول بعضهم : إنّه محاكاة لصوت النفخ عند إزالة التراب ، أو الرماد ، ثم أنهم توسعوا ، فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل إليهم .

٤- أماّ الزّجاج ، فيقول إنّ معناه : النتن ، فمعنى (أفٍّ) في الآية : لا تستقذرهما ، كما أنهما لم يستقذراك حين كنت صغيرا .

ويظهر من سياق الآية التي وردت فيها (أفٍّ) ، أنها تمثل أدنى حالات العقوق ، وقد ورد في الخبر أنّ الله سبحانه لو علم شيئا أيسر منه وأهون لنهى عنه [6] . وهذا يدل على أنّ هذه اللفظة تعني الضجر القليل ، وهي لا تحمل من الأذى والقسوة إلاّ الشيء القليل .

ولكن وكما هو ظاهر في الاستعمالات الأخرى لهذه الكلمة أنها تدل على الضجر والامتعاض الشديدين ، والكراهة المفرطة ، كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء : (أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) [7] ، وكذلك قوله تعالى في الولد العاق الكافر : (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ...) [8] .

٢- ينظر: معاني القرآن : ١١٩ .
٣- مجمع البيان : ٦ / ٢٧٤ .
٤- ينظر المصدر نفسه : ٦ / ٢٧٤ .
٥- المصدر نفسه : ٦ / ٢٧٣.
٦ – ينظر التفسير الكبير : ٢٠ / ١٨٩ .
٧- ينظر : مجمع البيان : ٢٧٥ .
١- سورة الأنبياء : ٦٧ .
٢- سورة الأحقاف : ٤٦ .

ففيهما من الغلظة والجفاء والقسوة ، لم نجدها في قوله تعالى : (ولا تقل لهما أف) .

وقد يكون السبب في اختلاف الدلالة ، أنّ لهذه الكلمة استعمالين ، أحدهما : يكون بدون ذكر المتعلق ، أو يكون متقدما عليها ، كما في سورة الإسراء ، وثانيهما : عندما يكون لها متعلق مذكور بعدها ، وهو الجار والمجرور ، كما في (أفٍّ لكم) و (أفٍّ لكما) ، وهذا ما يوحي بتغيير دلالة الكلمة من الضجر القليل إلى الامتعاض الشديد ، وهو ما نجده في نصوص أخرى ، كقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في نهج البلاغة :

((أُفٍّ لكم ، لقد سئمت عتباكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا)) (١) .

وقول الحسين (عليه السلام) ، في ليلة عاشوراء :

يا دهرُ أفٍّ لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيلِ

من صاحب أو طالب قتيلِ ... والدهر لا يقنع بالقليلِ (٢)

٢- الجَوْس :-

حيث ورد هذا اللفظ في قوله تعالى : (فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ) (٣)، وأصل هذه الكلمة هو ((التخلل في الديار ، يقال : تركت فلانا يجوس بني فلان ، ويجوسهم ويدوسهم ، أي: يطؤهم ، قال أبو عبيدة : كل موضع خالطته ووطئته فقد حسته وجسته ، قال حسان :

ومنّا الذي لاقى بسيف محمد ... فجاس به الأعداء عرض العساكر)) (٤)

وقيل : الجوس والجَوَسان من الفعل (جاس) : هو التردد خلال الديار (٥) ، وتوسطهما (٦) ، والخلال هو الانفراج بين الشيئين (٧) ، ومن هذا الأصل تترشح معان أخرى تصف دخول الجيش وعرامته وتردده في الديار مضافا إلى معاني الفساد والعيثان والتفتيش والطلب باستقصاء (٨)، وما إلى ذلك من معاني الرهبة التي يبعثها الداخلون إلى القدس لمعاقبة اليهود.

٣- دلوك الشمس وغسق الليل :

٣- نهج البلاغة : ٨٢
٤- تاريخ الطبري: ١٥٧/٥ ، و منتهى الآمال في معرفة النبي والآل : ١ / ٤٨١ .
٥- سورة الإسراء : ٥
٦- مجمع البيان : ٦ / ٢٥٣ ،والبيت غير موجود في ديوان حسان بن ثابت.
١- ينظر لسان العرب : جوس ٤١٩/٢ ، والتفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٧ .
٢- ينظر : المفردات في غريب القرآن : ١٠٣ .
٣- ينظر التفسير الكبير : ٢٠ /١٥٧ .
٤- ينظر : مجمع البيان المصدر نفسه ، والتفسير الكبير : المصدر نفسه .

ورد هذان اللفظان في قوله تعالى : (أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ...) [١] ، وقد اختلف المفسرون في معنى (الدلوك) على وجهين [٢] :

الأول : أن الدلوك بمعنى زوال الشمس عن كبد السماء وقت الظهر .

الثاني : أن الدلوك هو غروب الشمس .

وهذان المدلولان مأخوذان من الأصل اللغوي لهذه الكلمة ، وهو (الدّلك) ، فسمي الزوال دلوكا ، لأنّ الناظر إليها يدلك عينيه لشدة شعاعها ، وسمي الغروب دلوكا ، لأنّ الناظر يدلك عينيه ليتبينها،وقيل :إنّ الأصل هو الميل،يقال:مالت الشمسُ للزوال،ويقال:مالت للغروب . قال ثعلب : دلكتِ الشمسُ ، مالت ، وقال الزجاج : يقال دلكت بَراح وبِراح ، أي: مالت للزوال ، حيث يحتاج الناظر إذا تبصرها أنْ يكسر الشعاع عن بصره براحته [٣] ، قال الراجز :

هذا مقامُ قَدَمي رَباحِ   ذبّبَ حتى دَلَكَتْ براح [٤]

ويقول ابن قتيبة : ((وتقول في الشمس : دَلَكت بَراحِ ، يريدون غربت ، والناظر قد وضع كفه على حاجبه ينظر إليها))[٥] .

فالأصل ، إذن ، هو الميل أو الزوال ، فإذا زالت نصف النهار فهي دالكة ، وقيل لها إذا أفلت دالكة ايضا ، لأنها في الحالتين زائلة [٦] .

أما غسق الليل ، فهو ظهور ظلامه ، وأصله من قولهم : غسقت القُرحةُ ، إذا انفجرت وظهر ما فيها [٧] ، أو ((مِن غسق العين ، وهو هملانها بالماء ، والغاسق السائل ، ولهذا يقال لما يسيل من أهل النار : الغسّاق ، فمعنى غسق الليل ، أي : انصبّ بظلامه ، وذلك أنّ الظلمة كأنها تنصبّ على العالم)) [٨] ، وعلى هذا يكون الغسق هو ظلمة الليل ، وفي المفردات : ((غسق الليل شدة ظلمته والغاسق: الليل المظلم)) [٩] ،

٥- سورة الإسراء : ٧٨ .
٦ – ينظر : معاني القرآن : ١٢٩ ، ومجمع البيان : ٦ /٢٢٣ ، والتفسير الكبير : ٢١ / ٢٦ .
٧- ينظر معاني القرآن : ١٢٩ ، ومجمع البيان : ٦ / ٢٢٣ .
٨- البيت ذكره قطرب في كتابه (الأزمنة وتلبية الجاهليّة) بتحقيق د.حاتم الضامن في كتابه:نصوص محققة:٢٨ ، وفيه:للشمس حتى طلعت براح ، وكذلك في معاني القرآن:١٢٩/٢، ومجمع البيان : ٦/ ٣٢٣ ، وفيه (للشمس) بدل (ذبّب) ، وفي اللسان : برح : ١ / ٣٦٢ ، وجميعهم لم ينسبوه لقائل، وبراح بالفتح اسم للشمس ، وبكسرها _ وهو رأي الفراء _ تكون الباء حرف جر ، وهو جمع راحة وهي الكف ، يعني: أن الشمس قد غربت أو زالت، فهم يضعون راحاتهم على عيونهم ، ينظرون إليها ، وذبّب:طرد،كما في معاني القرآن،أو جفّت ويبست وذبلت،وذبّب النهار:لم يبق منه إلا بقيّة، ينظر : اللسان : (ذبّب)،٢٠/٥ .
٩- تفسير غريب القرآن : ٢٦٠ .
١- ينظر : التفسير الكبير : ٢١ / ٢٦ .
٢- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٣٢٣ .
٣- التفسير الكبير : ٢١ / ٢٧ .
٤- المفردات في غريب القرآن : ٣٦ .

ومن هذه الأصول اللغوية يتحقق لدينا معنيان لكل من الدلوك ، والغسق ، فالدلوك أما أن يكون وقت الظهيرة ، أو وقت الغروب ، وأما الغسق فهو أما بداية الظلام أو شدته ، فإذا كان غسق الليل هنا هو شدة ظلمته ، فإن معنى الدلوك هو زوال الشمس عند كبد السماء ظهرا ، وهذا هو المعنى المروي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بـ ((تفسير دلوك الشمس بزوالها وغسق الليل بمنتصفه)) [1] .

وعلى ذلك، فالآية تشمل أربع صلوات يومية واقعة مابين زوال الشمس ، ومنتصف الليل ، ((والمعنى : أدِمها من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل ، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء)) ، وبانضمام صلاة الصبح المدلول عليها بقوله تعالى (وقرآن الفجر) ، تتمّ الصلوات الخمس اليومية ، في حين تكون الإشارة إلى صلاتي المغرب والعشاء فقط ، لو كان معنى (الدلوك) هنا هو الغروب ، وهو وجه بعيد لا يتفق مع سياق الآية التي هي بصدد الإشارة إلى الصلوات الخمس اليومية كلها ، ولم يقل به أحد .

أما إذا كان معنى (غسق الليل) هو ظهور الليل وبداية ظلمته ، فهو عند ذاك إشارة إلى وقت الغروب وما بعده بقليل ، فحينئذ تستقل دلالة (غسق الليل) بصلاتي المغرب والعشاء . ولا وجه هنا أيضا لكون (الدلوك) هو الغروب ، لاستلزامه التكرار ، والإشارة بمصطلحين مختلفين إلى وقت واحد ، وهو غريب يستلزم اللغو واللبس .

٤- إفسادتا بني إسرائيل :

أخبر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل في كتابهم التوراة بأنهم سيفسدون مرتين في الأرض ، وسينالهم عقاب شديد على كل إفسادة ، وهذا هو قوله تعالى في سورة الإسراء : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ۞ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً) [2] .

وقد اختلف المفسرون في تحديد وتعيين هاتين الإفسادتين ، وهل مرّتا كلتاهما في عمر الزمان ، أم أنّ بني إسرائيل ما زالوا موعودين بالإفسادة الثانية ، وينتظرهم عذاب الخزي والذّل كما وعد سبحانه ؟

يكاد يتفق المفسرون على وقوع الإفسادة الأولى من بني إسرائيل بقتلهم الأنبياء ، وبعد أن استحلوا المحارم وسفكوا الدماء ، وازدادوا تجبّرا وعلوّا ، فسلط الله عليهم ملِكاً من ملوك بابل وهو (نبوخذ نصر) المعروف في الروايات بـ (بختنصر) ، فقتل منهم سبعين ألفاً وسبى سبعين ألفاً آخرين ، وذهب

٥- الميزان في تفسير القرآن : ١٣ / ١٧١ .
١- سورة الإسراء : ٤ – ٥ .

إلى بابل ،[١] (فبقوا هناك في الذّل إلى أن قيّض الله مِلِكاً آخر غزا أهل بابل فردهم إلى بيت المقدس ، وبعدها قامت فيهم الأنبياء ، فعزّوا ورجعوا إلى أحسن ما كانوا)) [٢] .

أمّا الإفسادة الثانية فيختلف فيها المفسرون اختلافا كبيرا ، ولم يصلوا إلى التحقق من وقوعها ، ولم يكن لديهم مستند يطمئن إليه ، فقيل : إنّ الإفساد الثاني كان بعد الأول بمائتي وعشر سنين ، وقيل : إنّ عقابهم كان على يد ملوك فارس أو الروم ، فقتلوا منهم مائة ألف وثمانين ، وخرّب بيت المقدس ، فلم يزل بعد ذلك خرابا حتى بناه عمر بن الخطاب ، وقيل: إنما غزاهم في المرة الأولى (جالوت) وفي الثانية (بختنصر) [٣] .

ومن المفسرين المحدثين من يرى أنّ الإفساد الثاني يتمثل اليوم في علو بني إسرائيل ، وتشكيلهم لدولتهم (إسرائيل) على ارض فلسطين ، واحتلالهم مجددا للمسجد الأقصى والأراضي الإسلامية ، وما فعلوه من قتل وتشريد لأهلها ، وما زال العرب والمسلمون اليوم ينتظرون الوعد الإلهي بقطع دابر هؤلاء المفسدين عن كل الراضي الإسلامية [٤].

أقول : إنّ قوله تعالى : (وإن عدتم عدنا) [٥] ، قد يغنينا عن استقصاء ، وتحقيق وترقب الإفسادة الثانية لليهود ، لأنّ هذه الآية قد تكفلت برصد طغيان هؤلاء اليهود وظلمهم ، فهم موعودون بالعقاب الإلهي كلما جددوا عدوانهم وظلمهم ، وان ذلك لسنّة إلهية مستمرة ، وإنّ غدا لناظره لقريب .

٥- عباداً لنا :

لقد جاء في وصف القاهرين لبني إسرائيل في الإفسادة الأولى ، بأنهم عبادٌ أولو بأس شديد ، ولفظة(العباد) قد تكون ظاهرة في أنّ هؤلاء القوم هم من المؤمنين ، كما قد فهم بعض المفسرين ذلك ، مع ملاحظة القرائن الأخرى الحافة بالسياق ، كلفظ (بعثنا) الدال على أنّ هؤلاء مستنهضين من قبل الله سبحانه ، فلما كان الانبعاث إلهياً ، يقتضي أنْ يكون أولئك قوما مؤمنين ، كذلك وصفهم بأنهم أولو بأس شديد ، قد يشعر بالمدح ، والثناء ، وقوّة الإيمان [٦] .

وقد يفهم أيضا أنّ دلالة لفظ (عباد) مطلقة ، فقد يدل أيضاً أنّ هؤلاء القوم ليسوا بمؤمنين ، لأنّ جميع الناس هم في الحقيقة عباد لله ، شاءوا ذلك أم أبوا ، وأمّا وصفهم بأنهم أولو بأس شديد ، فهو لا يتعارض مع كونهم كفارا ، وكذلك نسبة بعثهم إلى الله تعالى ، لأنه على سبيل الله المجازاة [٧] ، فقد

٢- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٥٧ ، والتفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٥- ١٥٦ .
٣- التفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٦ .
٤- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٥٨ ، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٨ / ٢٦٧ .
١- ينظر : الأمثل : ٨ / ٢٦٨ .
٢- سورة الإسراء : ٨ .
٣- ينظر : مجمع البيان : ٦/٢٥٥ .
٤- ينظر : الميزان في تفسير القرآن : ١٣ /٣٩ .

يكون الظالم وسيلة انتقام الرب من العصاة، ((والظالم سيفي في الأرض ، أنتقم به ، وأنتقم منه)) [١] كما في الحديث القدسي ، فبعْثُ هؤلاء العباد قد يكون للانتقام أو للإذلال بقرينة (أولي بأس شديد) [٢] .

ويترجح عندنا الرأي الثاني القائل بكون هؤلاء ليسوا بمؤمنين بل كانوا وسيلة للانتقام ، بقرينة قوله تعالى :(عبادا لنا) ، حيث تنكير (العباد) ثم تعديه نسبة العباد لله سبحانه وتعالى بـ (لام الملك) ، الدالة على العبودية التكوينية ، والتي توحي بالبعد والانفصال عن طاعة الله سبحانه اختيارا ، ولم ينسبهم إليه مباشرة ، كما في قوله تعالى : (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن) [٣] ، وقوله تعالى : (إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان) [٤] .

هذه النسبة التي تدل – مضافا إلى الملك – على القرب والمحبوبيّة ، والعبودية الاختيارية .

ونظير التعدية بلام الملك ، قوله تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ) [٥] .

والذي يدعونا لأنْ نستفيد من دلالة هذا التركيب ، هو ندرته في القرآن الكريم ، إذ إنّه كثيرا ما يستعمل كلمة (عبد) و (عباد) منسوبة إلى الله تعالى مباشرة من غير التعدية باللام ، كقوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)[٦] وقوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) [٧] ، أو يستعملها مطلقة ، كقوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً)[٨] ، فكان يمكن أنْ يكون التعبير في الآية : (بعثنا عليكم عبادا أولي بأس شديد) ، فتكون مطلقة من غير نسبة ، فلما احتاج السياق إلى هذه اللام ، اقتضت هذه القيمة الدلالية التي أشرنا إليها ، والله العالم . وفي السورة ما يوحي بأنّ هؤلاء العباد الأشداء الداخلين إلى بيت المقدس في المرة الأولى ـ وهم العراقيون ،بحسب ما هو راجح من الروايات المتقدمةـ هم أنفسهم مَن يدخله في المرة الثانية، ولكن بعد أنْ تسربلوا بالإسلام وتزيّنوا بالإيمان، وهو ما قد يفهم من قوله تعالى : (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا)

.

٥- ينظر : من هدى القرآن : ٢٠١ .
٦- ينظر : الميزان في تفسير القرآن : المصدر نفسه .
١- سورة الإسراء : ٥٣ .
٢- سورة الإسراء : ٦٥ .
٣- سورة آل عمران : ٧٩ .
٤- سورة الإسراء : ١ .
٥- سورة الإسراء : ٣٠ .
٦- سورة الإسراء : ٣ .

٦ – علوّ بني إسرائيل :

العلو : هو الارتفاع ، وقد علا في المكان يعْلو عُلُـوّا فهو عالٍ ، وعِلـيَ في المكارم والشرف يعْلي علاءً ، فهو عِلـيٌّ [١] .

والبناء الأول يكون في الأمكنة والأجسام أكثر استعمالا منه في غيرها ، قال تعالى : (عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ)[٢] ، وقيل: إنّ (علا) يقال في المحمود والمذموم ، و (عِلي) لا يقال إلا في المحمود ، قال تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ)[٣] ، وقال تعالى : (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ)[٤] ، والعليّ هو الرفيع القدر من (عَلِيَ) ، وإذا وصف به سبحانه كما في قوله تعالى : (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)[٥] ، فمعناه : يعلو أنْ يحيط به وصف الواصفين ، بل علم العارفين[٦].

وهو هنا في قوله تعالى : (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً)[٧] ، ((كناية عن الظلم والطغيان والتعدي ، ويشهد لذلك عطفه على الإفساد عطف التفسير)) [٨] .

وهو كناية أيضاً عن التمكن والظفر ، كما جاء في قوله تعالى : (وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ)[٩] ، وقوله تعالى : (وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً)[١٠] ، أي: (ما غلبوا عليه وظفروا به ، ويحتمل : ويتبروا ماداموا غالبين ، أي: مادام سلطانهم جاريا على بني إسرائيل))[١١] .

وبنو إسرائيل اليوم يمرون بمرحلة من مراحل العلو ، والاستبداد ، والطغيان ، والهيمنة ، والتمكن ، وذلك بتواطؤ المستكبرين في العالم ومساندتهم ، وهذه علامة على قرب انهيارهم ، وزوال دولتهم ، وعودة المسجد الأقصى لأهله ، عزيزا مكرما ، كما وعد الله سبحانه .

٧-النَّغْضُ :

١- ينظر: مجمع البحرين ، علا : ١ / ٣٠٤ ، ومجمع البيان : ٦/ ٢٥٣ .
٢- سورة الإنسان : ٢١ .
٣- سورة القصص : ٤ .
٤- سورة المؤمنون : ٤٦ .
٥- سورة الحج : ٦٢ .
٦- ينظر : المفردات في غريب القرآن : ٣٤٥ .
٧- سورة الإسراء : ٤ .
٨ – الميزان في تفسير القرآن : ١٣ / ٣٨ .
٩- سورة يونس : ٨٣ .
١٠ – سورة الإسراء : ٧ .
١١- التفسير الكبير : ٢٠ /١٥٩ .

النغض هو التحريك ، يقال : أنغض رأسه ينغضه نغضاً إذا حركه ، [١] والإنغاض أيضاً ، تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه [٢] ، والنغض هو الظليم ، سمي بذلك لأنه إذا عجّل مشيه ارتفع وانخفض [٣] ، قال العجاج يصف الظليم :

أصَكّ نَغْضا   لا يني مُستهدَجا [٤]

ويقال للرجل أذا حدّث بشيء فحرك رأسه إنكارا له : قد أنغض [٥] ، ونغضت سنّه إذا تحركت ، قال الشاعر :

فنغضتْ من هرم أسنانها [٦] .

وفي قوله تعالى : (فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ)[٧] ، وصف حسي ، ونفسي لهؤلاء المكذبين المستهزئين ، بهذه الكلمة المعبرة وهي قوله تعالى : (فسينغضون إليك رؤوسهم) ، أي: ((يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد)) [٨] ، كما يحرك اليائس من الشيء المستبعد له رأسه [٩].

خامسا : الدلالة المفهومية:

قد تدل الألفاظ على معانيها بصورة مباشرة ، بحيث يكون اللفظ المنطوق بذاته ، وفي سياق معين ، هو الدال والحامل لذلك المعنى ، فيسمى المعنى عند ذاك بـ(المنطوق) ، تسميةً للمدلول باسم الدال .

وقد تكون دلالتها على المعنى ، في سياقات معينة ، بدلالة الالتزام ، أي: أن اللفظ لا يدل على المعنى بالمطابقة ، وإنما هو لازم لمفاد الجملة ، وهذا المعنى يسمى بـ(المفهوم) .

وعلى ذلك فإنّ المنطوق يعرّف بأنه ((ما دلّ عليه اللفظ في محل النطق))[١٠] ، فإنْ أفاد معنى لا يحتمل غيره فهو (النصّ) ، وإنْ كان يحتمل معنى آخر فهو (الظاهر)[١١] .

١- ينظر : معاني القرآن : ٢٥١ ، ومجمع البيان : ٦ / ٢٦٩ .
٢- ينظر : المفردات : ٥٠٠ .
٣- ينظر : معاني القرآن : ٢١٥ .
٤- البيت في ديوانه:٢٧٢ ، وصدره: (واستبدلت رسومه سفنّجا) ، والأصكّ : هو الظليم الذي يصيب إحدى ركبتيه بالأخرى ،لتقاربهما في أثناء العدو ، ينظر : اللسان : صك ، ٧ / ٣٧٨، ومستهدجا : مستعجلاً مسرعاً ، ينظر : اللسان : (هدج) ، ١٥ / ٤٨ .
٥- ينظر لسان العرب : ١٤ / ٢٢٠ .
٦- ينظر مجمع البيان : ٦ / ٢٩٦ ، ولم اعثر على نسبة البيت .
٧- سورة الإسراء : ٥١ .
٨- التفسير الكبير : ٢٠ ٢٢٧ .
٩ – ينظر : تفسير غريب القرآن : ٢٥٧ .
١- الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ٤١ ، وينظر : أصول الفقه : ١ / ٩٦ .
٢- ينظر :الإتقان في علوم القرآن:٤١/٢.

أمّا المفهوم فيعرّف بأنه ((ما دلّ عليه اللفظ لا في محل النطق)) [١] ، وتنبغي الإشارة هنا إلى أنّ (المفهوم) هو من المصطلحات اللغوية والأصولية ، التي يُتوصل بها إلى دلالة بعض الجمل التي لها مدلول التزامي في ذاتها دون الاعتماد على أية قرينة في ذلك ، كدلالة الجملة الشرطية مثلا ، فتخرج هنا الجمل التي لها قرينة دالة على المعنى ، كالمجاز والكناية ، فإنّ لها مدلولات التزامية بمساندة القرينة الدالة كما مر ، وكذلك تخرج المفردة الدالة على مفهوم ، وإنْ كان لها مدلول التزامي، كالاستعارة .

وقد حاولنا في هذا البحث الاستفادة من استعمال هذا المصطلح في دراسة بعض الجمل التي تحمل دلالات ومفاهيم ذا فائدة جليلة القدر ساعدت كثيرا من دارسي النص القرآني في استنباط أحكام ، أو إثارة رؤىً جديدة .

والمفهوم قسمان :

أ : مفهوم الموافقة :

وهو ما كان الحكم فيه موافق للحكم الموجود في المنطوق ، كدلالة قوله تعالى (ولا تقل لهما أفٍّ)[٢] ، على النهي عن الضرب والشتم ، فإنْ كان أولى سمي بـ (فحوى الخطاب) ، أو قياس الأولوية ، وإنّ كان مساويا سمي بـ (لحن الخطاب) ، أي: معناه ، كدلالة قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً) [٣] ، على تحريم الإحراق ، لأنه مساوٍ له في الإتلاف[٤].

ومما جاء في السورة من مفهوم الموافقة ، قوله تعالى :

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)[5] ، حيث إنّ منطوق هذه الآية يؤكد عدم استطاعة الإنس والجن متظاهرين جميعا على الإتيان بمثل هذا القرآن ، ومفهومه بقياس الأولوية: أنّ الإنسان بمفرده لا يستطيع الإتيان به بطريق أولى .

وكذلك قوله تعالى : (ولا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما) [٦] ، حيث إنّ مفهومها الموافق ، هو عدم جواز ضربهما ، أو طردهما ، أو غير ذلك ممّا هو أولى بالنهي .

ب : مفهوم المخالفة :

٣- المصدر نفسه، وينظر:أصول الفقه:٩٦/١.
٤- سورة الإسراء : ٢٣ .
١- سورة النساء : ١٠ .
٢- ينظر : الإتقان : ٤٢/٢ ، وأصول الفقه : ١ / ٩٨ .
٣- سورة الإسراء : ٨٨ .
٤- سورة الإسراء : ٢٣ .

هو ما كان الحكم فيه مخالفا لحكم المنطوق [١] ، ومثاله قوله تعالى : (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)[٢] ، ومفهومه: أنّ غير الفاسق لا يجب التبيّن في خبره ، فيجب قبول خبر الواحد العدل[٣] ، وكقوله تعالى : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ) [٤] ، أي: لا يصح الإحرام في غيرها . [٥]

ومفهوم المخالفة يكون في موارد كثيرة منها :

١- الجملة الشرطية :

لاشك في أنّ الجملة الشرطية يدل منطوقها – بالوضع – على تعليق جواب الشرط (التالي) على الشرط (المقدّم) ، الواقع موقع الفرض والتقدير ، ولدلالة الجملة الشرطية على المفهوم لابد من توفر ما يأتي :

أ- دلالتها على الارتباط والملازمة بين الشرط وجوابه ، احترازا عن الجملة الشرطية الاتفاقية ، فإنها لا مفهوم لها ، كقولنا : ((إنْ خرج زيدٌ من منزله طلعت الشمس)) ، فإنه لا يقال : إنْ لم يخرج زيد من منزله لم تطلع الشمس .

ب- أن يكون الشرط (المقدم) سببا لجوابه (التالي) ، بمعنى أنه لا سبب بديل يترتب عليه التالي [٦] ، كقولنا : إذا طلعت الشمس فالنهار موجود ، فإنّ الشمس هي السبب الوحيد لوجود النهار .

ومع توفر ذلك في الجملة الشرطية فإنّ ظهورها في المفهوم مما لا يتطرق إليه الشك إلاّ مع وجود قرينة صارفة ، وممّا يشهد لذلك استدلال الأمام الصادق (عليه السلام) بمفهوم رواية أبي بصير حيث قال : ((سالت أبا عبد الله عن الشاة تذبح فلا تتحرك ويهراق منها دم عبيط فقال : لا تأكل ، إنّ عليّاً كان يقول : إذا ركضت الرِّجل أو طرفت العين فكُلْ))[٧] ، فإنّ استدلال الإمام الصادق (عليه السلام) بقول عليّ (عليه السلام) لا يكون إلاّ إذا كان له مفهوم ، وهو : إذا لم تركض الرجل أو لم تطرف العين فلا تأكل [٨] .

ومما ذكر يفهم أنّ مفهوم الشرط ((هو انتفاء الحكم المشروط عند انتفاء شرطه)) [٩] .

وقد تكون هناك جمل شرطية لا يتحقق فيها المفهوم، لوجود قرينة تمنع ذلك ، كقولنا : (إذا رُزقت مولودا فاختنه) ، فلا يقال : إنْ لم ترزق ولدا فلا تختنه ، لأنه لا يعقل فرض ختان الولد إلاّ بعد فرض

٥- ينظر : الإتقان : ٢ / ٤٢ .
٦- سورة الحجرات : ٦ .
٧- ينظر : أصول الفقه : ١ / ١٠٠ .
٨ – سورة البقرة : ١٩٧ .
٩- ينظر : الإتقان : ٢ / ٤٢ .
١- ينظر للمزيد : دروس في علم الأصول ، الحلقة الثانية ، ١ / ١٥٣ ، وما بعدها .
٢- وسائل الشيعة : ٤٤٦/١٦ .
٣- ينظر : أصول الفقه : ١ / ١٠٢ .
٤- معجم المصطلحات الأصولية : ١٥١ .

وجوده ، ومثله قوله تعالى : (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)[١] ، فإنه لا يعقل فرض الإكراه على البغاء إلاّ بعد فرض إرادة التحصّن من قبل الفتيات [٢] ، فلا يقال : إنْ لم يردن تحصنا فأكرهوهن .

وكذلك نحو قولنا : (إنْ أحسن صديقك فأحسن إليه) ، فإنه لا مفهوم له ، لأنّ فرض الإحسان إلى الصديق لا يتوقف عقلاً على صدور الإحسان منه [٣] .

ومن الجمل الشرطية مما ورد في سورة الإسراء ، والتي يمكن الاستفادة من مفهومها في توضيح الدلالة قوله تعالى : (وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً)[٤] ، إذ إنّ لمفهوم هذه الآية فائدة جليلة في دفع شبهات الطاعنين في عصمة الأنبياء (عليهم السلام) ، إذ استدلوا بهذه الآية على صدور الذنب العظيم عنهم فقالوا : إنّ الآية دلّت على أنه (صلى الله عليه وآله وسلّم) قرب أنْ يفتري على الله لو لا أنْ الله سبحانه عصمه من أنْ يركن إلى دينهم ويميل إلى مذهبهم ، ولولا جُرمٌ وجناية لما كان هذا الوعيد الشديد [٥] .

والجواب على ذلك نقول :

أولاً : إنّ الفعل (كاد) لا يدل على الوقوع ، وإنما يفيد المقاربة ، يقال : كدتُ افعل كذا ، أي: قاربتُ أنْ افعله، ولم افعله [٦] .

وثانيا : إنّ مفهوم هذه الجملة الشرطية يدل على ((انتفاء الشيء لثبوت غيره ، نقول : لولا عليّ لهلك عمر ، معناه أنّ وجود عليّ منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك هنا معناه : حصل تثبيت الله لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، فكان حصول ذلك التثبيت مانعاً من حصول ذلك الركون)) [٧] ، بل زيادة على ذلك أنّ مفهوم هذه الآية يفيد عدم حصول هذه المقاربة من أصل ، لأنّ مفهومها يقول : إنك لم تكد تركن إليهم لتثبيتنا إياك ، وهذا على غرار مفهوم قوله تعالى في سورة يوسف : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ)[٨] ، الذي يدفع الشبهة عن يوسف (عليه السلام) من أساسها ، لأنّ مفهوم العبارة هو أنه لم يهم بها أصلاً، لرؤيته البرهان ، وهو كناية عن عصمته (عليه السلام) . والتثبيت هنا في هذه

٥- سورة النور : ٣٣ .
٦- ينظر : الإتقان : ٤٢/٢ ، وأصول الفقه : ١ / ٩٩ .
٧- ينظر : أصول الفقه : المصدر نفسه .
١- سورة الإسراء : ٧٤ .
٢- ينظر : التفسير الكبير : ٢١ / ٢٢ .
٣- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٢٠ ، والتفسير الكبير : ٢٢/٢١ .
٤- التفسير الكبير : ٢١ / ٢٢ .
٥- سورة يوسف : ٢٤ .

الآية هو العصمة الإلهية أيضاً ، كما يفيدنا السياق ، ((وجعلُ جواب لولا قوله (لقد كدت تركن) دون نفس الركون دليل على أنه(صلى الله عليه وآله) لم يركن ولم يكد)) [١].

وتنبغي الإشارة هنا في الرد على حجج الطاعنين بأنّ ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها ، وإنما على العكس من ذلك ، يدل على أنّ الأنبياء (عليهم السلام) لم ينحرفوا قطّ عن الشريعة الموحاة إليهم ، لأنهم معصومون ، وأنه لا عصمة إلاّ بتوفيق من الله تعالى .

ولعل ما ينقله القرآن الكريم من افتراضات الوقوع في الخطأ والعصيان كهذه الآية ، وآية سورة يوسف وكذلك قوله تعالى : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ۝)[٢] ، وغير ذلك من الرايات المشابهة تفيد بأن الأنبياء (عليهم السلام) لو خلّوا وطبيعتهم البشرية لمالوا وركنوا إلى ما تقتضيه طبائعهم وغرائزهم البشرية ، ولكن الله تعالى ميزهم بعصمته إياهم ليستيقن الناس ويأمنوا إليهم ، وليكون ذلك حجة على صدق رسالاتهم .

ومن الآيات الأخرى التي تدل بمفهومها قوله تعالى :

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ)[٣]

فالجزء الأول من هذه الآية يدل بمفهومه على أنّ الهداية منحصرة في الله تعالى ، فالذي لا يهديه الله فهو، قطعا، ليس بمهتدٍ ، وذلك لأنّ الهداية لها طريق واحد وهو الله تعالى .

وأمّا الجزء الثاني وهو الجملة الشرطية الثانية (ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) ، فإنها لا تدل على المفهوم ، وذلك لأنّ (الشرط) هنا ليس علة منحصرة للجواب ، فالضلال غير منحصر بطريق واحد ، وإنما له طرق كثيرة ، فالذي لا يضله الله سبحانه ، ليس بالضرورة أنْ يكون مهتديا ، مضافا إلى أنه من المحال أنْ يكون للإنسان – ضالا كان أو مهتديا – وليّ من دون الله سبحانه ، ولذا فلا يمكن القول بالمفهوم لهذه الآية بأنْ نقول : (ومن لا يضلل الله فسوف تجد لهم أولياء من دونه)

ومن الآيات الأخرى الدالة على المفهوم بواسطة الجملة الشرطية ، قوله تعالى : (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً)[٤] ، حيث ((قال أكثر المفسرين : معناه ، لطلبوا سبيلا إلى معازّة مالك العرش ومنازعته ومغالبته ، فإنّ المشتركين في الإلهية يكونان متساويين في صفات الذات ، ويطلب أحدهما مغالبة صاحبه ليصفو له الملك ، وفي هذا إشارة إلى دليل التمانع))[٥] ، الذي هو مفهوم هذه الجملة الشرطية ، حيث إنه لم يثبت أنّ هناك آلهة غالبت ونازعت الله سبحانه في ملكه ، فيثبت عدم وجود هذه الآلهة المزعومة ، وهو نظير قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ

٦- الميزان في تفسير القرآن : ١٣ / ١٦٩ .
١- سورة الحاقة : ٤٤ – ٤٦
٢- سورة الإسراء : ٩٧ .
٣- سورة الإسراء : ٤٢ .
٤- مجمع البيان : ٢٩٢/٦ .

لَفَسَدَتَا)[١] ، إذ إنْ مفهومها : أنّ السموات والأرض بما أنهما لم يفسدا بتنازع الآلهة واختلافها في تدبير الكون لاختلاف ذواتها ، فيثبت استحالة وجود آلهة غير الله سبحانه وتعالى .

ومن موارد دلالة المفهوم قوله تعالى :

(وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا)[٢] ، إذ يفيد بان منشأ العقاب الإلهي هو الإفساد والتعدي والظلم من قبل الإنسان ، فإنكم يابني إسرائيل ، إذا لم تعودوا بالإفساد فسوف لا يعود الله عليكم بالعقوبة ، لأنه سبحانه لا يتحامل على أُمّة دون أخرى أو شعب دون آخر ، إنما هي سنة إلهية ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وقد وردت في سورة الإسراء جمل شرطية ، لكنها لا تتضمن مفاهيم– أي انتفاء الجزاء لانتفاء الشرط – لعدم توفر الشروط اللازمة فيها ، كقوله تعالى: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً) [٣] ، إذ إنه لا يمكننا القول : إذا لم يبلغا الكبر وكانا في مرحلة الشباب ، يجوز لنا أنْ نتضجر منهما وننهرهما ، وذلك لأنّ انتفاء الشرط هنا لا يعني انتفاء جوابه مطلقا ، وإنما كان تخصيص الحكم بحالة الكبر لكونها اشق الحالات التي تمر على الوالدين ، فيحسان فيها بالحاجة إلى إعانة الأولاد ورعايتهم . فالآية ،إذن، تدل على وجوب الرعاية والإكرام في جميع الأوقات ، ولا دلالة للمفهوم هنا ، وذلك لأنّ الكبر ليس هو السبب الوحيد والعلّة المنحصرة للحكم ، بوجوب الإكرام ، وعدم الزجر ، وإنما هو خصوصية زائدة توجب الاهتمام الزائد ، فقُيّد به .

ومثله في عدم إرادة المفهوم ، قوله تعالى :

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً) [٤] ، إذ إنّ الحكم في جواب الشرط (فقل لهما قولا ميسورا) ، منوط بالشرط على وجه يمكن الحكم بدونه ، لأنّ القول الميسور ، هو حَسَن في جميع حالات التعامل مع ذوي الحاجات من الفقراء وذوي القربى ، سواء أكان الإنسان لا يملك ما يبذله عندما يأتيه السائل فيؤجله إلى وقت آخر ، انتظارا لليسار كما في هذه الحالة التي تشير إليها الآية الكريمة ، أم كان غيرها من الحالات التي يكون فيها يائسا من حصول الغنى ، أو كان مالكا شحيحا ، ولعل تعليق الحكم هنا بحالة مَنْ كان في لحظة ما غير مالك وهو ينتظر أنْ يمنّ الله عليه ، كونُها أوفق الحالات بالقول الميسور تأميلا للسائل .

ومن المواضع الأخرى لعدم إرادة المفهوم قوله تعالى :

١– سورة الأنبياء : ٢٢ .
٢– سورة الإسراء : ٨ .
٣– سورة الإسراء : ٢٣ .
٤– سورة الإسراء : ٢٨ .

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ) [١] ، وذلك لأنّ الشرط هنا (كلتم) هو نفس موضوع الحكم (وفاء الكيل) ، حيث إن الوفاء بالكيل متعلق بالشرط على وجه لا يعقل فرض الحكم بدونه ، فلا يمكن أنْ نقول : إذا لم تكيلوا فلا توفوا بالكيل ، لأنه لا وجود أصلا للكيل حتى يؤمروا بالوفاء به ، نظير قولنا المتقدم (إن رزقت ولدا فاختنه) ، فإنه لا ينتج مفهوما، لأنّ الشرط أصبح سالبا بانتفاء الموضوع ، فلا ولدَ فيُختن ولا كيلَ فيوفى .

٢- الوصف :

والمقصود بالوصف هنا ما يعمّ النعت وغيره ، فيشمل الحال، والتمييز، والظرف، وغير ذلك مما يصلح أنْ يكون قيداً ، كقوله تعالى :(الحجّ أشهر معلومات) ، فإنّ مفهومه : لا يصح الإحرام في غيرهن ، ونحو قولنا : أكرم الفقير العادل ، فإنّ مفهومه: لا يجوز إكرام الفقير غير العادل . [٢]

وللأصوليين في هذا الموضوع آراء ، ولهم فيه نقاش طويل في دلالة الوصف على المفهوم أو عدم دلالته[٣] ، لا يحسن التعرض له في هذه الرسالة .

ومفهوم الوصف يعني انتفاء حكم الموصوف عند انتفاء الوصف [٤]، أو هو ((دلالة اللفظ المقيد بصفة على نفي الحكم عن الموصوف عند انتفاء تلك الصفة))[٥] .

فالأمر بالحج ينتفي بانتفاء هذه الأشهر المعلومة ، والإكرام ينتفي بانتفاء العدالة عن الفقير ، وهو غير التقييد الراجع إلى الموضوع والمؤثر فيه ضيقا وسعة .

ولعل السر في اختلاف الأصوليين في دلالة الوصف على المفهوم أو عدم دلالته عليه ، يرجع في أساسه إلى أنّ هذا القيد أهو راجع إلى الموضوع أم إلى الحكم ؟ فإنْ كان قيداً للموضوع كان الحكم من جهته مطلقا غير مقيد، فلا مفهوم للوصف عند ذاك ، وإنْ كان الوصف قيدا للحكم فهو ظاهر في انتفاء الحكم عند انتفائه [٦] .

ولذلك نجد أنّ هناك كثيرا من الأوصاف لا تدل على انتفاء الحكم بانتفائها ، كقوله تعالى مثلا (وربائبكم اللاتي في حجوركم) [٧] ، وذلك لأنّ الغالب كون الربائب في حجور الأزواج فلا مفهوم له [٨] ، وكذلك قوله تعالى (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ...) [٩] ، وذلك لأنّ كل إله ،غير الله

١- سورة الإسراء : ٣٥ .
٢- ينظر : الإتقان : ٤٢/٢ ، وأصول الفقه : ١٠٦/١.
٣- ينظر : أصول الفقه :١٠٦/١ وما بعدها ، ودروس في علم الأصول ، الحلقة الثالثة :١٦١/١- ١٦٣.
٤- ينظر : أصول الفقه :١/ ١٠٨.
٥- معجم المصطلحات الأصولية : ١٥٢.
١- ينظر : المصدر نفسه .
٢- سورة النساء : ٢٣.
٣- ينظر: الإتقان : ٢ / ٤٢ .
٤- سورة المؤمنون : ١١٧

سبحانه، ليس له برهان يدل عليه ، فلا يقال : إن من يملك برهانا على وجود إله آخر يجوز له عبادته واتخاذه إلهاً .

ومما ورد في سورة الإسراء من الوصف الدال على المعنى ، قوله تعالى :(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)[١] ، حيث استدل بعضهم بكلمة (كثير) على أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء ، وذلك بالمفهوم المستفاد من العبارة ، إذ ((إن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أنّ الحال في القليل بالضد ، وذلك يتمسك بدليل الخطاب))[٢] ، وليس هذا القليل إلاّ الملائكة ، لأنّ بني آدم أفضل من كل حيوان سوى الملائكة بالاتفاق[٣] .

وقد أجيب على هذه الدعوى بعدة إجابات منها :

أولاً : أن كلمة (كثير) هنا هي بمعنى الجميع ، فوُضع الكثير موضع الجميع ، والمعنى : أنّا فضلناهم على من خلقنا وهم كثير ، كما يقال : بذلت له العريض من جاهي ، والمقصود : بذلت له جاهي الذي من صفته أنه عريض ، وفي القرآن ومحاورات العرب من ذلك شيء كثير [٤] .

ولكن ذلك بعيد عن ظاهر اللفظ فلا يمكن الاطمئنان إليه :

الثاني : أن الذي تعرضت له الآية إنما هو التفضيل من حيث الوجود الكوني الدنيوي ، والملائكة غير موجودين بهذا النحو من الوجود [٥] ، وبمعنى آخر ((إنّ التفضيل هنا لم يُرد به الثواب ، لأنّ الثواب لا يجوز التفضيل به ابتداءً وإنما المراد بذلك ما فضلهم الله به من فنون النعم)) [٦] .

الثالث : أنْ يكون الفضل في الملائكة عامّاً ، والفضل في بني آدم يختص بقليل من كثير ، وهو متحقق في الأنبياء (عليهم السلام)[٧] ، ومَنْ ترقوا مراقٍ عليا في الإنسانية ، ونالوا درجة العصمة والكمال الإنساني في جبلّته الأولى ، وعلى هذا فغير منكر أنْ يكون الأنبياء ومَن اتصف بصفاتهم أفضل من الملائكة ، وإنْ كان جنس الملائكة أفضل من كثير من الناس.

ومن الموارد الأخرى لمفهوم الوصف قوله تعالى :

(فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً) [٨] ، والأوّابون هم أما المذنبون التائبون الراجعون إلى الله ، أو هم المحسنون المطيعون [٩] ، فإنْ كان المعنى الأول فيمكن أنْ يثبت المفهوم لهذه العبارة ، لأنّ الوصف هنا ، وهو (الأوابين) قيد للحكم وهو ثبوت المغفرة ، والمعنى : أنّ الله سبحانه لا يكون غفورا لغير

٥- سورة الإسراء : ٧٠

٦- التفسير الكبير : ١٦/٢١ .

٧- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٣١٥ ، والتفسير الكبير :١٦/٢١.

٨- ينظر : مجمع البيان :٣١٥/٦.

5- ينظر : الميزان : ١٣ / ١٥٦ .

١- مجمع البيان :المصدر نفسه .

٢- ينظر : مجمع البيان :المصدر نفسه.

٣- سورة الإسراء : ٢٥ .

٤- ينظر : مجمع البيان : ٦/ ٢٧٧ .

التائبين الراجعين عن ذنوبهم ، وأمّا إذا كان الوصف بالمعنى الثاني ، فلا يثبت المفهوم ، لأنّ الوصف سيكون قيدا للموضوع وليس لمطلق الحكم ، لأنّ الله سبحانه غفور للأوّابين – بهذا المعنى – وغيرهم من العاصين التائبين أيضا ، وذكر القيد للخصوصية الزائدة .

أما قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) [1]، فإنّ الوصف هنا وهو قيد (بعباده) ، لا مفهوم لـه ، أي: لا ينتفي الحكم مطلقا بانتفائه ، إذ لا يمكننا القول بأنّ الله سبحانه بغير عباده ليس خبيرا وبصيرا ، وأنّ صفتي الخبير والبصير لا تتعلقان إلاّ بالعباد ، وذلك لأنه سبحانه خبير وبصير بكل شيء ، فيظهر أنّ هذا القيد ليس متعلقا بالحكم مطلقا ، وإنما هو بخصوص الإشارة إلى أحد أفراده .

٣- الغاية :

ويقصد بمفهوم الغاية : انتفاء الحكم المُغيّى بغاية بعد تلك الغاية [2] ، وذلك كما في قوله تعالى : (فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)[3] ، ومفهومها : إذا لم تنكح زوجا غيره فلا تحلّ لزوجها الأول . وكذلك قوله تعالى : (ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)[4] ، ومفهومها : أنّه لا يجوز الإفطار قبل دخول الليل .

وأداة الغاية هي (إلى) و(حتى) ، وما بعدها يسمى بـ (الغاية) ، والحكم أو الموضوع يسمى بـ (المُغيّى) .

والخلاف الواقع هو في أنّ (الغاية) هل هي داخلة في (المغيّى) حكماً أو هي خارجة عنه؟.

فقال بعضهم : إذا كانت الغاية من جنس المُغيّى فهي داخلة ، نحو : (صمت النهار إلى الليل) ، فكلاهما من الزمان ، وإذا كانت من غير جنسه فهي غير داخله فيه ، نحو : (كل شيء لك حلال حتى تعلم أنه حرام) .

وفرّق بعضهم في كون الغاية واقعة بعد (إلى) ، فلا تدخل فيه ، وبين كونها واقعة بعد (حتى) فتدخل ، نحو : (أكلت السمكة حتى رأسها) ، والصحيح أنّ السياقات والأحوال والقرائن الحافة بالكلام هي ما يحدد دخول الغاية في المغيّى أو عدم دخولها [5] ، كما نجد ذلك في قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)[6] . فإنّ ظاهر هذه الآية بما يدل عليه تحديد مبتدأ الغاية ومنتهاها ، يفيد بأنّ الإسراء ابتدأ من المسجد الحرام وهو ما يدل عليه الحرف (مِن) ، وينتهي بالمسجد الأقصى ، وهو مدلول الحرف (إلى) ، ومن القرائن الحالية

٥- سورة الإسراء : ٣٠ .
٦- ينظر : معجم المصطلحات الأصولية : ١٥٢ .
٧- سورة البقرة : ٢٣٠ .
١- سورة البقرة : ١٨٧ .
٢- ينظر : أصول الفقه : ١/ ١١٠ .
٣- سورة الإسراء : ١

والمقامية يتبين أنّ الغاية هنا داخلة في المغيى ، وهو الإسراء الذي يمتد إلى المسجد الأقصى وينتهي فيه ، وبذلك استدلت الإمامية والزيدية والمعتزلة بأنّ عروجه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان بروحه وبجسمه إلى بيت المقدس لقوله تعالى (إلى المسجد الأقصى) ، بينما قال آخرون : إنّ عروجه بروحه وبجسمه إلى السموات [١].

ولكن ظاهر هذه الآيات لا يدل عليه ، وإنما هو ظاهر آيات سورة النجم التي دلت على العروج إلى السماء ، وكذلك صريح الروايات الكثيرة [٢] .

ومن الآيات الدالة على المفهوم بطريق الغاية في هذه السورة أيضا ، قوله تعالى : (وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)[٣] ، إذ إنّ منطوق هذه الآية يدل على النهي عن التصرف بمال اليتيم إلاّ بما فيه مصلحة وإنماء [٤] ، حتى يرتفع عنه اليُتم ويصبح رشيدا وأما مفهومها فيدل على وجوب تسليم الأموال لصاحبها بعد ارتفاع اليتم ، وعدم التصرف بها بعد ذلك ، وإنْ كان بالطريقة الحسنى .

سادساً :دلالة الاشتراك اللفظي :

تحتوي لغة العرب على كلمات متشابهة من حيث اللفظ ، ولكنها تؤدي معاني مختلفة ، وهذا ما يعرف عندهم بالمشترك اللفظي .

وقد وقف القدامى والمحدثون من علماء العربية من المشترك اللفظي بين مؤيد لإقراره في اللغة ، وبين رافض لإدراجه تحت هذا المفهوم ، والتمسوا له تفسيرات ترجعه إلى أصل واحد ، أو تعدّه من المجاز .

فقد أشار القدامى إلى المصطلح ، حيث يعرّفه سيبويه(ت ١٨٠ هـ) بأنه : ((اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين))[٥] ، ويعرّفه ابن فارس(ت ٣٩٠ هـ) بأنه تسمية (الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد ، نحو عين الماء ، وعين السحاب)) [٦] .

أما المنكرون للاشتراك اللفظي والرافضون لوجوده من القدامى ، فكان على رأسهم ابن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) ، الذي أنكره إلاّ أنْ يأتي اللفظان على لغتين مختلفتين ، وتابعه على ذلك أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) [١] .

٤–ينظر : الميزان : ١٣ / ٣١ .
٥– ينظر : المصدر نفسه .
١– سورة الإسراء : ٣ .
٢– ينظر : الميزان : ١٣ /٨١ .
٣– الكتاب : ١ / ٢٤ .
٤– الصاحبي : ٩٦ .

وقد عد السيوطي الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم لوناً من الإعجاز القرآني ، بل عدّه من أعظم أنواع الإعجاز فيه ، حيث تتصرف الكلمة إلى وجوه كثيرة ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر[٢].

أمّا المحدثون ، فإنهم يميزون بين أربعة أنواع للاشتراك اللفظي وهي :

١- وجود معنًى مركزي للفظ تدور حوله عدة معانٍ فرعية أو هامشية ، والمعنى المركزي هو الذي يتصل بمعنى الكلمة ، إذا وردت منفردة مجردة عن السياق ، وهو الذي يربط عادة المعاني الهامشية الأخرى .

٢- تعدد المعنى نتيجة لاستعمال اللفظ في مواقف محددة مختلفة ، ويسمى هذا النوع بـ (الجوانب المتعددة للمعنى الواحد) ، ويُفرّق حينئذ بين المعنى الأصلي والمعنى الهامشي ، بأن الأول لا تتوقف معرفته على السياق ، وإنما بالوضع ، على العكس من الثاني .

٣- دلالة الكلمة الواحدة على أكثر من معنى نتيجة لتطور في جانب المعنى واكتسابها معنى أو معاني جديدة ، وقد مُثّل لهذا النوع بكلمة (عملية) التي تعد كلمة واحدة ، مع إنها حين تُسمع منعزلة عن السياق لا يعرف ما إذا كان المقصود بها عملية جراحية ، أو عملية عسكرية ، أو صفقة تجارية .

٤- وجود كلمتين كلّ منهما يدل على معنى ، وقد اتحدت صورة الكلمتين نتيجة تطور في جانب النطق ، ويمكن التمثيل لهذا النوع بالفعلين : قال يقيل ، وقال يقول ، حينما يستعملان في صيغة الماضي واسم الفاعل ، وكذلك بالفعلين ضاع يضيع ، وضاع (المسك) يضوع ، وكذلك اسم الفاعل من الفعلين سأل وسال .

وقد أخرج بعض اللغويين ((الأنواع الثلاثة الأولى من المشترك اللفظي وعدها طريقاً إلى المجاز أو نوعا منه ، كما إن هناك مَن أدمج النوعين الثالث والرابع واعتبرهما نوعا واحدا))[٣].

أمّا الدكتور إبراهيم أنيس ، فله رأي يوضح فيه المعيار الذي بموجبه يكون الاشتراك اللفظي حيث يقول : ((إذا ثبت لنا من نصوص أنّ اللفظ الواحد قد يعبر عن معنيين متباينين كل التباين سمينا هذا بالمشترك اللفظي ، أما إذا اتضح أنّ احد المعنيين هو الأصل ، وأنّ الآخر مجازٌ فلا يصح أنْ يُعد مثل هذا من المشترك اللفظي في حقيقة أمره)) [٤] .

٥- ينظر : اثر الدلالة النحوية واللغويّة في استنباط أحكام آيات القرآن التشريعيّة : ٥٣ .
٦- ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار: ٤٨ .
١- علم الدلالة ، أحمد مختار : ٦٨ .
4 – دلالة الألفاظ : ٢١٣ .

وعلى ذلك فإنّ ما وقع في القرآن الكريم من ذلك المشترك اللفظي قليل جدا ، لأن الأغلب منه ممّا تُلحظ فيه الصلة المجازية ، فهو إلى المجاز أقرب ، إلاّ ما ندر ، من قبيل كلمة (أمّة) ، التي جاءت في القرآن الكريم بمعنى جماعة الناس ، و بمعنى (حين) ، في قوله تعالى : (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ)[١] ، وبمعنى (الدِّين) في قوله تعالى : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) [٢] .

ولعل هذا الرأي يلتقي مع أصحاب المنطق الذين يصنفون الألفاظ بطريقة أكثر دقة ، ويميزون بينها تمييزا واضحا ، حيث يقسمون اللفظ الدال على أكثر من معنى واحدا، إلى أربعة أقسام ، وهي : المشترك ، والمنقول ، والمرتجل ، والحقيقة والمجاز . ويعرّفون المشترك بأنه ((اللفظ الذي تعدد معناه وقد وضع للجميع كلاً على حده ، ولكن من دون أنْ يسبق وضعه لبعضها على وضعه للآخر ، مثل (عين) الموضوع لحاسة البصر ، وينبوع الماء ، والذهب ، وغيرها ، ومثل (الجون) الموضوع للأسود والأبيض)) [٣] .

أمّا اللفظ الذي انتقلت دلالته بسبب الاصطلاح مثل (الصلاة) الموضع أولاً للدعاء ، ثم نقل في الشرع الإسلامي إلى الصلاة الشرعية لمناسبة ملحوظة بين المعنيين فهو المنقول ، وكذلك مثل لفظ (الحج) الموضوع أولا للقصد مطلقا ، ثم خصصت دلالته لقصد مكة المكرمة بالأفعال المخصوصة ، والوقت المعلوم ، وقد يكون المنقول شرعيّا كما مرّ ، وقد يكون عرفيا ، كلفظ (السيارة)(والطائرة)، وقد يكون منطقيا ، أو فلسفيا ، أو نحويا .... وهكذا .

ومما ورد في سورة الإسراء من الألفاظ التي يمكن عدها من الألفاظ المشتركة آخذين بنظر الاعتبار المعايير السابقة في تشخيص الألفاظ المشتركة ما يأتي :

١-قضى :

حيث ورد هذا اللفظ في السورة مرتين بمعنيين مختلفين ، الأول : في قوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ)[٤] ، وهو هنا بمعنى الإعلام ، والإخبار ، أي: أخبرنا وأعلمنا بني إسرائيل في التوراة أنهم سيفسدون في الأرض مرتين [٥] .

والثاني في قوله تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)[٦] وهو بمعنى الأمر ، أي : أمر ربك أمراً باتّاً ، وقيل : بمعنى الإلزام ، والإيجاب ، وقيل: إنه بمعنى أوصى[٧] .

١- سورة يوسف : ٥٤ .
٢- سورة الزخرف : ٢٢ .
٣- المنطق : ١ / ٤٤ .
٤- سورة الإسراء : ٤ .
٥- ينظر : مجمع البيان : ٦/ ٢٥٤ ، والتفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٦ .
١- سورة الإسراء : ٢٣ .
٢- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٣٧٥ .

وهذا الاختلاف في تصريف الوجوه لهذا اللفظ يبين إمكان استعماله في معانٍ متعددة يميزها السياق الذي ترد فيه ، وقد تتبع المفسرون وعلماء اللغة وجوه هذه الكلمة وأحصوها ، ومن هذه الوجوه التي ذكروها : [1]

١- قضى بمعنى (أمر) ، كما في قوله تعالى : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) .

٢- قضى بمعنى (أخبر وأعلم) كما في قوله تعالى : (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ) .

٣- قضى بمعنى (فرغ) كما في قوله تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ)[2] و (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ)[3] .

٤- قضى بمعنى (تمّ) كما في قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ)[4] .

٥- قضى بمعنى (خلق) كما في قوله تعالى : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)[5] ،

٦- قضى بمعنى (حكم أو فعل) كما في قوله تعالى : (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ)[6].

٧- قضى ، معنى (أراد) كما في قوله تعالى : (إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [7] .

٨- قضى ، بمعنى (أمات) كما في قوله تعالى:(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ)[8]

وغير ذلك من الوجوه التي يتصرف إليها هذا اللفظ .

والأمر الذي ينبغي أنْ يُلاحظ في المشترك اللفظي هنا هو العلقة الجامعة لكل الوجوه ، وهو الأصل الجامع لها ، فالقضاء في اللغة هو فصل الأمر ، وقطع الأشياء على إحكام ، ومنها سمّي القاضي [9] ، ثم بعد ذلك يستعمل في الخلق والأمر ، والإيجاب ، وغير ذلك ، فكلُّ وجه من هذه الوجوه يحمل خصوصية زائدة على معناه ، فعندما يأتي بمعنى (خلق) مثلا ، فإنّ المعنى سيكون : خلق بإحكام ، وكذلك في الوجوه الأخرى ، فهو أمر بإحكام ، وفراغ بإحكام ، وإرادة محكمة ، وهكذا .

ففي قوله تعالى في سورة الإسراء : (وقضينا إلى بني إسرائيل) يكون معناه الدقيق والمستفاد من تضمين مادة (قضى) : أعلمناهم وأخبرناهم إخبارا محكماً لا شك فيه .

وفي قوله تعالى : (وقضى ربك) ، أي: أمر أمراً محكماً باتّاً لا تهاون فيه .

٣- ينظر : الوجوه والنظائر : ٣٢٦ ، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ٨ /٢٩٩ .
٤- سورة النساء : ١٠٣ .
٥- سورة البقرة : ٢٠٠ .
٦- سورة القصص : ٢٩ .
٧ – سورة فصلت : ١٢ .
٨- سورة طه : ٧٢ .
٩ – سورة آل عمران : ٤٧ .
١٠- سورة القصص : ١٥ .
١- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٥٣ : والتفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٦ .

ومن هنا نستنتج أنّ الفائدة التي يؤديها المشترك اللفظي ، هو إعطاء خصوصية زائدة تأتي من أصل معناه ، لكل وجه من الوجوه التي يتصرف إليها .

٢- جَعَلَ :

ورد الفعل (جَعَل) في هذه السورة المباركة أربع عشرة مرة ،[١] على وجهين مختلفين:

الأول : بمعنى (صيّر) ، وهو فعل متعدٍ إلى مفعولين ، ودلالته : جعل الشيء وتصييره بعد أنْ لم يكن .

وقد جاء على هذا المعنى معظم الآيات التي وردت في السورة ، كقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً) [٢] ، أي: بعد أنْ كنتم أقلّ .

وقوله تعالى : (فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)[٣] .

الثاني : بمعنى (خلق) ، وهي (جعل) التامة التي تحتاج إلى مفعول واحد ، وهي ما يسمى بـ (جعل) التكوينية ، وقد وردت بهذا المعنى في سورة الإسراء في قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)[٤] وكذلك في قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)[٥] ، فالمراد بجعلهما آيتين ((هو خلقهما كذلك ، لا خلقهما وليستا آيتين ، ثم جعلهما آيتين وإلباسهما لباس الدلالة ، فالأشياء كلها آيات له تعالى من جهة أصل وجودها وكينونتها الدالة على مكوّنها لا لوصف طارئ يطرأ عليها)) [٦] ، وقد ذكر اللغويون وجهين آخرين للفعل (جعل) هما : [٧]

١- جعل بمعنى (وصف) كما في قوله تعالى :(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)[٨].

٢- جعل بمعنى (فعل بالفعل) كما في قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً)[٩] ، يعني قد فعلوا ذلك .

ولكن بتأمل هذين الوجهين يمكن إرجاعهما إلى الوجهين السابقين .

٣ – إمام :

كما ورد ذلك في قوله تعالى : (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)[١٠] .

٢- الآيات : ٢ ، ٦ ، ١٢ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٣، ٣٩ ، ٤٥ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ٩٩ .
٣ – سورة الإسراء : ٦ .
٤- سورة الإسراء : ٣٣ .
١- سورة الإسراء : ١٢ .
٢- سورة الإسراء : ١٢ .
٣- الميزان : ١٣ /٥٠ – ٥١ .
٤- ينظر : الوجوه والنظائر : ١٨٤
٥- سورة الأنعام : ١٠٠ .
٦- سورة الأنعام : ١٣٦
٧- سورة الإسراء : ٧١ .

وقد اختلف المفسرون في دلالة هذه الكلمة في هذا السياق ، وهذا ناشئ من كون هذا اللفظ من المشترك اللفظي ، الذي يأتي لمعانٍ عديدة ، فقد ذُكرت له وجوه منها :

١- الإمام : هو القائد في الخير كالنبيّ وغيره ، قال تعالى : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)[١] ، وقوله تعالى : (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)[٢] ، وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)[٣] ، والإمام كذلك هو القائد في الضلال ، كما في قوله تعالى : (فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)[٤] .

٢- الإمام : هو كتاب الأعمال .

٣- الإمام : هو اللوح المحفوظ ، كما في قوله تعالى :(وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)[٥].

٤- الإمام : هو الطريق الواضح ، قال تعالى : (وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ)[٦]، وسياق هذه الآية يبين هنا أنّ المقصود بالإمام ، هو أما الكاتب ، وأما النبي ، وهو قائد كل امّة ، أو هو إمام زمانهم ، ويدل على ذلك ما روي بالأسانيد الصحيحة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أنه قال : ((يدعى كل أناس بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم ، وروي عن الأمام الصادق أنه قال : ألا تحمدون الله ؟ إذا كان يوم القيامة فدعا كلّ قوم إلى مَن يتولونه ، ودعانا إلى رسول الله (صلى الله عليه آله وسلم) وفزعتم إلينا ، فإلى أين ترون يُذهب بكم ؟ إلى الجنة ورب الكعبة ، قالها ثلاثا)) [٧].

والمتعين هو إمام كل أناس ممّن يأتمون به في سبيلَي الحق أو الباطل ، وذلك لأنّ ظاهر الآية أنّ هذه الدعوة تعم الناس جميعا من الأولين والآخرين ، وأنه قد مرّ زمن على البشرية ولا كتاب لها ، إذ إنّ أول كتاب سماوي مشتمل على الشريعة هو كتاب نوح (عليه السلام) ، وبذلك يظهر عدم صلاحية كون الإمام في الآية هو الكتاب ، وإلاّ خرج مَن ليس لديهم كتاب كالأقوام السابقة لنوح (عليه السلام) من شمول الدعوة في هذه الآية [٨].

٤- الأعمى :

٨- سورة البقرة : ١٢٤ .
٩- سورة الفرقان : ٤٧ .
١٠- سورة الأنبياء : ٧٣ .
١١- سورة التوبة : ١٢ .
١- سورة يس : ١٢ .
٢- سورة الحجر : ٧٩ .
٣- مجمع البيان : ٦ / ٣١٦ .
٤- ينظر : الميزان : ١٣ / ١٦٢ .

ورد هذا اللفظ في هذه السورة مرتين ، وفي سياق واحد وهو قوله تعالى :(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً) [١] ، وهو من ألفاظ المشترك اللفظي ، حيث تأتي على عدة وجوه وهي : [٢]

١- أعمى القلب : قال تعالى : (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[٣] .

٢- أعمى البصر: قال تعالى : (أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) [٤] ، وقال تعالى : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ)[٥] .

٣- أعمى عن الحجة : وقد يكون منه قوله تعالى : (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)[٦] .

٤- الأعمى بمعنى (الضالّ) : وقد يكون منه هذه الآية : (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً) ، أي: من كان ضالا في الدنيا فهو في الآخرة أضلّ .

فالمراد إذن بالأعمى في الآية الكريمة هو عمى البصيرة أو عمى القلب في الدنيا ، وفي الآخرة يكون ذلك العمى أشد ضلالا وأبعد عن الحجة . ولا ينافيه قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) [٧] ، لكثرة المواقف وتبدل الأحوال يوم القيامة ، ((ولذلك ذكر بعضهم أنهم يحشرون يوم القيامة أولاً مبصرين ثم يعمون ، وبعضهم يحشرون مبصرين ثم عمياً ثم مبصرين))[٨] ، إذ إنهم يبصرون أهوال يوم القيامة وآياتها العظيمة ، يقول تعالى في وصفهم : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)[٩] .

٥- الظن :

٥- سورة الإسراء : ٧٢ .
٦- ينظر : الوجوه والنظائر : ٢٣٠ ، و مجمع البيان : ٦ / ٣١٧.
١- سورة الحج : ٤٦ .
٢- سورة عبس : ٢.
٣- سورة النور : ٦١ .
٤- سورة طه : ١٢٤ .
٥ – سورة طه : ١٢٥ ، ١٢٦ .
٦- الميزان : ١٥ / ٢٢٦ .
٧ – سورة السجدة : ١٢ .

وهو من الألفاظ المشتركة ، حيث ورد استعمالها في أكثر من معنى ، على الرغم من ظهورها في معنى أساسي وهو مرحلة من مراحل العلم تقع وسطا بين الشك واليقين وهو ما يعرف بالرجحان ، فقد ورد تفسير هذا اللفظ في سياقات مختلفة على ثلاثة وجوه ،هي :[١]

١- الظن بمعنى اليقين : نحو قوله تعالى : (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ)[٢]، أي: أيقنت. وفي سورة الإسراء ورد قوله تعالى : (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً) [٣] ، أي: أنهم ((استقصروا مدة لبثهم في الدنيا والآخرة لما يعلمون من طول لبثهم في الآخرة)) [٤] .

ولكننا ينبغي أنْ نلتفت إلى أنّ الظن لا يمكن أنْ يكون مرادفا تاما لليقين بحيث يحلّ محله في الدلالة الدقيقة ، ولذلك لم يعبر القرآن الكريم هنا باليقين أو العلم ، وذلك لأنّ المورد مازال عندهم لم يرقَ إلى اليقين في أجلى صوره ، وإنما هو ظنٌ أقرب إلى اليقين ، ومشوب به ، وبذلك انتقل الظن هنا من مرحلة الشك إلى مرحلة متقدمة من العلم هي أشبه باليقين المفيد للعلم .

٢- الظن بمعنى الشكّ : ومنه قوله تعالى : (قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)[٥].

وممّا ورد في سورة الإسراء قوله تعالى : (فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً)[٦] ، وقوله تعالى : (وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) [٧] ، وإنما جاء الظن في قول موسى (عليه السلام) في الآية الثانية ، دون اليقين ، لأنّ الحكم في ثبور فرعون ، هو لله ،سبحانه، وحده ، وكذلك لمقابلة كلام فرعون، تهكماً[٨] .

٣- الظنَ بمعنى التهمة : قال تعالى : (وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) [٩] ، وكذلك من قرأ (ظنين) ، بالظاء في قوله تعالى : (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ)[١٠] ، أي: متهم.

ولم يرد في سورة الإسراء الظن بهذا المعنى .

١- ينظر : الوجوه والنظائر : ٢٧٤ .
٢- سورة الحاقة : ٢٠
٣- سورة الإسراء : ٥٢ .
٤- مجمع البيان : ٦ / ٢٩٨ .
٥- سورة الجاثية : ٣٢ .
٦- سورة الإسراء : ١٠١ .
٧- سورة الإسراء : ١٠٢ .
١- ينظر: الميزان : ١٣ / ٢١٥ .
٢- سورة الأحزاب : ١٠ .
٣- سورة التكوير : ٢٤ .

سابعا : دلالة الترادف :

الترادف لغة : مأخوذ من الفعل ردِف يردف ردفا ، وهو التتابع [١] ، من قولهم : جاءوا ردافى يتبع بعضهم بعضا ،[٢] والراكب خلف الراكب هو الردِف ، وأردفته أركبته [٣] ، ((والردف التتابع ، والرادف المتأخر)) [٤] ، قال تعالى : (أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ)[٥] ، أي: متتابعين يردف بعضهم بعضاً [٦] ، والردفان: الليل والنهار، لأنه يتبع أحدهما الآخر [٧] . وأما في الاصطلاح فهو أنْ ((يدل لفظان أو أكثر على معنى واحد)) [٨] ، وعرّف الفخر الرازي الترادف بقوله : ((وهو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد))[٩] ، واحترز بوحدة الاعتبار عن المتباينين كالسيف والصارم ، فإنهما يدلان على شيء واحد ولكن باعتبارين ، أحدهما على الذات والآخر على الصفة [١٠].

وقد اختلف اللغويون العرب القدامى اختلافا كبيرا في إثبات هذه الظاهرة أو إنكار وجودها في اللغة العربية [١١] ، ففريق أثبت وجود هذه الظاهرة واحتج لوجودها بأنه ((لو كان لكلّ لفظةٍ معنى غير الآخر ، لما أمكن أنْ يعبّر عن شيء بغير عبارته ، وذلك لأنا نقول في : لا ريب فيه : لا شك فيه ، فلو كان الريب غير الشك لكانت العبارة خطأ)) [١٢] ، ويستشهد أصحاب هذا الرأي بأنّ ابن خالويه كان يفتخر بأنه يحفظ للسيف خمسين اسما ، وقد جمع للأسد خمسمائة اسم ، وللحيّة مائتي اسم)) [١٣] .

وهناك فريق آخر ينكر وجود الترادف ، وعلى رأسهم ثعلب وأبو علي الفارسي وابن فارس وأبو هلال العسكري ، ويرى هؤلاء بأنّ للسيف اسم واحد ، وأما الباقي فما هي إلاّ صفات للاسم ، وكذلك الأفعال ، نحو ، مضى وذهب ، وقعد وجلس ، ونام وهجع ، فكل منهما يحمل معنى ليس في الآخر وأنّ هناك فروقاً بين هذه الألفاظ [١٤] ، وإنْ كانت دلالاتها متقاربة .

أما المحدثون فيميز كثير منهم بين أنواع مختلفة من الترادف منها :[١٥]

٤- ينظر المفردات : ٣٤٩ .
٥- ينظر : القاموس المحيط : ٣ / ١٤٣ .
٦- ينظر :المصدر نفسه .
٧- المفردات : ١٩٣.
٨- سورة الأنفال : ٩ .
٩- تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٩٠
١٠- ينظر : الصحاح : ١ / ٤٧٦ .
١١ – فقه اللغة : ١٦٨ .
١٢- المزهر : ١ / ٤٠٢ .
١٣- ينظر ألمصدر نفسه .
11 – ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار: ٢١٦ .
12- الصاحبي : ٩٧ .
٣- ينظر : المزهر : ١ / ٤٠٥ .
٤- ينظر : علم الدلالة ،أحمد مختار :٢٨، وما بعدها .
٥- ينظر : المصدر نفسه: ٢٢٠، وما بعدها .

أ – الترادف الكامل : وذلك حين يتطابق اللفظان تمام المطابقة ، ولا يشعر أبناء اللغة بأي فرق بينهما ، وعلامة ذلك أنهم يبدلونه بحرية تامة في كل السياقات ، ولكن أغلبية اللغويين على إنكار هذا النوع ، لأنه لا يوجد لفظان يمكن أنْ يحلّ أحدهما محل الآخر دون تغيير الدلالة الحقيقية ، ومادامت الكلمات مختلفة صوتيا فلابد من أنْ تكون معانيها مختلفة كذلك [١] .

ب- شبه الترادف : أو التشابه أو التقارب أو التداخل ، وذلك حين يتقارب اللفظان تقارباً شديداً حيث يصعب التفريق بينهما لغير المتخصص ، ولذا يستعملها كثيرون من دون تحفظ مع إغفال هذه الفروق ، [٢] ومن هذه الألفاظ : عام، وسنة ، وحول.

ج - التقارب الدلالي : ويكون ذلك في الألفاظ المتقاربة دلاليا ، مع إمكان ملاحظة الاختلاف بين اللفظين بملمح واحد على الأقل ، ويمكن التمثيل لذلك في اللغة العربية ، في كلمتي حلم، ورؤيا.[٣]

د – التفسير : وذلك حين تكون بعض التعبيرات أقرب إلى الفهم من الكلمات المفسّرة داخل النص ، وحيث إنّ درجة الفهم للغة تختلف من شخص لآخر ، فإنّ ما يعدّ تفسيرا لشخص قد لا يكون تفسيرا لآخر [٤] ، كتفسير الصراط بالطريق ، والقسطاس بالميزان ، والصمد بالسيد المطاع .

واللغويون المعاصرون لا ينكرون وجود هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة من الترادف [٥].

والذي أعتقده أنْ لا وجود للترادف التام ، بمعنى وضع كلمتين أو أكثر للدلالة على معنى واحد من دون لحاظ أيّ فارق دلالي بينهما ، وإلاّ سيكون الوضع عند ذلك أشبه باللغو ، وإنْ كان ممكنا في حدّ ذاته ، وإنّ اختيار المتكلم لأحد اللفظين دون الآخر سيكون ترجيحا بلا مرجّح ، ولذلك نرى أنّ اختيار المتكلم الحكيم، ولاسيما في القرآن الكريم للألفاظ ، كان على وفق ما في هذه الألفاظ – التي تبدو مترادفة – من معان وفروق دلالية ، متناسبة ومتناسقة مع السياق الواردة فيه .

وممّا نلمس أثره في سورة الإسراء ما جاء فيها من ألفاظ مترادفة على ضوء ما قررناه من معنى الترادف سواء أكان ذلك الترادف في السورة نفسها أم في سور أخرى من القرآن الكريم ، إذ إننا نركز على القيمة الدلالية لاستعمال هذا المترادف دون سواه ممّا يرادفه في المعنى ، ونحاول استجلاء بعض الأسرار الكامنة لهذا الاستعمال وما يحمله من الفروق الدقيقة بين الألفاظ ، واستعمالاتها المختلفة، تبعا لاختلاف السياقات والأحوال ، ومن هذه الألفاظ ما يأتي :

٦- ينظر : المصدر نفسه: ٢٢٤ – ٢٢٥ .
2 – ينظر : المصدر نفسه : ٢٢١ .
3- ينظر : المصدر نفسه.
4 – ينظر : المصدر نفسه: ٢٢٣ .
٢- ينظر : المصدر نفسه : ٢٢٤ .

١- الزخرف والذهب :

حيث ورد في قوله تعالى : (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ)[١] ، أي: من ذهب ، ومثله في قوله تعالى في سورة الزخرف : (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ) [٢] ، والزخرف هنا بمعنى الذهب كما يقول المفسرون . [٣] والذي يدل عليه استعماله في مقابل الفضة ، كما في قوله تعالى : (سقفا من فضة)، في حين نجد القرآن الكريم في سياقات أخرى يستعمل كلمة (الذهب) ، نحو قوله تعالى : (فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ)[٤] ، وقوله تعالى : (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ)[٥] .

ويظهر من ذلك أنّ اللفظين هما من الألفاظ المترادفة ، ولكن ليس هو الترادف التام الذي لا يسمح بأيّ فوارق دلالية بين الاستعمالين ، وإنما هو تقارب دلالي ناشئ من كون الكلمتين تربطهما علاقة نسبة العموم والخصوص المطلق ، إذ إنّ كل ذهب هو من الزخرف ، وليس كل زخرف ذهبا ، وذلك لأنّ ((أصل الزخرف من الزخرفة ، وهي الزينة ، وزخرفت الشيء إذا أكملت زينته ، ولا شيء في تحسين بيت وتزيينه وزخرفته كالذهب)) [٦] .

ولذلك نرى أنّ القرآن الكريم يستعمل كلمة الزخرف استعمالا عامّاً يشمل وجوها مختلفة منها : [٧]

١- الذهب ، كما في قوله تعالى : (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ)[٨] .

٢- الحُسن : كما في قوله تعالى :(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ)[٩].

٣- التزيين ، كما في قوله تعالى : (زخرف القول غرورا) [١٠] ، أي: تزيين القول .

وفي سياق هذه الآية الكريمة في سورة الإسراء ، تبرز القيمة الدلالية لاستعمال كلمة (زخرف) بدلاً من كلمة (ذهب) ، وذلك لما في هذه اللفظة من الدلالة على المعنى الأساسي المراد ، وهو الذهب ، مضافا إلى ما تحمله من معان أخرى وهو التزيين والتزويق ، وهو ما يناسب البيت المزخرف والمزين بالذهب ، وهو ما رأيناه في الآيتين السابقتين ، في حين وجدنا أنّ مورد استعمال (الذهب) يكون في وصف الأمور الواقعية من هذا المعدن النفيس ، كالأسورة الذهبية ، أو الأكواب المصنوعة منه التي يراد بها التزيين في حدود طبيعية ومعقولة .

1- سورة الإسراء : ٩٣ .
٤- سورة الزخرف : ٣٤ – ٣٥ .
5- ينظر : المفردات : ٢ / ١٠٧ ، مجمع البيان : ٦ / ٣٣٦ ، والكشاف : ٣ / ٤٨٧ .
١- سورة الزخرف : ٥٣ .
٢- سورة الزخرف : ٧٣ .
٣- مجمع البيان : ٦ / ٣٣٦ .
٤- ينظر : الوجوه والنظائر : ٢٥٨ .
8- سورة الإسراء : ٩٣ .
٦- سورة يونس : ٢٣ .
10 – سورة الأنعام:١١٢.

وهناك دلالة أخرى يمكن تلمسها في سياق الآيات التي استعمل فيها الزخرف بمعنى الذهب ، وهي أنّ هذه الزينة المفرطة هي صفة دنيوية يطلبها أهل الدنيا الذين لا خلاق لهم في الآخرة ، ولذلك كان ذلك هو مطلب المشركين ، وتمنيهم على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أنْ يكون له بيت كما وصفوا ، في حين أنّ استعمال كلمة الذهب يعبّر عن صفة محمودة بوصف الأشياء النفيسة ، أو يكون وصفا لحياة الآخرة ونعيمها .

٢-جهنّم والنار:

وهما لفظان مترادفان استعملا في القرآن الكريم ، حيث ذكر بعض المفسرين أنهما مترادفان[١].

وقد ورد في سورة الإسراء لفظ جهنم ، ولم يرد مرادفه الآخر ، كما في قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً)[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً﴾[٤] على أننا نرى في مواضع أخرى من القرآن الكريم استعمال لفظ النار للدلالة على نار الآخرة ، كقوله تعالى ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [٥] .

والذي نلاحظه على طبيعة ترادف هاتين الكلمتين هو ما يأتي :

١- أنّ منشأ الترادف بين الكلمتين هو مجرد تقارب دلالي فحسب ، لأنّ التعبير بلفظ (جهنم) هو تعبير خاص بنار الآخرة ، ولم يعبر القرآن الكريم بـ (جهنم) عن نار الدنيا ، في حين أنّ لفظ (النار) ، يعبر به عن نار الدنيا ونار الآخرة ، كمثل قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [٦] ، وقوله تعالى : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[٧] ، فالنار من هذه الحيثية تعبير عام ، و (جهنم) تعبير خاص .

٢- أنّ (جهنم) يدل على ذلك المكان الذي جعله الله سبحانه لمعاقبة الخارجين عن حدود سلطنته ، بما فيه من هول وضيق وحبس ونيران لا مثيل لها ، أما (النار) فهو لفظ يدل على ذلك النوع من اللهب المحرق بذاته ، ولذلك هو يستعمل في الموردين معا .

وفي سورة الإسراء وجدنا أنّ السياق يقتضي التعبير بلفظ (جهنم) دون مرادفه الآخر (النار) ، لأنّ مورد الاستعمال كان للإشارة إلى ذلك الموضع الرهيب الذي سيصير إليه المعاندون ، وليس إلى

1- ينظر : تفسير البيضاوي : ١ / ٢٢٨ .
٢- سورة الإسراء : ٨ .
٣- سورة الإسراء: ١٨ .
٤- سورة الإسراء:٦٣ .
٥- سورة البقرة :٢٣ .
٦- سورة الواقعة : ٧١ .
٧- سورة البروج : ٥ .

مـادة العذاب وهـي النـار المحرقـة فقط ، وهذا واضـح فـي قولـه تعـالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ (١) ، وفي الآيات الأخرى المذكورة .

٣- التفضيل والتكريم :

ورد في سورة الإسراء هذان اللفظان في سياقات متفرقة ، منها قولـه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ (٣) .

وقد وردا فـي سياق واحـد فـي قولـه تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (٤)

ومن هنا نحس أنّ بين اللفظين فرقا دلاليا ، وإلاّ فما معنى هذه الثنائية في الاستعمال في سياق واحد ؟

وللإجابة على ذلك نقول : إنـه قد لا يكون بين اللفظين ترادف أصلاً ، فالتكريم هنا لا ينبئ عن التفضيل ، وإنما هو رديف للإنعام فحسب ، فجيء بلفظ التفضيل ليدل عليه (٥) .

أو إنّ هناك ترادفا من نوع التقارب الدلالي ، فقد قيل : إنّ التكريم يتناول نعم الدنيا ، والتفضيل يتناول نعم الآخرة (٦) .

وقيل : إنّ كرّمنا إشارة إلى المواهب التي أعطاها الله ،سبحانه، ذاتاً للإنسان ، وفضلنا إشارة إلى الفضائل التي اكتسبها الإنسان بسبب توفيق الله سبحانه ، أو إنّ كرّمنا إشارة إلى الجوانب المادية وفضلنا إشارة إلى المواهب المعنوية . (٧)

٤- التتبير والإهلاك :

جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ (٨)، بأن التتبير هنا هو الإهلاك (٩) ، يقول الطبرسي : أنّ الإهلاك والتبار والهلاك والدمار واحد (١٠) ، أي: كلّ ذلك ألفاظ مترادفة ، بمعنى متقاربة من حيث الدلالة مع احتفاظ كل لفظ بخصوصية معينة يتميز بها عن الآخر ، ولذلك نلاحظ

١- سورة الإسراء : ٨ .
٢- سورة الإسراء : ٥٥ .
٣- سورة الإسراء : ٦٣ .
٤- سورة الإسراء : ٧٠ .
٥- ينظر : مجمع البيان :٦ / ٣١٥ .
٦- ينظر : المصدر نفسه .
7 -ينظر : الأمثل :٩/ ٤٣.
٢- سورة الإسراء : ٧ .
٣- ينظر: مجمع البيان :٦/ ٢٥٤، و التفسير الكبير :٢٠/ ١٥٩، و الميزان في تفسير القرآن :١٣/ ٤٢.
10 - ينظر :مجمع البيان : ٦/ ٥٤.

القرآن الكريم في سورة الإسراء لم يستعمل مادة (تبر) في جميع مواضع الهلاك والإهلاك ، وإنما استبدلت الصيغة في سياقات أخرى ، وهذا دليل على افتراق المادتين في الدلالات الدقيقة ، فقد ورد في السورة قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [١] ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [٢] .

ويمكننا أنْ نكشف عن مواطن الافتراق الدلالي بين هذين المترادفين في الاستعمال العام للمعنى ، بكشف الخصوصية التي ينفرد بها كلا اللفظين ، إذ إنّ التتبير هو الإهلاك ، ولكن بصورة مخصوصة ، فليس كل هالك متبّر ، وكل متبّرٍ هو هالك ، ((يقال : تبُر الشيء تبراً إذا هلك ، وتبّره أهلكه ، قال الزّجاج : كل شيء جعلته مكسّرا ، ومفتتًا فقد تبرته ، ومنه قيل : تبرُ الزجاج ، وتبرُ الذهب لمكسّره)) [٣] .

أما مادة (هلك) فتحمل مفهوما عاما يمكن إيراده على بعض الوجوه التي منها : [٤]

١- تأتي بمعنى (الموت) ، نحو قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً ﴾ [٥] .

٢- تأتي بمعنى (العقاب) ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ [٦] .

٣- تأتي بمعنى (الفساد) ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾[٧].

فالتتبير إذن هو الإهلاك بطريقة قاسية ، بحيث يكون مدمرا ،ومفسدا، ومميتا، ومقطعا إرباً إرباً ، وهذا هو حال اليهود الموعودين بعقاب الإفسادة الثانية ، حين يدمرهم عباد الله تدميرا ، ويهلكونهم بهذه الطريقة القاسية ، فيتشتت أمرهم ، وتتقطع أوصالهم .

٥-التبذير والإسراف :

كثيرا ما تستعمل هاتان الكلمتان للدلالة على معنى واحد ، وقد تتتابعان في سياق واحد لغرض التأكيد [٨] ، كقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة : ((ألا إنّ إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف)) [١]

.

٥- سورة الإسراء: ١٧ .
٦- سورة الإسراء : ١٦.
3 - التفسير الكبير : ٢٠ / ١٥٩ .
8- ينظر : الوجوه والنظائر : ٢٧٢ -٢٧٣ .
5 - سورة الإسراء : ٥٨ .
٢- سورة القصص: ٥٩ .
٣- سورة البقرة : ٢٠٥ .
٤- ينظر : الأمثل : ٣٠٧ .

وقد يكون هذان اللفظان من الألفاظ التي إذا اجتمعت اختلفت وإذا افترقت ائتلفت ، كالفقير والمسكين

.

وقد ورد (التبذير) في سورة الإسراء ، في قوله تعالى :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ۞إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ [٢] .

ولم ترد مادة (الإسراف) في هذه السورة ، ولكنها وردت في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٣] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٤] ، ويتبين من ذلك أنّ كلاً من الإسراف والتبذير هو خروج عن حدّ الاعتدال [٥] .

والملاحظ أنّ هاتين الكلمتين يستطيع المتكلم أنْ يبدّل إحداهما بالأخرى بسهولة كبيرة ، وذلك للتقارب الدلالي الكبير بينهما ، لأنهما من الألفاظ المتداخلة ، وهو ما يسمى بـ (شبه الترادف) ، كألفاظ : السنة، والحول، والعام . ولكن مهما يكن من شيء فإنّ ثمّة تمايز دلالي دقيق لابدّ حاصل بين اللفظين ، وذلك ما يمكن أنْ نستوحيه من قراءة السياقات الواردة فيها ، فنقول : إنّ التبذير هو الخروج عن حد الاعتدال في الأمور المادية من كسب ومعاش ، وغير ذلك .

أما الإسراف : فهو الخروج عن حدّ الاعتدال بصورة عامة ، سواء أ كان في الأمور التي يرد فيها التبذير كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [٦] ، أم في الأمور المعنوية والأخلاقية والاجتماعية ، كالظلم والقتل والإهلاك ، والتجبر والطغيان وغير ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾[٧] ، وقيل : إنّ التبذير هو إنفاق المال فيما لا ينبغي ، والإسراف هو صرفه زيادة على ما ينبغي ، فالإسراف هو تجاوز الحدّ في صرف المال ، والتبذير إتلافه وهو أعظم من الإسراف [٨] ، حيث يقول تعالى فيه : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾[٩] .

٥- نهج البلاغة: ٢٤٧ .
٦- سورة الإسراء : ٢٦- ٢٧ .
١- سورة الأعراف : ١ .
٢- سورة يونس : ٨٣ .
٣- ينظر : الأمثل : ٨ / ٣٠٧.
٤- سورة الفرقان : ٦٧ .
٥- سورة يونس : ٨٣ .
٦- ينظر : فروق اللغات : ٤٤ .
٧- سورة الإسراء : ٢٧ .

٦- بعث وأرسل :

وهما من الألفاظ المترادفة ، وقد ورد كلاً منهما في سورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [٢] .

ومنشأ هذا الترادف هو التداخل بين الكلمتين دلالياً ، فهما ليسا من الترادف التام ، بحيث تسد أحدهما محل الآخر في جميع السياقات ، وهذا التداخل ينشأ من خصوصية أحدهما وعمومية الآخر في كيفية الدلالة ، إذ إنّ الإرسال معنى عام ، والبعث هو إرسال بحال مخصوصة ، وغالبا ما يستعمل الإرسال في خصوص الرسول ، صاحب الرسالة ، أو الآيات المرتبطة به المرسلة من عند الله، سبحانه ، كما في الآية المتقدمة ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ [٣] .

أما البعث والانبعاث فهو الإنهاض والإرسال بعد سبات وفترة ، ويشمل بعثة الأنبياء التي تكون بعد فترة من الجمود الروحي في المجتمعات ، وكذلك بعث الإنسان ، أي: إرساله من قيود الضعف والاسترخاء والرقاد ، ولذلك ورد في سورة الإسراء قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [٤] ، واستعمال مادة (بعث) هنا يدل على طول فترة من الزمن بين الإفسادتين ، وحالات ظلم وقهر قبل إنهاض هؤلاء العباد وإرسالهم لمعاقبة اليهود .

ونظير ذلك في دلالة مادة (بعث) ما ورد في وصف أصحاب الكهف بعد رقاد طويل، وتكرار هذه المادة في شأنهم كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ [٥] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [٦] ، وقوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ [٧] .

وكذلك يمكننا ملاحظة دلالة أخرى تؤديها مادة (بعث) من خلال السياقات الواردة فيها ، وهي ما توحي به من الدلالة على القوة والنشاط في الإرسال ، ولذلك كان وصف المبعوثين على بني إسرائيل في المرة الآخرة بأنهم عباد أولوا بأس شديد ، وأصحاب الكهف بأنهم فتية ، والرسل بأنهم أصحاب عزم .

٧- جاء وأتى :

١- سورة الإسراء : ٥٤ .
٢- سورة الإسراء : ١٥ .
٣- سورة الإسراء : ٥٩ .
٤- سورة الإسراء : ٥ .
٥- سورة الكهف : ١٢
6 – سورة الكهف : ١٩ .
٢- سورة الكهف : ١٩ .

يشترك هذا اللفظان في دلالة عامة واحدة ، وهي في مقابل الذهاب والمضي ، ويبدو أنّ هذين اللفظين هما الأقرب في إمكان عدهما من الألفاظ المترادفة التي تسمح لنا أنْ نبدل أحدهما بالآخر بكل حرية وسهولة من غير لفت نظر المخاطبين إلا ما تثيره الدلالة الصوتية من خفة أو اعتياد ، أو غير ذلك .

ولكن تنقلات التعبير القرآني بين هذين المادتين يثير فينا أنّ هناك فرقا دلاليا ً، أو فروقا قد تخفى حتى على المختصين في اللغة كقوله تعالى : ﴿ قالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [١] ، وهو من لطيف الاستعمال ، وهذا ما دعاهم إلى محاولة تقصي هذه الفروق ، وما ذلك إلاّ شعور منهم بعدم الإقرار بالترادف التام بين الألفاظ ، ولهذا نجد أنّ الراغب الأصفهاني يحاول التفريق بقوله : ((المجيء أعمّ من الإتيان ، لأنّ الإتيان مجيء بسهولة)) [٢] ، وهذه السهولة التي يدعيها الراغب كما هي حاصلة في تحقق الفعل ، كذلك هي حاصلة في نطقه أيضا ً، ولذلك فإنّ الفعل (جاء) لم يأتِ منه صيغة المضارع ، ولا الأمر في القرآن الكريم ، لثقلهما ، وصعوبتهما في النطق [٣] .

أما الفعل (أتى) فقد جاء بالصيغ الثلاث ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [٤] ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [٥] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [٦] .

بينما ورد الفعل (جاء) في السورة بصيغة الماضي فقط ، كما في قوله تعالى :﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ [٧] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾[٨] .

وهناك فارق دلالي آخر ناشئ من الخصوصية التي يتفرد بها الفعل (جاء) كما قيل ، وذلك لأنّ المجيء إنما يقال باعتبار الحصول والتحقق ، أما الإتيان فهو باعتبار القصد منه والنية في أدائه ، وإنْ لم يتحقق الحصول منه [٩] .

ولكن هذا الرأي فيه نظر ولا دليل عليه وقد يُردّ بتأمل قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [١٠] ، الدال بصيغته الماضية على تحقق الوقوع في المستقبل ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى

---

1 – سورة الأعراف : ١٢٩ .
٤– المفردات: ٢١٢ .
٥– ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٨٠ .
4– سورة الإسراء: ٢ .
٢– سورة الإسراء : ٩٢ .
٣ – سورة هود : ٣٢ .
٤– سورة الإسراء : ٥ .
٥– سورة الإسراء : ٧ .
٦– ينظر : المفردات : ٩٢ .
٧– سورة النحل : ١

الْكِتَابَ ﴾ [١] ، الدال على تحقق الوقوع في الماضي ، ولم يتوفر لدينا نص يدل على مجرد حصول اعتبار القصد والنية في الفعل (أتى) .

وهناك لطيفة أخرى يذكرها الزركشي للفعلين (جاء) و (أتى) في حالة الماضي ، وهي أنّ (جاء) يقال في الجواهر والأعيان ، و(أتى) في المعاني والأزمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [٣] ، ولا يَرد عليه قوله تعالى : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ [٥] ، حيث جعل الأمر آتيا وجائيا ،وذلك لأنه لمّا كان الزرع في الآية الثانية لا يبصر ولا يرى قال (أتاها) بينما قال في الأولى (جاء) لأنّ الإنسان ممّن يرى الأشياء عياناً [٦] .

٨- الفقر والإملاق :

قال تعالى في سورة الإسراء :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [٧] ، وقد ورد في تفسير كلمة (الإملاق) بأنها الفقر والفاقة والعجز عن الإنفاق [٨] ، فهما إذاً كلمتان مترادفتان ، ويبدو أنّ منشأ هذا الترادف هو التفسير بالأوضح والأجلى ، لأنّ دلالة كلمة (إملاق) على معناها غير معروف لكثير من المخاطبين ، فيكون (الفقر) هو الرديف لهذه الكلمة ، ولذلك نجد أنّ النص سارع إلى إرداف كلمة (الإملاق) بكلمة قريبة من مدلولها لتوضيح الدلالة ، وهو قوله تعالى ﴿ نحن نرزقهم﴾ وهي كلمة مرادفة لها بالملازمة .

ولعل ورود هذه الكلمة في هذا السياق دون كلمة (الفقر) هو أنّ الأول يخصّ الفاقة والعجز في الإنفاق ، أما الفقر فهو مفهوم عام يشمل الفقر المادي وغيره ، والإنسان مفتقر بذاته دائما ، فهو يعيش الفقر في وجوده وصفاته وإمكانياته ، ولذلك يقول سبحانه﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [٩] .

1- سورة الإسراء : ٢ .
٩- سورة يوسف : ٧٢ .
١٠- سورة الحجر : ٦٤ .
١- سورة يونس: ٢٤ .
٣-سورة هود : ٥٨ .
٣- ينظر : البرهان : ٨٠ – ٨١
٤- سورة الإسراء : ٣١ .
٥- ينظر : الميزان : ١٣ / ٨٣ .
٦ – سورة فاطر : ١٥ .

ثامناً : دلالة الغريب : -

لا يخفى على المتضلعين في لغة العرب من فصيحها ووحشيها ، أنّ لغة القرآن الكريم خالية من الغريب والمستوحش ، والغريب الحوشي غير المألوف ، الذي يتكدر منه الطبع ، وينفر منه الذوق السليم ، وعلى الرغم من تصرف الوجوه ، وتنوع الأساليب ، وطرافة المفردات ، وتجديد الخطاب ، الذي لم يأت مطابقا تماما لأساليب العرب وإنما أضاف إليها وأرسى قواعدها المتينة ، فما كان غير معهود في لغة العرب ، ولا مستأنسا ، أصبح معهوداً ومستأنساً، وما كان غريباً أصبح مألوفاً، وما كان معرّباً صار عربياً، يقول الباقلاني : ((إنّ نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به)) [1] .

وقد يفهم من ذلك أنّ القرآن الكريم أراد أنْ يؤسس للعرب لغة فصيحة رصينة قادرة على الاستمرار ، والامتداد ، والتعايش ، غير مؤطرة بقواعد جامدة لألفاظها ، وأساليبها ، ودلالاتها المختلفة .

وما يسمى بغريب القرآن هو إحدى هذه الإمكانات الباعثة للنص القرآني ، وهذا الغريب بمعناه العام هو ((المستغرب في التأويل والتفسير))[2] ، وهو ناشئ من التصرفات المختلفة للتراكيب والألفاظ التي تنشأ عنها مستويات دلالية ويكون ذلك أمّا بسبب نقل المعنى ، أو ((صرف المعنى المراد بقرينة ، أو بسبب تعدد الوجوه للفظ الواحد مع تعدد النظائر له ، وهكذا التُمس لغريب القرآن هذه التأويلات المنطقية الملائمة للغة القرآن ولطبيعتها ، وليس كغريب لغة العرب ، فهو (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير))) [3]

وقد تمّ فيما مضى من البحث الإشارة إلى تلك الألفاظ والأساليب التي تشعر بنوع من الغرابة في الاستعمال بسبب تنوع الأساليب على وفق سياقات مختلفة .

١- إعجاز القرآن : ٥٢ .
٢- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٧٣ .
٣- سورة هود دراسة لغوية ودلالية : ٦٥ .

أما في هذا المبحث فسنشير إلى الغرابة الناشئة من الألفاظ التي يظن أنها كلمات غير عربية في الأصل ، ثم عُربّت بعد ذلك ، وخضعت لقواعد وقوانين اللغة العربية ، ثم أصبح استعمالها مألوفا ، وخاصة بعد إجراء صفة الشرعية العربية عليها في القرآن الكريم . وقد يكون ذلك هو المفتاح الأول لأنْ تكون اللغة العربية متمكنة من الاجتذاب والاقتراض من اللغات الأخرى ، وما يحصل اليوم من دخول كلمات غير عربية وانصهارها داخل الإطار العام للغة العربية خير شاهد على إمكان ذلك .

وقد اختلف علماء اللغة في وجود المعرّب في القرآن، الكريم ، فمنهم من أنكر وجوده وذهب إلى عدم وقوع كلمات غير عربية في القرآن ، في حين ذهب كثير من العلماء إلى وجود ألفاظ غير عربية فيه . [١]

بينما رأى فريق ثالث التوفيق بين القولين ، حيث يقول : ((إنّ هذه الأحرف أصولها أعجمية ، لكنها وقعت للعرب فعرّبتها بألسنتها وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها ، فصارت عربية ، واختلطت بكلام العرب ، فهي عربية من جهة ، وأعجمية من جهة أخرى)) [٢] ، وهذا الرأي لا يُعارَض بأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وأنه قرآن عربي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنّ كل ما في القرآن الكريم هو بلسان عربي مبين ، و خاضع لميزانه وقوانينه ، حتى وإنْ كانت هناك بعض الألفاظ ذات الأصول غير العربية ، لكنها تأصلت وأصبحت إرثاً تابعا للغة العرب ، ويمكن أنْ يعد وضعاً جديدا لهذه الألفاظ ، وهذا من مميزات اللغة العربية الحية القادرة على الوضع المتجدد للمعاني والأشياء الحادثة.

وممّا وقع في القرآن الكريم من هذه الكلمات التي يمكن أنْ تعد من الغريب المعرّب ، لفظ (سجّيل) ، فقد ورد أنها بالفارسية، أولها حجارة وآخرها طين [٣] ، وكذلك لفظ (الصراط) ، فقد ورد أنه ((الطريق بلغة الروم)) [٤] ، و (جهنّم) ، حيث قال الراغب الأصفهاني : ((جهنم اسم لنار الله الموقدة ، وقيل : أصلها فارسي معرّب وهو جهنام)) [٥] ، وهناك ألفاظ أخرى مثل ، أكواب ، اليَم ، موسى . وفي سورة الإسراء ورد لفظان يمكن عدهما من الألفاظ المعرّبة كما قيل في كتب التفسير :

الأول : لفظ (جهنّم) الذي ورد أربع مرات في السورة ، وقد مر ذكره ودلالته في مبحث الترادف .

١-. ينظر : الإتقان : ٢ / ١٠٤ وما بعدها .
٢- الإتقان : ٢ / ١٠٧ .
٣- الإتقان : ٢ / ١٣٤ .
٤- ينظر : المصدر نفسه .
٥- المفردات : ٢١٩ .

الثاني : كلمة (القسطاس) ، الواردة في قوله تعالى :

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [١] ، ومعناه : الميزان ، وقد قيل: إنها كلمة رومية [٢] ، وفيه لغتان : القِسطاس ، والقُسطاس ، بالكسر والضم ، مثل: القِرطاس ، والقُرطاس، وقرئ باللغتين جميعا [٣] .

وعن الزّجاج : انه الميزان ، صغُر أو كبُر ، وقيل : إنه القبّان ، وقيل: (هو العدل) بالرومية [٤].

وقيل: إنه عربي ، وقيل: إنه مركب في الأصل ، من (القسط) وهو العدل ، و (طاس) ، وهو كفة الميزان . [٥]

ويبدو من كثرة الآراء حول أصل هذه الكلمة ، وجهل علماء اللغة بها كما رأينا فإنّ أقوالهم ليست بجازمة ، وغير صريحة ، أنها استعمال قرآني جديد للتعبير عن الدقة المتناهية في الوزن ، وهي كلمة بديلة في هذا السياق عن كلمة (الميزان) المرادفة لها في دلالتها الأساسية .

ولعل الإعراض عن كلمة (الميزان) ، في هذا السياق ، واستعمال هذه الكلمة ذات الجرس الموسيقي القارع ، للدلالة على المبالغة في استقصاء الدقة في الوزن ، وهذه الدلالة يمكن الإحساس بها من خلال أمور ثلاثة :

الأول : هو ذلك الإيحاء الصوتي المميز الذي اشرنا إليه .

الثاني : تركيب الكلمة على ما توحي به مقاطعها ، حيث قيل: إنها مؤلفة من كلمة (القسط) الدالة على العدل ، و (طاس) الذي هو كفة الميزان المعبرتعبيرا حسيّا عن صحة الوزن وتحقق العدل فيه .

الثالث : غرابة الكلمة في ذاتها ، المُشعِرة بالمبالغة ، والهيبة ، لذلك الميزان المتناهي في الدقة ، وهذه الغرابة التي سرعان ما تتحول إلى أحسن ما يكون من الإلفة في سياق لا يمكن أنْ يكون فيه إبهام أو إيهام ، وهو قوله تعالى : ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [٦] ، حيث تتلاشى تلك الغرابة بالفعل (زنوا) الذي تعلقت به كلمة (القسطاس) ، هذه العلاقة التي تبين أنّ القسطاس هو آلة الوزن ، ومِن ثمّ وصفه بعد ذلك بالاستقامة الدالة دلالة واضحة على أنّ هذا الميزان يجب أنْ يكون في غاية الدقة والإتقان والعدل ، ذلك هو ميزان الحق الذي جعله الله تعالى لعباده ، وذلك هو ميزان الله تعالى الذي هو أساس الملك والقدرة والسلطان ، حيث يقول تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمِ﴾ .

والحمد لله ربّ العالمين ، وصلّى الله على نبيّنا محمد وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

١- سورة الإسراء : ٣٥ .
٢- ينظر : تحفة الاديب بما في القرآن من الغريب : ٢٢٦ ، وتفسير غريب القرآن : ٢٥٤ .
٣- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٨٤ . وتفسير غريب القرآن :المصدر نفسه.
٤- ينظر : مجمع البيان : ٦ / ٢٥٨ .
٥- ينظر : الميزان : ١٣ / ٨٩ .
١- سورة الإسراء : ٣٥ .

الخاتمة

وبعد خوض غمار هذه المعاني والدلالات المختلفة في سورة الإسراء ، نستطيع الآن أنْ نلخصّ النتائج التي توصّل إليها البحث ضمن النقاط الآتية :

١ـ تعرّض البحث إلى فكرة المعاني الثانية بصورة عامة وتأصيلها في النص القرآني ـ وفي ضوء ذلك تمت دراسة هذه السورة المباركة ـ حيث ثبت أنْ للنص القرآني مستويين من التعبير: مستوىً ظاهر يشترك في فهمه الخاص والعام ، ومستوى باطن يمثل المعاني الثانية التي يصعب حصرها . وقد حاول البحث الربط والتوفيق بين بطون القرآن كما ورد في الأحاديث الشريفة ، وبين تلك المعاني على وفق عدة احتمالات .

٢ـ تبيّن أنّ هذا النوع من الدراسات البيانية ، التي تعتمد الشروط الموضوعية لدراسة النص القرآني ، مع إعمال الرأي ، وبذل الجهد ضمن نطاق الأدلة ، ليس من التفسير بالرأي المحظور شرعاً ، وأنّ فائدتها تكمن في معاضدة التفسير بالمأثور ، والكشف عن النكات والأسرار البيانية ، ومحاولة سدّ الثغرات التي تركها التفسير بالمأثور ، من خلال طرح الوجوه المحتملة للمعنى المراد من دون الجزم به .

٣ـ سورة الإسراء أو (بني إسرائيل) من السور المكية ذات الطول المتوسط نسبياً ، ارتبط نزولها بحادثة الإسراء والمعراج ، المعجزة الكبرى الثانية للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد تميّزت في إطارها العام بالجو الموسيقي السيال ، على الرغم من الطول النسبي في آياتها ، وبسط الفكرة ، وتنوع الموضوعات ، وقد كان للتناسب بين الجمل القصيرة في الآية الواحدة ، مضافاً إلى السجع دورٌ في إشاعة هذه الموسيقى داخل النص .

٤ـ تميّزت هذه السورة أيضاً بكثرة الموضوعات ، وتنوعها ، مابين العقيدة، والسلوك الفردي والجماعي ، والعبر والسنن الإلهية والمعاجز ، وقد أحصى البحث من هذه الموضوعات خمسة عشر موضوعاً ، كان أبرزها معجزة الإسراء والمعراج ، والتنبؤ بأحداث تاريخ الأمة اليهودية وأهدافها وإفسادها في العالم ومصيرهم المخزي المحتوم ،
وكذلك بيان بعض السنن الإلهية التي تحكم العلاقة بين الخالق وبين مصير الإنسان أفراداً وجماعات ، ولكن على الرغم من شتات هذه الموضوعات التي قد تبدو كذلك ، إلاّ إنها ترتبط برباط عضوي ، يؤلف الوحدة الموضوعية في هذه السورة ، وهي تنزيه الله سبحان وتوحيده ، وانحطاط الإنسان وتعنته وميله ونزوعه إلى الشرك وإتباع الهوى، ولطف الله تعالى به في إثارة عقله وهدايته وإنقاذه من براثن الطواغيت إلى ساحة الأمن الإلهي والحياة السعيدة .

٥ـ على الرغم من أصالة الجملة الخبرية وأهميتها في بناء النص ، إلاّ أننا وجدنا في هذه السورة تناوباً دلالياً مكثفاً بين الخبر والإنشاء ، فالسورة ليست ذات نفَس واحد ؛ لأنها لا تتحدث عن قصة واحدة ، أو حادثة معينه ، ممّا جعل السورة مثيرة ، وباعثة على التفاعل مع النص ، بحيث يشعر المتلقي أنه جزءٌ منه ومعنيٌّ بخطابه .

٦- إنّ الأخبار الواردة في القرآن الكريم ، وفي سورة الإسراء بشكل خاص ، غرضها الأساس هو فائدة الخبر ، وأمّا لازم الفائدة فوروده يكاد يكون منحصراً في خطابات المتكلمين من البشر ، وإنْ جاء ما يفيد ذلك في المحاورات المنقولة فهو يفيد لازم الفائدة بين المتحاورين أنفسهم ، أمّا بالنسبة للمخاطبين بالقرآن الكريم فهو ليس كذلك .

٧- إنّ مَنْ يتتبع أخبار هذه السورة وإنشاءاتها سوف يلمس بما أثرناه ، أهمية وآثار المعاني الثانية في توجيه سلوك الإنسان ، وانتفاعه من لوازم هذه الأخبار والإنشاءات التي تفهم من السياق والقرائن ، مع انحفاظ قيمة الخبر الأساسية ؛ ولذلك رصد البحث كثيراً من هذه المعاني الثانية للأخبار، وكذلك صور الإنشاء التي من أهمها ، الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، حيث وظفت في سياقات لا يقوم الخبر مقامها ، محدِثاً بذلك إثاراتٍ مناسبة عند المتلقي تجعله أكثر عناية وأقرب صلة بالخطاب .

٨- رصد البحث كثيراً من المعاني الثانية في سورة الإسراء ، عن طريق الأساليب والفنون القولية الواردة فيها ، كالالتفات ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والإطلاق والتقييد ، والحذف ، والتنكير .

٩- تبيّن من خلال البحث أنّ المجاز العقلي ليس من الأساليب البيانية الأساسية في القرآن الكريم قياساً إلى الأساليب الأخرى ، كالتشبيه والاستعارة ، والمجاز المرسل ، والكنايات المختلفة ، ومن خلال النماذج التي عرضها البحث في السورة ، انكشف لدينا أنّ أغلب صور ذلك المجاز هو ممّا سميناه بالمجاز النائم أو المهمل الذي لا يثير استعماله اهتمام المخاطب ؛ للألفة الحاصلة ، أو مّما يمكن حمله على الحقيقة ، وذلك بتوسيع دلالة الألفاظ الوضعية وإعطائها صفة المفاهيم الكلية .

١٠- أسهم المجاز المرسل في السورة بعلاقاته المختلفة في إعطاء قيمة جمالية للنص تمثلت في تسليط الضوء على الجوانب المركزية للصورة التي يرسمها التعبير القرآني ، من خلال ملاحظة إحدى هذه العلاقات التي تربط بين المعاني ، دون التفريط بالمعنى الأصلي للتعبير ، كما رأينا ذلك في قوله تعالى ((إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً)) ،
وقوله تعالى ((وأجلب عليهم بخيلك ورجِلك)) . وغير ذلك .

١١- سورة الإسراء من السور التي توشحت وتزينت بفن الاستعارة ، حيث أكسبتها مسحة جمالية في الأسلوب ، وطرافة في التعبير من خلال تجسيد المعاني الذهنية ، والحقائق الغيبية بقوالب محسوسة

ومؤثرة تبعث المتلقي على التفاعل ، تأملاً وتفكراً ، بما لها من قوة الإيحاء في الترغيب والترهيب ، وممّا جاء فيها من الصور المؤثرة الرائعة ، قوله تعالى :((لأحتنكن ذريته إلاّ قليلاً)) .

١٢ـ أوضح البحث أنّ المعاني الكنائية ليست من المجاز المحض ، وإنما تقع وسطاً بين الحقيقة والمجاز ، فهي تشترك معه في جهة ، وتفترق في جهة أخرى ، والأقرب أنها استعمال حقيقي غير مقصود لذاته ، بل أريد به الدلالة والانتقال إلى معنى آخر ، كدلالة كثرة الرماد على الكرم .

١٣ ـ وجدنا من خلال سورة الإسراء أنّ القرآن الكريم وظّف كثيراً من المعاني الكنائية ، كالرمز ، والإشارة ، والإيماء ، والتعريض ، في إبراز المعاني وتشخيصها وتفخيمها وإظهارها بصورة مؤثرة عن طريق الكشف عن ملازمات خفية بين المعاني المختلفة ، ولأغراض مختلفة ، منها : التنزه عن الألفاظ الفاحشة ، وتهويل المعاني وتجسيمها ، والتعمية على المخاطبين الذين يُخشى منهم على القرآن والإسلام والسعي إلى تحريفه ، والتعبير عن المعاني المجردة والغيبيّة التي لا يمكن إيصالها بالألفاظ والصور المباشرة ، وغير ذلك من المقاصد المختلفة في القرآن الكريم .

١٤ ـ كشف البحث عن آثار الدلالة الصوتية في النص ، سواء المطردة منها ، وهي الناشئة من بنية الكلمة ، أم الدلالة فوق التركيبة المتمثلة بالتنغيم الذي كان شائعاً في النص ، حيث أسهم مع معطيات أخرى في تعيين الدلالة ، كما رأينا ذلك مثلاً في قوله تعالى : ((أفأ صفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً)) ، إذ يؤدي التنغيم هنا دور الفصل والوصل بين الجمل الثلاث في هذه الآية الكريمة .

١٥ ـ أبرز البحث دور الدلالة الصرفية في تقلبات المعاني وتصرفات الوجوه في النص ، وهو مّا أتاح للمفسرين مساحة واسعة في إبداء الرأي في معانيه المحتملة ، مستفيدين من هذه التصرفات التي وفرها هذا النوع من الدلالة ، كما نجد ذلك في قوله تعالى مثلاً : ((ولا تمش في الأرض مرَحا)) .

١٦ ـ كشف البحث عن حالة التناوب في التعبير في الآية الواحدة ، أو الآيات المختلفة ، بين الجمل الاسمية التي تدل على الثبوت ، وبين الجمل الفعلية التي تدل على التجدد والحدوث ، وهذا التناوب ساعد على إمكان تصنيف المعاني تبعاً للإطار الذي ترد فيه الجملة ، فنلاحظ أن التعبير عن القوانين والحقائق والصفات الثابتة وما يجري مجراها يكون إطار الجملة الاسمية ، وأنّ التعبير عن المعاني

المتحركة ، والصفات المتغيرة والمتجددة يتم في إطار الجملة الفعلية ، كما نلمس ذلك واضحاً في قوله تعالى : ((إنّ ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً)) .

١٧ ـ أثار البحث بعض المعاني الدلالية الناشئة من دلالة بعض الألفاظ المعجمية ، أو الاجتماعية ، إذ إنّ لكل كلمة معنى معجمياً يمثل المعنى الأساسي لتلك الكلمة ، ويرتبط بهذا المعنى معانٍ إضافية تجلّي بعض الحقائق العضوية والنفسية والاجتماعية ، كما تبرز بعض الصفات التي ترتبط في أذهان الناس بالكلمة ، ومن هذه الألفاظ ذات البعد الاجتماعي والنفسي الواردة في السورة التي توقف عندها البحث : أفٍّ ، الجوس ، دلوك الشمس ، غسق الليل ، وغيرها من الألفاظ التي أثارت دلالتها اللفظية معاني وأحكاماً إضافية زائدة عن معناها المعجمي المحدّد .

١٨ ـ استفاد البحث من دلالة مفاهيم بعض التراكيب في إثارة بعض المعاني الدلالية في النص ، ودفع بعض الشبهات التي أثيرت فيه ، ومن ذلك مفهوم الجملة الشرطية ، والوصف ، والغاية ، حيث تدل هذه التراكيب بالدلالة الالتزامية على مفهوم المخالفة ، أي: الانتفاء عند الانتفاء على وفق ضوابط معينة ، وقد تبين أنه ليس جميع هذه التراكيب تدل على المفهوم ، وإنما قد تتخلّف إذا كانت هناك قرائن صارفة عن تحققه .

١٩ ـ إنّ المعيار الصحيح لمعرفة المشترك اللفظي ، هو عندما يعبّر اللفظ الواحد عن معنيين متباينين كلّ التباين ، وعلى ذلك فإنّ ما وقع من المشترك اللفظي في القرآن الكريم قليل جداً ؛ لأنّ الأغلب فيه ممّا تلحظ فيه الصلة المجازية . وقد أوردنا في ثنايا البحث مجموعة من الكلمات التي تتصرف إلى وجوه عدّه أغنت النص بمزيد من المعاني الدلالية ، من قبيل الكلمات : قضى ، وجعل ، وظنّ ، وغير ذلك . وقد اتضح أنّ القيمة الدلالية التي يؤديها المشترك اللفظي هو إضفاء خصوصية زائدة تسري من أصل معناه إلى كل وجه من الوجوه التي يتصرف إليها .

٢٠ ـ اتضح من خلال البحث أنْ لا وجود للترادف التام في القرآن الكريم ، وإلاّ سيكون الوضع أشبه باللغو ، وإنْ كان ممكناً في ذاته ، وقد كان استعمال القرآن الكريم دقيقاً وملحوظاً للكلمات التي قد تبدو مترادفة ، لما فيها من معان وفروق دلالية دقيقة متناسقة مع السياقات الواردة فيها ، وهي أمّا أن تكون متشابهة ومتداخلة ، أو متقاربة دلالياً ، أو مفسّرة ، وقد لمسنا ذلك جلياً في كثير من الكلمات التي

وردت في السورة ، من مثل : الزخرف والذهب ، والنار وجهنم ، والتتبير والإهلاك ، وغير ذلك ممّا يلحظ فيها المغايرة الدلالية في الوضع والاستعمال .

القرآن الكريم .

١- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ، (ت٩١١ هـ) ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط٤ ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م .

٢- أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن التشريعية ، عبد القادر عبد الرحمن ألسعيدي ، مطبعة الخلود ، بغداد ،ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

٣- أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري ، دار ومطابع الشعب ، القاهرة ، (د.ت) .

٤- أساليب البيان في القرآن ، السيد جعفر الحسيني ، مؤسسة الطباعة والنشر ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ، طهران ، (د . ت) .

٥- أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، تصحيح وتعليق : السيد محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٠م .

٦- الأصوات العربية ، كمال محمد بشر ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٧ م.

٧- أصول البيان العربي ، رؤية بلاغية معاصرة ، د. محمد حسين الصغير ، طبُع في دار الشؤون الثقافية العامة ، (د. ت) .

٨- أصول الفقه ، الشيخ محمد رضا المظفر ، المطبعة : مؤسسة إسماعيليان ، ط١٠ ، ١٤٢١ هـ .

٩- أصول الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني ، (ت ٣٢٨ هـ) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٠-إعجاز القرآن ، الباقلاني ، تحقيق : السيد احمد الصقر ، دار المعارف ، مصر ، (د .ت) .

١١-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، ط ٩ ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

١٢-الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر مكارم الشيرازي ، الأمير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

١٣-الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي ، تحقيق : د. مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

١٤-الإيضاح في علوم البلاغة ، المعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني ، منشورات مكتبة النهضة ، (د. ت) .

١٥- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، محمد باقر المجلسي ، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية ، إيران ، قم المقدسة ، (د.ت) .

١٦-البحث البلاغي عند العرب ، د. احمد مطلوب ، الموسوعة الصغيرة ، ١١٦ ، منشورات دار الجاحظ للنشر ، بغداد ، ١٩٨٢ م .

١٧- البحث الدلالي في تفسير الميزان ، دراسة في تحليل النص ، د. مشكور كاظم العوادي ، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م .

١٨- البحث النحوي عند الأصوليين . د. مصطفى جمال الدين ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٠ م .

١٩-البرهان في تفسير القرآن ،السيد هاشم الحسيني البحراني ، (ت١١٠٧) ، قسم الدراسات الإسلامية ، مؤسسة البعثة ، ط١ ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩م .

٢٠-البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط١ ، ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٧٥م .

٢١-بلاغة الخطابة وعلم النص ، د. صلاح فضل ،عالم المعرفة ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٦٤ ، صفر ١٤١٣ هـ ـ اغطس ١٩٩٢م .

٢٢-البلاغة والتطبيق ، د. احمد مطلوب ، ود. كامل حسن البصير ، طبع : وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٢ م.

٢٣-البيان في تفسير القرآن ، السيد أبو القاسم الخوئي ، مطبعة العمال المركزية ، بغداد ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م .

٢٤-البيان والتبين ، أبو عمر عثمان بن بحر الجاحظ ، (٢٥٥هـ) ، وضع حواشيه : موفق شهاب الدين ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م .

٢٥-تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، (ت٢٧٦هـ) ، شرحه ونشره : السيد احمد صقر ، دار التراث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٢٦-تاج العروس من جواهر القاموس ، محب الدين أبو الفيض السيد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي ، دراسة وتحقيق : علي سيري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٧-تاريخ الطبري / تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، (ت٣١٠ هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، لبنان ، (د . ت) .

٢٨-تحفة الأريب بما في القرآن من غريب ، أثير الدين أبو حيان الأندلسي ، (ت٧٤٥هـ) ، تحقيق : د. احمد مطلوب وخديجة الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد ، (د. ت) .

٢٩-ترتيب إصلاح المنطق ، ابن السكّيت ، رتبه وقدم له وعلّق عليه : الشيخ محمد حسن بكائي ، الطبع : مؤسسة الطبع والنشر في الأستانة الرضوية المقدسة ، ط١ ، ١٤١٢هـ .

٣٠-التصور اللغوي عند اللغويين ، د. أحمد عبد الغفار ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م .

٣١-التصوير البياني ، دراسة تحليلية لمسائل البيان ، د. محمد أبو موسى، الناشر : مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٤ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م .

٣٢-تطور البحث الدلالي ، دراسة نقدية في النقد البلاغي واللغوي ، د. محمد حسين علي الصغير ، منشورات دار الكتب العلمّية ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٣٣- تفسير البغوي المسمّى : معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ، (ت ٥١٦هـ) ، إعداد وتحقيق : خالد عبد الرحمن العك ومردان سوار ، دار المعرفة ، ط١ ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٤-تفسير البيضاوي المسمّى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله البيضاوي ، دار الكتب العالميّة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م.

٣٥-تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي ، (ت ٤٦٠ هـ) ، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي ، دار الأندلس للطبع والنشر ، (د.ت) .

٣٦-تفسير جوامع الجامع ، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، من أعلام القرن السادس الهجري ، تحقيق : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ (قم) المشرّفة ، ط٢ ، ١٤٢٢هـ .

٣٧- تفسير سورة الإسراء ،د. عبد الله محمود شحاتة ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥.

٣٨- تفسير العياشي ، أبو النصر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي ، تصحيح وتعليق : العلامة السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م .

٣٩- تفسير غريب القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق : احمد صقر ، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٤٠- تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، (ت ٧٧٤ هـ) ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٤١- تفسير القمّي ، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي ، من أعلام القرن الثالث الهجري ، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، إشراف : لجنة التحقيق والتصحيح في المؤسسة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م .

٤٢- التفسير الكبير ، الفخر الرازي ، الناشر : دار الكتب العلمية ، ط٢ ، طهران ، (د.ت) .

٤٣- التفسير الكاشف ، محمد جواد مغنية ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط٤ ، ١٩٩٠م.

٤٤- تفسير الكاشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، (٥٣٨ هـ) ، رتبه وضبطه وصححه : محمد بن عبد السلام شاهين ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمّية ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٤٥- التفسير والمفسرون في العصر الحديث ، عبد القادر محمد صالح ، قدم له : د. محمد صالح الآلوسي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٤٦ – تقريب النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) ، تحقيق وتقديم : إبراهيم عطوة عوض ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .

٤٧ – التعريفات ، الشريف الجرجاني ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي ، (٨١٦هـ) ، دار الشؤون الثقافية العامّة ، بغداد ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨١م .

٤٨ – التقديم والتأخير في القرآن ، حميد أحمد عيسى ، دار الشؤون الثقافية العامّة ، بغداد ، ط١، ١٩٩٦م.

٤٩ – تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٥٠- ثواب الأعمال ، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي المعروف بالصدوق ، (ت ٣٨١هـ) ، صححه وعلق عليه : علي أكبر الغفاري ، مكتبة الصدوق ، طهران ، ١٣٩١هـ .

٥١- الجنى الداني في حروف المعاني ، حسن بن قاسم المرادي ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمّية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

٥٢- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، إشراف : صدقي محمد جميل ، مؤسسة الصادق (عليه السلام) للطباعة والنشر ، ط٢.

٥٣ – الحجة في القراءات السبع ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالوية تحقيق : احمد مزيد المزيدي ، قدم له : د. فتحي حجازي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٥٤- الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ، ط٤ ، ١٩٩٠م .

٥٥- دراسة فنية في صور القرآن ، د. محمود البستاني ، مؤسسة الطبع التابعة للآستانة الرضوية المقدسة، إيران ، مشهد ، ١٤٢١هـ .

٥٦- دراسة المعنى عند الأصوليين ، د. طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعة للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٥٧- الدر المنثور في التفسير المأثور ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، (ت٩١١هـ) ، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .

٥٨- دروس في علم الأصول ، الحلقة الأولى ، السيد محمد باقر الصدر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٩٧٨م.

٥٩- دروس في علم الأصول ، الحلقة الثالثة ، السيد محمد باقر الصدر ، تحقيق وتعليق : السيد علي حسن مطر ، المطبعة ، تارة ، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٦٠- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، (ت٤٧١هـ) ، تعليق وشرح : محمد عبد المنعم الخفاجي ، الناشر : مكتبة القاهرة ، ط١، ١٩٦٩م – ١٣٨٩هـ .

٦١- دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس ، الناشر : مكتبة الانجلو ـ المصرية ، (د.ت) .

٦٢- الدلالات القرآنية ، د. فاضل المالكي ، الموسوعة القرآنية /٢ ، مؤسسة دار البحوث للدراسات الإسلامية ، ١٤٢٤هـ .

٦٣- الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى (دراسة لغوية)، د. حامد كاظم عباس ، ط١، بغداد، ٢٠٠٤م.

٦٤- الدلالة اللغوية عند العرب ، د.عبد الكريم مجاهد ، دار الضياء ، ١٩٨٥م .

٦٥- ديوان بشار بن برد ، قدم له شرحه : الدكتور صلاح الدين الهواري ، منشورات ومكتبة الهلال ، الطبعة الأخيرة ، بيروت ، ١٩٩٧م .

٦٦- ديوان جرير ، شرحه وضبطه نصوصه وقدم له : د. عمر فاروق الطباع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٦٧- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، شرحه وضبطه نصوصه وقدم له : د. عمر فاروق الطباع ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، (د.ت).

٦٨- ديوان الحماسة ، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، شرح التبريزي ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، (د. ت) .

٦٩- ديوان ذي الرمة ، قدم وشرح له : أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٧٠- ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرح أبي الحجاج يوسف بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري ، المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد ، بشارع محمد علي بمصر ، (د. ت) .

٧١- ديوان العجاج ، قدم له وحققه : الدكتور سعدي ضنّاوي ، دار صادر ، ط١، بيروت ، ١٩٩٧م .

٧٢- ديوان عمر بن معد يكرب الزبيدي ، صنعه : هاشم الطعان ، وزارة الثقافة والاعلام ، مديرية الثقافة العامة ، (د.ت) .

٧٣- الذريعة إلى أصول الشريعة ، الشريف المرتضى ، تحقيق : أبو القاسم كرجي ، مطبعة : عقد دانكشاه ، طهران ، ١٣٤٨هـ .

٧٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ) ضبطه وصححه : علي عبد الباري عطية ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط٢ ، ٢٠٠٥م ، ١٤٢٦هـ .

٧٥- شذى العرف في فن الصرف ، الأستاذ احمد الحملاوي ، ط٢، مؤسسة أنوار الهدى للطباعة والنشر ، مطبعة مهران ، إيران ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٧٦- شرح ابن عقيل ، بهاد الدين عبد الله بن عقيل المصري ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل لمحمد محي الدين عبد الحميد ، انتشارات ناصر خسرو ، ١٤٢٤هـ .

٧٧- شرح المفصل ، يعيش بن علي بن يعيش النحوي ، طبعة ميرقم ، ناصر خسرو ، (د. ت) .

٧٨- شعر زهير بن أبي سلمى ، صنعة الأعلم الشنتمري ، تحقيق : الدكتور فخر الدين قباوة ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ٢٠٠٢م.

٧٩- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهم ، أبو الحسن أحمد بن فارس ، حققه وقدم له : مصطفى الشويمي ، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٣م ، ١٣٨٢هـ .

٨٠- الصحاح في اللغة ، العلامة الجوهري ، تقديم : عبد الله العلايلي ، دار الحضارة العربية ،بيروت ، (د.ت) .

٨١- صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، تخريج وضبط وتنسيق الحواشي : صدقي جميل العطار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١، ١٤٢١هـ - ١٩٨٩م.

٨٢- العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث ، د. محمد حماسة عبد اللطيف ، جامعة الكويت ، ١٩٨٤م.

٨٣- علم الدلالة ، بالمر ، ترجمة : مجيد الماشطة ، منشورات الجامعة المستنصرية ، بغداد ، ١٩٨٥م .

٨٤- علم الدلالة السلوكي ، لاينز ، ترجمة : مجيد الماشطة ، دار الشؤون الثقافية ، سلسلة الموسوعة الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٦م .

٨٥- علم الدلالة العربي ـ النظرية والتطبيق ، د. فايز الداية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٧٣ م .

٨٦- علم المعاني ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦ م .

٨٧- فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات ، نور الدين بن نعمة الله الحسيني الموسوي الجزائري ، حققه وشرحه : الدكتور محمد غضبان الداية ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، ط٣، ١٤١٥هـ .

٨٨- الفصل والوصل في القرآن الكريم – دراسة الأسلوب- ، د. منير سلطان ، نشر : منشأة المعارف الإسلامية في الإسكندرية ، جلال حربي وشركاؤه ، ١٩٧٩ م.

٨٩- الفعل زمانه وأبنيته ، د. إبراهيم السامرائي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .٨٧- فقه اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي ، ملتزم الطبع والنشر : دار النهضة ، مصر ،مطبعة نهضة مصر بالفجالة ،ط٦ ،(د . ت) .

٩٠- في البحث الصوتي عند العرب ،د. خليل إبراهيم العطية ، منشورات دار الجاحظ للنشر ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ،١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٩١- في ظلال القرآن ،سيد قطب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٥ ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

٩٢- في النحو العربي قواعد وتطبيق ، د. مهدي المخزومي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط١ ، ١٩٦٦ م .

٩٣- في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٤ م .

٩٤- القاموس المحيط ، محب الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٣ه – ١٩٨٣م .

٩٥- الكامل في التأريخ ، محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠ هـ) ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٩٦- كتاب سيبويه ، أبو بشر عمرو الملقب بسيبويه ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧ م.

٩٧- كتاب الصناعتين – الكتابة الشعر ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن هلال سهل العسكري (ت ٣٩٥هـ) حققه وضبط نصه : د. مفيد قبيحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

٩٨- كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي محمد علي الفاروقي المتوفي في القرن الثاني عشر الهجري ، تحقيق : د. لطفي عبد البديع ، مراجعة أمين الخولي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

٩٩- الكشف والبيان في تفسير القرآن المعروف بـ (تفسير الثعلبي) ، أبو إسحاق احمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ) ، تحقيق : سيد كسروي حسن ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، (د . ت) .

١٠٠- كفاية الأصول ، المحقق محمد كاظم الخراساني ، مع حواشي المحقق الميرزا أبي الحسن المشكيني ، تحقيق : سامي الخفاجي ، منشورات دار الحكمة ، قم ، إيران ، ط٢ ، ١٤٢١هـ .

١٠١- الكلمة دراسة لغوية ومعجمية ، د. حلمي خليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م.

١٠٢- لسان العرب ، ابن منظور ، (ت ٧١١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٢، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

١٠٣- لغة القرآن الكريم ، د. عبد الجليل عبد الرحيم ، مكتبة الرسالة الحديثة ، الأردن ، الزرقاء ، ط١ ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

١٠٤- اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، نشر وتوزيع وطباعة : عالم الكتب ، ط٤ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م.

١٠٥- مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة والعشرون ، ٢٠٠٥م .

١٠٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، د. ضياء الدين نصر الله ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري (ت ٦٣٧هـ) حققه وعلق عليه ، الشيخ كامل محمد محمد عويضة ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م .

١٠٧- مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، عارضه وعق بأصوله وعلق عليه : د. محمد فؤاد سركين ، مكتبة الخناجي ، دار الفكر ، ط٢، ١٣٩٠هـ -١٩٧٠م .

١٠٨- مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية ، د. محمد حسين علي الصغير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، بغداد ، ١٩٩٤م .

١٠٩- محاضرات في علوم القرآن ، أبو الفضل بن الحسن الطبرسي ، (٥٤٨هـ) مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

١١٠- مجمع البحرين ، العالم المحدث الفقيه فخر الدين الطريحي ، (ت ١٠٨٥هـ) ، تحقيق : السيد أحمد الحسيني ، عنيت بنشره : المكتبة المرتضوية لإحياء تراث الجعفرية (د.ت) .

١١١- محيط المحيط ، بطرس البستاني ، مكتبة لبنان ، بيروت ، طبع مؤسسة جواد للطباعة ، ١٩٨٣م.

١١٢- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ضبطه وصححه ووضع حواشيه : فؤاد علي منصور ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

١١٣- مسائل فقهية ، عبد الحسين شرف الدين الموسوي ، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر ، إيران ، قم ، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .

١١٤- المفردات في غريب القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) ، تحقيق وضبط : محمد سيد كيلاني ، عنت بنشره المكتبة المرتضوية ، طهران ، بين الحرمين ، (د.ت) .

١١٥- المفصل في صناعة الأعراب ، جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه ، د. أميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

١١٦- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ) حققه وقدم له وفهرسه : د. عبد الحميد هنداوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١١٧- معاني الأخبار ، الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ) ، عني بتصحيحه : علي أكبر الغفاري ، الناشر : انتشارات إسلامي ، إيران ، ١٣٧٩هـ .

١١٨- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، د. فتحي أحمد عامر ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، مطبعة أطلس ، القاهرة ، (د.ت) .

١١٩- المعاني في ضوء أساليب القرآن ، عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف بمصر ، ط٣ ، ١٩٧٧م.

١٢٠- معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ) ، عالم الكتب ، بيروت ،ط٢، ١٩٨٠م.

١٢١- المعتمد في أصول الفقه ، أبو الحسن محمد بن علي البصري المعتزلي (ت٤٣٦هـ) تحقيق : محمد حميد خلف الله بتعاون محمد بكر وحسن حنفي ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٢٢- معجم المصطلحات الأصولية ، محمد الحسيني ، مؤسسة المعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

١٢٣- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن احمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، مكتب الإعلام الإسلامي ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، ١٤٠٤هـ .

١٢٤- معيار العلم في فن المنطق ، الغزالي أبو حامد محمد بن محمد ، المطبعة العربية مصر ، ط٢ ، ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م .

١٢٥- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن احمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري (ت٧٦١هـ) ، شرح آياته وعلق عليه : أبو عبد الله علي عاشور الجنوبي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان ، ط١ ،١٤٢١هـ -٢٠٠١م .

١٢٦- مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٧٩م.

١٢٧- من بلاغة القرآن ، د. احمد احمد بدوي ، مكتبة النهضة ، مصر ، القاهرة ، ط٣، ١٩٥٠م.

١٢٨- منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل ، عباس القمي ، ترجمة : نادر النقي ، المطبعة : سرور ، الناشر : مؤسسة المحبين للطباعة والنشر ، إيران ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

١٢٩- المنطق ، الشيخ محمد رضا المظفر ، مطبعة النعمان ، النجف ، ط٣ ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

١٣٠- المنهج البنائي في التفسير ، محمود البستاني ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م .

١٣١- من هدى القرآن ، السيد محمد تقي المدرسي ، الناشر : مكتبة السيد المدرسي ، ط١ ، ١٤٠٦هـ .

١٣٢- الميزان في تفسير القرآن ، السيد محمد حسين الطباطبائي ، مؤسسة الأمام المنتظر (ع) ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

١٣٣- نحو التيسير ، دراسة ونقد منهجي ، د. احمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٣٤- نحو القرآن ، د . احمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٤م .

١٣٥- نحو المعاني ، د . احمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٣٦- النحو الوافي ، عباس حسن ، ط٢، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٦م.

١٣٧- نصوص محققة في اللغة والنحو ، تحقيق : أ . د حاتم صالح الضامن ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، (د . ت) .

١٣٨- نور الثقلين ، عبد علي بن جمعه العروسي الحويزي ، (ت ١١١٢هـ) صححه وعلق عليه : السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، دار التفسير ، قم المقدسة ، ط٢ ، ١٣٢٦هـ .

١٣٩- نهاية الأصول ، حسين علي المنتظري ، تقرير عن بحث المرحوم آية الله البروجردي ، الدار الإسلامية ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

١٤٠- نهج البلاغة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، شرح الشيخ محمد عبده منشورات مكتبة النهضة بغداد ، مطبعة بابل ، بغداد ، (د. ت) .

١٤١- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، هارون بن موسى ، تحقيق : د. حاتم صالح الضامن ، دار الحرية الطباعة – بغداد ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١٤٢- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة ، محمد بن الحسن بن علي بن الحسين الحر العاملي(ت١١٠٤هـ) قدم له: آية الله العظمى السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ، منشورات دار الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م .

الرسائل الجامعية :

١٤٣- البحث الدلالي في تفسير مجمع البيان للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) ، أطروحة دكتوراه ، خليل خلف بشير العامري ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
١٤٤- سورة هود (عليه السلام) دراسة لغوية ودلالية ، أطروحة دكتوراه ، عبد الكريم ناصر محمود الخزرجي ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .
١٤٥- النظم القرآني في سورة (ق) دراسة تحليلية ، رسالة ماجستير ، عدنان خالد فضل المرابحي ، كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

chattering and therefore the usage of the Holy Qur'an is precise and noticeable for the words which looks synonymous because of they have the minimal sequential semantic differences and meanings with contexts that present in it.

At last ...this thesis is not an explanation or interpretation to this blessing surah but it's a clarification for the second meanings according to the variable levels of surah all of them cooperate for understanding the text in a precise way.....

,unrestricted metaphor (almajaz almursal) and variable metonymies and through the patterns which displayed we discover that all pictures of that metaphor is what we named latent metaphor(almajaz alna'aem) or neglected metaphor .

6- Surah AL-ISRAA one of suras that adorn and veil with metonymical meanings unrestricted metaphor (almursal) and by choosing (alista'ara) and these methods add a beautiful touch on the text and novelty in the expression through embody of mental meanings and foretell facts through perceptible and effective matrixes resurrect the listener to react , scrutinize and contemplation by the power of inspiration in inclination and fright.

7- The thesis clarify the effect of verbal ,exchange(alsarf) and syntax semantics which make the interpretation men (almufasreen) (explainers) a wide range of showing their opinion in the probable meanings .

8- The thesis clarify the semantic meanings that are produced from some of the dictionary (almajameh) and social words .

9- The thesis gain on a benefit from the understood semantic to some of structures to clarify some of semantic meanings in the text like the understood of the conditional sentence ,the description and the purpose.

10-What happened of verbal participation in the Holy Qur'an is very few because most of it is noticed by virtual link and it is not consider from verbal participation but it is nearer to the metaphor.

11- It become clear through the thesis ,there is definitely no complete synonymous in the Holy Qur'an and if it is so the situation will be like

participation of pronunciation semantic ,synonymous semantic ,strange semantic and the thesis reach to the following results:-

1- The thesis expose the idea of the second meanings and their originality in the Quran text which prove that this text has many level of semantic some of them external and other internal.
2- Surat AL-ISRAA one of Mekka suras which descend before immigration of the prophet Mohammed (peace and blessings be upon him and his progeny) and its descent connected with the miraculous trip (alisraa) and the Ascension(almi'raj) the second miracle of the prophet Mohammed(peace and blessings be upon him and his progeny) after the biggest miracle ;the Holy Qur'an.
3- This surah characteristics by different and a lot of subjects from the faith(ala'qaeda), the behaviour ,the example lessons , the divine norms and miracles .....and the thesis calculated fifteen subjects the most important one was the miracle of ALISRAA and ALMI'RAJ and foretell of Judaism nation and its deviation and deterioration in the world and its shameful determinate destiny.
4- The thesis observe many of the second meanings and their effect on the text through the methods and saying arts that mentioned in it like surrounding ,foreword and delay ,release , restriction , elimination and so on.
5- The thesis demonstrate that the intellectual metaphor(almajaz) is not from the basic methodological statements(albaeenia) in the Holy Qu'ran in comparison with other methods like assimilation ,choosing(alista'ara)

Meanings(Alcinaih) like symbols and reference.... Extra.

Third :- semantic meanings :- that meanings which provides to declare them the modern semantic science......and on that delight and according to these level , this thesis has been divided ,and become as follow :-

* preface:- which include the purposes ,the aims and methodology of the thesis.

*foreword:-which include two paragraphs :-

First :-declaration of art features and external characteristics of surah and its subjects and goodness.

Second :-declaration of controversial relationship between the statement (albaceni)explanation and explanation by opinion which is legally prohibited.

* The first part:-search on the second meanings of surah and study a lot,of rhetoric methods in it like informing(alekh'bar) and composition (alen'shaa) and surrounding(alaltefat) ,introduction and delaying, separation and connection ,restriction , release and so on....

* The second part:-which include the metaphor meanings which have a beautiful reactive effect in the paragraph like substitution (alasta'ara) intellectual metaphor and unrestricted (mursal) metaphor also expose to metonymy (alcinaih) meanings and their effect in photography of meanings and their embody like the symbol ,the innuendo and the signal.

* The third part :-which include introduction in the understood of semantic meanings and expose to search on the effect of a lot of founded semantics like the sonic, the exchangeable(assarf),syntax and the understood semantic to some of structures like the prerequisite sentence ,the description and the purpose also

The rhetoric and semantically study of SURAH Al-ISRAA.

Fadhil Dhaeef Sultan.

Summary.

By the name of God , the most merciful, the most compassionate

This thesis is dealing with the study of a surah (chapter) of quran suras (chapters) which is SURAT AL-ISRAA as a declaration study according to what is available of givens from language sciences and semantically varieties .....and this blessing surah one of middle length of suras of Holy Quran characteristics by art and methodological features that is make it as a sample to study of the methods, the rhetoric and the semantic arts in Holy Quran.

This thesis classifies the meanings in this surah into three levels:

First :- the second meanings (althaniah) which are raises by the structure and the systems in the text and these meanings respect their study the science of meanings a branch of rhetoric science.

Second :- the commitment meanings (Alaltazameh) which are studied by science of statement (albeaan) like metaphor(almajaz) and choosing(alasta'ara) and metonymy



University Of Kufa –College Of Arts
Department Of Arabic

A Rhetorical and Semantic Study of Al-Isra'a Sura

A Thesis Submitted to

The Council of The College Of Arts – University Of Kufa

By

Fadhil Dhayif Sultan

In Partial Fulfillment of the requirements for The degree of Master in Arabic language and linguistics

Supervisory

Dr. Khaleel Abd Al-Sada Ibrahim